

بين النظرية والتطبيق

د. محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

توزيع

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

طبعة خاصة بالمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ ١٩٩٧م

توزيع

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد:

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــــد:

فلا أذكر أننى قرأت قبل اليوم كتابا يعالج فن الخطابة. . . ولقد كان الأمل فى أن أكون خطيبا يلح على خاطرى دائما:

فبينما كان يحلم رفاقى أن يكونوا مدرسين أو مهندسين. ضباطا أو مخترعين. . كانت صورة حياتى المقبلة: خطيب. يعتلى منصة. . وبين يديه جماهير ينصتون. . ويتأثرون. إلا أن هذا الأمل لم يأخذ سبيله إلى التحقيق. عن طريق الكتب. أو قاعات الدرس.

لكننى كنت أنتقل ـ مدفوعا بهذا الأمل ـ من هنا إلى هناك ـ لأستمع إلى هذا الخطيب أو ذاك. . وربما طال سفرى. واشتد عنائى. لأمثل ساعة بين يدى خطيب فذ أرى فيه مثلى الأعلى.

وإنى لأعود من رحلاتى قرير العين بما بذلت من مال. وأنفقت من ساعات. من أجل ساعة واحدة. . أستمع. . بل أستمع فيها بخطيب: أتعلم منه. وآخذ عنه. وأغذى روحى الظمأى بوقود من المعرفة على الطبيعة. . وصولا إلى مركز مماثل. . أطل منه على الناس خطيبا يتحمل مع غيره مسؤلية التوجيه.

ولقد تأكد لى خطورة أثر الخطيب فى دنيا الناس. . وما يمكن أن يبثه فى قلوبهم من طاقات تبعث الأمل. وتحض على العمل.

وإذا مضى القائد العسكرى مرفوع الهامة. . ومن خلفه جنود يقتحمون معه غمرات الموت.

وإذا استهوت هذه الصورة ـ بحق ـ قلوبا تعد نفسها لهذا الموقف. . فإن موقف الخطيب الناجح يظل أبرز أثراً. وأشد خطراً. .

إنه الكتيبة التى ترتاد للجيش الطريق.. تمهيداً.. وإعدادا. يمكن القائد العسكرى من إحراز النصر. بما منحه الداعية من زاد تنطلق به النفوس إلى غاياتها فى ثبات.

ذلك بأن القواد.. والدعاة كلاهما رفاق سلاح فى معركة واحدة: يتكاملان. وإذا تدخل السيف أحيانا فحسم المعركة.. وأعز الله به جنده. ونصر عبده. فإن الكلمة الطيبة.. المنبعثة ين قلب عامر بالإيمان.. تواكب النفوس فى اللحظات الحاسمة.. حتى لا يتحول النصر إلى غرور.. وقبل أن تذهب الهزيمة بالنفوس، حسرات.

وعندما انتصر المسلمون فى بدر. جاءت الكلمة القرآنية المباركة راجعة بهذا النصر إلى واهبه سبحانه قبل أن تلعب نشوة الانتصار بالعقول:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ولما هزم المسلمون فى أحد. كان لابد من الكلمة القرآنية، الهادية. الممسكة بالقلوب حتى لا تطير شعاعا: **﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[2].

ولم تتوقف رحلاتى طلبا للعلم والاستيعاب.. من واقع التجارب الحية.. وأحسست بالأمل يتحول مع الأيام تجارب تقترب من النجاح، وأكدت التجربة أن الخطابة بالدرجة الأولى: استعداد.. ولكنه ينمو بالممارسة. والتلقى عن نماذج حية تملأ وعيك وتأخذ عنها مباشرة.

ومن وراء الاستعداد رصيد من الثقافة يغترف منه الخطيب.. وملاحقة للأحداث الجارية بما يناسبها من علاج. على ضوء ثقافة لا تقتصر فقط على الناحية الدينية.. بل إلى جانبها إلمام بما تقدمه المطابع.. وما تقدمه التجارب البشرية المستمرة.

إن الخطابة ليست علما يستوعب. وتحفظ قواعده.. لكنها ممارسة ومعاناة..

---

(١) سورة الأنفال: ٩: ١٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٩.

وفى خيالى صورة فلاح القرية: إنه يحرث الأرض.. ويلقى البذر.. ثم يتعهده. ليقدمه إلينا من كل زوج بهيج. يفعل هذا.. ثم لا يستطيع فى نفس الوقت أن يعرّف لك الزراعة.. لا لغة.. ولا اصطلاحاً!

كما وأنه لا يعرف المصطلحات العلمية لمراحل النمو.. وأنواع الثمر.. ولا يعيبه أن يجهل ذلك.. ما دام يؤدى وظيفته.

وكذلك الشأن فى عالم الخطابة: فالذى يهم أولا: أن تمارس الحديث على أرض الواقع.. لتستوى من بعد على سوقك تعجب الناس

ثم لا بأس أن تحيط علما بقواعد الخطابة.. وأصولها.. وفروعها. ضبطا لخطاك. وتنمية لمواهبك.

وما هذه الصفحات التى أقدمها اليوم إلا قبس من هذه القواعد.. متأسيا بما سبق إليه أرباب هذا الفن.. لتكون علامات على طريق الراغبين فى توجيه الناس. مشفوعة ببعض التجارب العملية المعينة على ذلك.

لقد رمتنا المدنية الحديثة بأشتات من الرفاهية. وما ترتب عليها من مشكلات حملت الشباب أثقالا مع أثقاله..

فلم تترك لهم بالاً صالحا للاستماع.. أو تحمل مسؤولية التوجيه.. بيانا للحق.. ودفاعا عنه.

كل أولئك يشفع لنا حين نقدم هذه اللمحات. بعد أن عمت البلوى. وثقل اللسان. وغاض الاستعداد. فربما أثارت الحماس الراكد. لتتحرك الألسنة طبعا. أو تطبعا...ولا نريد بها أن نصوغ الخطيب كما يجب أن يكون..

بيد أنها محاولات على الطريق نرجو أن تكون خالصة لله تعالى.. ليكون الحديث بها أقل عابا. وأكثر صوابا.

والله أسأل أن يرزقنا جميعا نعمة التوفيق

د. محمود محمد محمد عمارة

جامعة الأزهر

الباب الأول

ما هي الخطابة؟

قالوا في تعريف الخطابة: إنها حدة التصور. وقوة التصوير [١].

فالخطيب يملك من شفافية الروح. وذكاء العقل. ما يعينه على تصور دقائق الحياة والأحياء. يرصد الكوْن بعين باصرة. وبصيرة كاشفة.

وإلى جانب ذلك. فله قدرة على تصوير ما وعاه. ونقله إلى غيره كما فهمه ورآه. في تعبير قوى مؤثر.

لكن الخطيب في ميزان الدعوة لا تنتهى مهمته عند تصوير الواقع كما رآه. ولابد له من خطوة أخرى على الطريق. لا تتم مهمته في غيابها:

فمن واجبه أن يستميل الناس إلى ما يدعو إليه ـ استمالة تحملهم على الطاعة في حال الأمر. والانتهاء عما ينهاهم عنه. ليستطيع بحق أن يؤدى دوره في إحداث التغيير المطلوب على مستوى المجتمع الذى يعيش فيه.

أى أن مسؤوليته لا تنتهى بالإقناع العقلى بفائدة الطاعة. وضرر المعصية. فالناس مثله مقتنعون.

والأهم من ذلك.. جذبهم إليه ليستمعوا استماعا يتوج بالطاعة والامتثال. من أجل ذلك اختار بعض الباحثين[٢] للخطابة تعريفا جامعا لهذه المسؤولية. بكل عناصرها: قال:

الخطابة:

فن مخاطبة الجماهير. بطريقة إلقائية. تشتمل على الإقناع والاستمالة.

وبتأمل هذا التعريف تبرز أمامنا طبيعة الخطابة.. ومسؤوليته الخطيب على

(١) فن الخطابة: ١٤.

(٢) راجع الخطابة للدكتور عبد الجليل شلبي.

أوفى ما تكون . .

فالخطابة فن: أى أنها وإن كانت استعداداً فطريا. لا يباع ولا يشترى، فهى مع ذلك فن من الفنون يمكن تعلمه بالممارسة.

يقول أرسطو: [بعض الناس يمارس الخطابة فطرة وسليقة، وبعضهم يمارسها بالمرانة التى اكتسبها من مقتضيات الحياة. ـ والوسيلتان ممكنتان:

فواضح أن تكون هناك طريقة. وأن يكون هناك مجال لتطبيقها. ولضرورة النظر فى السبب الذى يؤدى إلى نجاح هذا العمل المنساق بالعادة. أو المندفع بالفطرة أو السليقة. . لا يشك إنسان فى أن مثل هذه الدراسة من خاصة الفن][1].

المخاطبة:

وإذا كان كاتب المقال يسطر أفكاره على الورق. . ويغير من أفكاره ما شاء له التغيير. فإن الخطيب مسؤول أن يبلغ رسالته مباشرة. وأمام الجمهور مواجهة بكل ما تحمله المواجهة من أخطار.

قاعدة واسعة:

والخطيب لا يواجه فردا. أو اثنين. . أو ثلاثة. . ولكنه يلاقى جمهورا غفيرا. . ومع كثرته فهو متعدد المستويات. متنوع الثقافات. ويفرض ذلك: إرادة قوية وصوتا عاليا. وانفعالا بما يقول. ليقدره ذلك على السيطرة والإمساك بزمام موقف معقد متعدد الجبهات. . والمفاجآت.

طريقة الأداء:

ويتميز الخطيب بلون من الأداء:

فليس هو بالقاص الذى يسرد الوقائع سردا، ولا مؤرخا يحكى أحداث التاريخ بصوت رتيب.

---

(1) الخطابة: لأرسطو ١ ـ ٩ بترجمة إبراهيم سلامة.

لكنه يعبر عن معانيه بما يناسبها من الأداء الصوتى: علوا وانخفاضا.. رقة وقوة... وبذلك يشترك الأداء المعبر مع اللفظ فى إحداث التأثير لدى المستعمين.

النتيجة:

يستهدف الخطيب من وراء ذلك كله:

(أ) نقل أفكاره إلى الآخرين.

(ب) ثم إقناعهم منطقيا بهذه الأفكار.

(جـ) وأخيرا.. جذب قلوبهم إليها. ليعملوا بمقتضاها.

الفرق بين الإقناع.. والاستمالة

قد تقنع الشباب بمضار التدخين مثلا. فتنجح فى مهمتك... بل إنك تحاول مع البعض فإذا هو أشد اقتناعا منك بضرره البالغ على الصحة والوضع الاقتصادى.

وقد يكونون. أشد منك اقتناعا من حيث إنهم يصطلون بناره دونك.. ولا يعرف الشوق إلا من يكابده!

ومع ذلك.. فهم يمارسون التدخين بشراهة وتحد؟

إلى هنا.. فلم يكف الإقناع... ولابد من الاستمالة جذبا لهم. وكسبا لإذعانهم المنتهى بإقلاعهم عن عادة مَهَّد العقل والقلب معا للتخلص منها.

ولو أنك وضعت السّراق.. والقتلة.. والزناة فى قفص الاتهام وحاكمتهم جميعا على ما كسبت أيديهم.. لما كان جوابهم إلا أننا نعرف مدى الضرر.. وعمق الإجرام.. لكن الشيطان.. شاطر؟!

فالإقناع ممكن. والسبيل ممهد إليه... أما الاستمالة المتوجة بالاستجابة.. فهى بُعْدٌ آخر على الطريق تتم به وظيفة الخطيب. بالترغيب تارة. والترهيب تارة أخرى.. وبهما معا أحيانا..

مثال تطبيقى من السنة المطهرة:

أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ: عن أنس رضى الله عنه قال أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

« يا أيها الناس إن الله قد اختار لكم الإسلام دينا فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخلق ألا إن السخاء شجرة من الجنة وأغصانها فى الدنيا فمن كان منكم سخيا لا يزال متعلقا بغصن منها حتى يورده الله الجنة. ألا إن اللؤم شجرة فى النار وأغصانها فى الدنيا فمن كان منكم لئيما لا يزال متعلقا بغصن من

أغصانها حتى يورده الله النار» قال مرتين : «السخاء فى الله السخاء فى الله»[1].

كيف بلغ الرسول بقوله مكان الإقناع:

أولا: بمخاطبة العقل القاضى بأن الله تعالى إذا كان قد أكرمنا بهذا الدين الذى هو أجل النعم.. فلابد أن يجىء الشكر اعترافًا بهذه النعمة.. على أن يأخذ الشكر طابعه العملى على طريقين:

أ - طريق البذل بالمال-إعانة للمحتاج. وصيانة لمرافق المجتمع.

ب - طريق الود الجامع للقلوب. وذلك بحسن الخلق.

وحيث يبدو التكليف هنا صعباً.. فإن العقل لا ينهض به وحده.. ولذا يتجه ﷺ إلى الترغيب والترهيب.. ليتحرك المخاطب ويأخذ خطوة عملية إلى شكر هذه النعمة.

وظهر ذلك فى استخدامه ﷺ لنسق الترغيب هنا وما تلاه من الترهيب.. والذى ينسجم مع طبيعة الإنسان التى لا تستجيب إلا للرفق..والتدرج.. وها هو ذا عليه الصلاة والسلام يثير فيها الشوق إلى السخاء.. على سنة التدرج استنفاراً للقوى الكامنة.

فالسخاء.. شجرة..ثم هو شجرة فى الجنة.. وليست من أشجار الدنيا..

فإذا تفتحت النفس.. وأصغت الأذن.. جاءها الأمل فى الوصول: ومع أن الشجرة فى الجنة.. فأغصانها مدلاة فى الدنيا.. ثم هى فى يدك ما دمت سخياً.. وبالمحتاجين حفيًا!

ومع ذلك كله.. فهى واصلة بك حتما إلى ما تشتهى.. إلى الجنة!! وبهذا الأسلوب الفريد. يمكن للمتكلم أن يحرك العقل.. والمشاعر جميعاً لينهض المستمع إلى التطبيق.. بكيانه كله.

وقل مثل ذلك فى كل ما يتناوله الخطيب من قضايا.

---

(١) رواه ابن عساكر، وكنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ العلامة على المتقى علاء الدين الهندى:٦/٣٢٢ ط. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد. قلت: وهو حديث ضعيف.

إن محبة الله تعالى لا تأتى من مجرد الإيمان العقلى به.

فالأمور العقلانية وحدها. ما كانت يوماً لتؤثر فى العواطف والقلوب. ولو كان كذلك. لكان المستشرقون فى مقدمة المؤمنين بالله ورسوله. ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حباً لله ورسوله.

أو سمعت بأحد من العلماء ضحى بروحه إيماناً منه بقاعدة رياضية. أو مسألة من مسائل الجبر؟!

ذلك لأن الدوافع الوجدانية فى القلب من خوف ومحبة ورجاء. تفعل ما لا يفعله الفهم العقلانى المجرد.

ولقد أجاد الشاطبى رحمه الله حينما فرق فى باب الدوافع بين عامة المسلمين الذين دخلوا فى ربقة التكاليف بدافع من عموم إسلامهم.. وخواصهم الذين دخلوا فى ربقة هذه التكاليف.. يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم.. وهو الحب والرجاء يقول:

«فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمان من غير زائد».

والثانى: حاله حال من يعمل بحكم غلبة الخوف والرجاء. أو المحبة:

فالخوف: سوط سائق... والرجاء: حادٍ قائد... والمحبة: تيار حامل... فالخائف يعمل مع وجود المشقة...

غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون. وإن كان شاقاً... والراجى يعمل مع وجود المشقة أيضاً..

والمحب يعمل ببذل المجهود شوقاً إلى المحبوب.. فيسهل عليه الصعب. ويقرب عليه البعيد.

وتفنى القوى. ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة. ولا قام بشكر النعمة[1].

(١) د. محمد رمضان البوطى - فقه السيرة - ص٦٥، ٦٦.

وهكذا تبدو مسؤولية الخطيب فى إثارة القوى الكامنة فى داخل الإنسان لتنطلق من عقالها. إلى جانب العقل الواعى. وصولا إلى ما يرجوه من تأثير.

وإذا كان المحاضر يستخدم البرهان بياناً للأرقام والأحجام. فإن هذا البرهان لا يحمل على اتخاذ الطاعة سبيلا.

ويتكفل بذلك إثارة الوجدان.. وتلك وظيفة الخطيب.

يقول ابن سينا: إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً: وذلك... لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن. أفضل نفعاً. وأعظم على الناس من أضدادها فائدة:

لأن نوع الإنسان يعيش بالتشارك. والتشارك محوج إلى التعامل والتجاور... وهما محوجان إلى أحكام صادقة.

وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون مقررة فى النفوس. ممكنة فى العقائد. والبرهان قليل الجدوى فى حمل الجمهور على الحق. فالخطابة هى المعنية بذلك.

أهمية الخطابة:

تنبثق أهمية الخطابة من أمور:

١ ـ كونها حاجة نفسية.

٢ ـ ظاهرة من ظواهر المجتمع البشرى.

٣ ـ وحدتها الكلمة بسحرها وفاعليتها.

٤ ـ بيان من البيان الذى هو نعمة الله على الإنسان.

٥ ـ سلاح من أسلحة الدعوة.

الخطابة: حاجة نفسية.

يولد الإنسان فيستقبل الحياة بما فيها ومن فيها... وميلاد الإنسان بداية لمرحلة من مراحل الصراع مع نفسه.. ثم مع بيئته فى محاولة إثبات ذاته.

وفى دوامة هذه المعاناة.. يحاول التعبير عن دوافعه. وآلامه وآماله بمختلف الصور. بالفلسفة.. أو الشعر.. بالصورة أو بالحركة.. وبالخطابة التى هى أبرز أدوات التعبير جميعاً..

وإذا احتاج الإنسان إلى الطعام.. فإنه أيضاً فى حاجة إلى الكلام! لينشئ عن طريق التعبير علاقات اجتماعية مع الآخرين... تستمر بها الحياة.

إنها ـ أى الخطابة ـ تهدف أبداً إلى التأثير والإقناع. معبرة عن عقيدة الخطيب. ورأيه فى مشكلات الحياة... تشتد باشتداد الأزمات. التى ترتبط ارتباطاً جذرياً بمصير الجماعة. وتقرير مستقبلها:

فهى ربيبة السلاح تواكبه.. وتعوض عنه. وأحيانا كثيرة تشحذه وتحفزه وتقتحم ملامح الدمار[1].

وإذ يسرّد المؤرخ ـ مثلا ـ حقائق التاريخ بهدوء وصوت رتيب.. بعيداً عن الانفعال..

فإن وطأة الإحساس بالانحراف فى ميزان الخطيب تفجر الانفعال الذى يجعل من التعبير عنه أمراً ملحاً لا يحتمل السكوت أو المهادنة أو الهدوء أو التأجيل.. ومن ثم فحاجته إلى التعبير أشد وألزم!

ظاهرة اجتماعية:

الإنسان مدنى بطبعه: لا يعيش وحده. ولابد من جماعة ينتسب إليها.. ويتفيأ ظلالها. ويستثمر طاقاته بالتفاعل معها.

ومن سنن الله فى هذا الاجتماع البشرى: الاختلاف.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين. إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

---

(١) الباحوى ـ فن الخطابة: ٨.

(٢) سورة هود :١١٨، ١١٩.

وقد يكون هذا الاختلاف:

١- حول فكرة أو رأى.

٢ - على مال أو متاع دنيوى.

٣ - من أجل منصب.

ومن مضاعفات ذلك: محاولة الإنسان إقناع غيره واستمالته... إقناعه عن طريق البرهان.. واستمالتة بوسيلة الوجدان.. وتأخذ الخطابة هنا دورها القيادى. حين يأخذ الفرد موقعه فى المعارك الدائرة مهاجماً.. أو مدافعاً.. عن طريقها.

يقول الدكتورر أحمد الحوفى:

(منذ اجتمع الناس فى مكان واحد واستوطنوه. وتكلموا بلسان واحد.. عرفوا الخطابة... لأنه من الطبيعى أن يختلفوا فى رأى أو عقيدة.

ومن الطبيعى أن يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة. فيحاول المتغلب أن يستميل من يخالفونه. وأن يقنعهم... فإذا ما أقنعهم واستمالهم. فهو خطيب. وقوله خطبة.

ثم إنه من الطبيعى أن تنشب أمور تستدعى تعاون المجتمع. وتضافر قواه على اجتلاب نفع عام مشترك. أو اتقاء ضرر. فيتصدر بعض النابهين من هذا المجتمع لقيادة الجماعة وزعامتها. وعدتهم فى ذلك خطابتهم)[1].

وقد ذهب ابن رشد إلى جعل الخطابة قاسماً مشتركاً وجارياً على كل لسان مهما كان مستواه الثقافى ضئيلا:

(كل واحد من الناس يوجد مستعملا لنحو من أنحاء البلاغة. ومنتهياً منها إلى مقدار.

وذلك حق: فالتاجر ينادى لسلعته بشىء من البيان بلغته.. يستعمل فيه كل وسائل الإغراء. وكل ذى رغبة فى أمر. يجتهد فى استعمال عبارات خاصة. يجتذب بها من يريد حمله إلى ما يبغى ويريد. ولو تسامحنا لسمينا ذلك النحو من

(١) فن الخطابة: ٤٦.

الكلام خطابة[1]

إنها إذن مظهر من مظاهر الاجتماع. ثم إنها مقياس تقدم الجماعة وآية رقيها. تحيا بحياتها. وتموت بموتها

الخطابة والحضارة:

ويذهب الشيخ الزنكلونى إلى اعتبار البيان آية دالة على تقدم الأمة وذلك فيما قرره بقوله[2]:

إن دقائق التخاطب موجودة فى كل لغة من لغات العالم إلا أنها لم تكثر فى لغة العجم كثرتها فى لغة العرب. ولم تبلغ حدها الكمالى فى الكتب السماوية كما بلغته فى القرآن. لذلك كان إعجاز القرآن فى لفظه ومعناه لإثبات أنه من عند الله تعالى].

الطريق إلى إجادة البيان:

حركة الجسم وانبعاثه نحو هدف ما.. تابعة لحركة النفس قوة وضعفا. فهناك ـ حول الإنسان ـ مؤثرات خارجية مختلفة. تسلط على قوى النفس الداخلية.

فإذا سلطت هذه العوامل الخارجية على النفس تحركت هذه. واندفعت بالجسم بقوتها ليحقق مطلوبها.. فإذا كانت الأمة بسيطة فى أفكارها ومعقولاتها لا تحتاج فى طريق التخاطب إلى مؤثرات كثيره. والأمة العربية عنية بهذه المعانى الباطنة والملكات النفسية التى أثمرت وآتت أكلها. وكان البيان على رأس العوامل التى تستنهض بها.

ولقد كانت الأمم الأخرى مقيدة مستعبدة ومن ثم جاء بيانها ضعيفاً محدوداً.. من حيث كانت موارده ضعيفة عفنة.

وكذلك الأمم الحرة التى اتجهت إلى الفنون والصناعات وتغلغلت فى عالم المادة لا يمكن أن تقوى فى بيانها. لأن المادة ليست مورداً عدباً من موارد

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة ـ الخطابة: ٢١

(٢) الدعوة والدعاة بتصرف

البيان.. ولكن الحرية المطلقة هى الغذاء الوحيد لملكة البيان.

والعماد فى تكون ملكات النفس هو استقلال الفكر وقوة النفس ونفاذ البصيرة.. وعن هذه جميعاً يأخذ البيان العربى سمته المرموق للتأثير فى النفس البشرية.

إن الحرية رأس مال الحياة المعنوية.. ومنبع الغرائز الفطرية... وعلى الحرية قامت حياة العرب.. وبالحرية اعتزوا.. وبها كمل بيانهم.

وقد نطق الطفل العربى بالضاد.. بعضلات هيأتها الطبيعة.. وهى لا تزال متعاصية على فصحاء الأعجمين].

وقد كان العربى يغوص فيما حوله من الأشياء.. ثم يغوص مرة أخرى فى طبيعة الإنسان ليعرف مواطن القوة والضعف فيها.. حتى يبلغ من نفس السامع ما أراد..ثم يبدأ خطواته العملية هكذا... كالقائد العسكرى تماماً:

١ - يستخرج من المؤثرات ما يحرك العواطف.

٢ - يؤلف بينها. ويرتبها ترتيباً محكماً يأمن معه الانهزام إذا هجم على السامع.

٣ - وقد يقدم لهذا الهجوم أموراً تسترعى نظر السامع فتصرفه عن كل ما يشغله.

٤ - ثم يختار من القوالب والأساليب أروعها وأنسبها بالمقام:

أ - والتى يلذ لها السمع إذا كان المقام مقام استعطاف.

ب - أو يخضع لها إذا كان مقام عزة وإباء.

٥ - وقد يلمح من المخاطب تكبرا فيعدل عن الحقيقة إلى المجاز.. ويرتكب أشق عمليات التكييف.

٦ - وقد يضطر إلى تكثير الألوان والظلال.. وهو ما يسمى بالبديع.

ويمكننا بعد ذلك أن نقول: إن اللغة العربية ركيزة من ركائز الحضارة

الإنسانية.. والعربى بسببها عامل أساسى فى تشييد هذه الحضارة.

وتتأكد هذه الحقيقة بمزيد من التأمل فى خصائص لغة القرآن الكريم:

إن اللغة العربية ليست مجرد أصوات أو حروف.

فالإعراب مثلا حركات.. ولكنها حركات تدل على معان:

قال رجل لعلى كرم الله وجهه: قتل الناس عثمان.

فقال له: بين الفاعل من المفعول رض [1] الله فاك.

ولما قالت ابنة أبى الأسود الدؤلى وهى تنظر وتعجب من منظر السماء: ما أحسنُ السماء! (بضم أحسن).

فقال أبوها: نجومها..

فقالت: ما عن هذا أسأل..وإنما أنا أعجب!

فقال لها: إذن.. فقولى: ما أحسنَ السماءَ (بفتح أحسَن) وافتحى فاك!

وهكذا وضع باب التعجب والاستفهام.

وحين تخاطب إنسانا فإنك تدخل فى اعتبارك وضعه النفسى وأنت تتجه إلى باطنه لتؤثر فيه:

فخالى الذهن من قيام زيد يكفى أن تقول له:زيد قائم.. ولا تستعمل أدوات التوكيد.. فإذا كان مترددا: هل قام.. أم لم يقم.. احتاج التردد إلى نسبة من التوكيد وكان خطابه المناسب أن تقول له:إن زيداً قائم..

فإذا أخذ السامع وضع الإنكار.. فرض عليك أن تكافئ هذا الإنكار بنصيب أوفى من التوكيد فقلت: إن زيداً لقائم..أو: والله إن زيدا لقائم..

تأثير الفكر فى اللغة:

ومعنى ذلك أن للغة العربية صلة وثيقة بالنفس الإنسانية وعالمها الباطن المتراحب..

---

(١) رضَّ: كسر ودق

وقد كان تفرد العربى بفكره وحريته وخصوبة مشاعره عاملا نهضت به اللغة وتبوأت مكانها العلى بين لغات العالم بهذا الرصيد العظيم.

يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين[1].

[للفكر أثر فى اللغة عظيم. ولولا الفكر لفقدت اللغة خواصها. ولم يكن لوجودها أية فائدة.

فإن الفكر هو الذى يربط الألفاظ بمعانيها. فيعمد إليها وهى أصوات فارغة. فيردها كالأصداف تحمل من درر المعانى ما يبهر العقل. . .أو كالأغصان تحمل من الثمار ما تشتهيه النفس.

والفكر هو الذى يتوسل به الإنسان إلى توسيع تطاق اللغة وتنظيمها، فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة أو يبتدع فيها أساليب طريفة. ويضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها.

ومن شواهد تأثير الفكر على اللغة: أن اللغة لا يرتفع شأنها وتظهر فصاحة ألفاظها، وغزارة مادتها، وحسن بيانها، إلا أن تلد أرضها رجالا ذوى عقول نيرة. وقرائح جيدة].

وكذلك كان العربى. . .وهكذا كانت اللغة العربية

ومعنى ذلك أيضا. .أن اللغة العربية باقية لا تموت ما بقى فيها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. . لقد طلعا على العرب فكانت النقلة الهائلة فى لا براعة الأسلوب. وغزارة المادة. وكثرة الأغراض على نحو صارت به عصية على الاندثار: ما بقى أهلها مستمسكين بها مدافعين عنها وإلا فإن لغة القوم إلى زوال إذا هم ضعفوا ولم يكونوا عند حسن الظن بهم فرسانها المغاوير:

ذكر ابن حزم فى كتاب الإحكام سنة من سنن الكون فى سقوط اللغة فقال:

«إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها. وبحلول غيرهم عليهم فى مساكنهم. أو تنقلهم عن ديارهم. واختلاطهم بغيرهم.

(١) من محاضرة بجمعية الهداية الإسلامية (يونية ١٩٣٢).

فإنما تعتبر لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها. ونشاط أهلها وفراغهم.

وأما من تلفت دولتهم. وغلب عليهم عدوهم. واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم. . فمضمون منهم موت الخاطر.

وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم. ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبور علومهم.

هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل والضرورة».

يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: اللغة العربية لا تموت:

[ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الأمم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها، وإذا فرضنا أن شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها، فإن الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية أحرص الناس على حياة لغتهم، فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة أخرى وإن تضافر على هذه اللغة أمم الأرض جميعا.

تأبى هذه الشعوب هجر اللغة العربية وتحويل ألسنتها إلى لغة أخرى، تأبى ذلك لأنها لغة القرآن الذى هو معجزة الرسالة ومطلع الهداية، ولأنها تملك من فصاحة الكلم، وحكمة الأساليب، وغزارة المادة ما يجعل خطيبها أو شاعرها أو كاتبها المجلى فى حلبة البيان، فلو زهدت هذه الشعوب الإسلامية فى اللغة العربية كانت قد فرطت فى جنب الله، وأضاعت من يدها لسانا بلغ فى الإبداع أقصى ما يمكن أن تبلغه لغات بنى الإنسان].

كتب[1] «جول فرن» قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنو من وسطها، ولما أرادوا العود إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل جول فرن عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه.

أهمية الكلمة:

وإذا تأملنا مادة « ك ل م» وجدنا معناها أينما وجدت فى كل التصاريف:

(١) من مقال «عليكم باللغة العربية» للاستاذ محمود بك سالم.

القوة والشدة:

الكلم: الجرح وهو من آثار الشدة.

الكلام: سبب للشر فى أغلب الأمور:

قال الأخطل:

حتى اتقونى وهم منى على حذر   والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

كمل: تمّ.. والشىء إذا تم.. قوى... لكَم: من اللكم.. ملك: وهو مصدر قوة المالك.

ولو تأملنا مادة «ق و ل» لم نجد أنفسنا أمام ألفاظ.. وإنما هى بناء لفظى نفسى معا:

فمادة: قول تدل على الحركة. (حركة الشفة واللسان) ولهذا السبب لا تبدأ بساكن - كاللغات الأخرى - وتنتهى بساكن لأنه يؤدى للسكوت.. لماذا؟

لأن هناك حقيقة تقرر: أن كل قول يهيئ لفعل.. والفعل يقتضى الحركة.. فبدأ الفعل بالحركة!!

وقد أشار «ابن جنى» فى كتابه «خصائص اللغة» إلى الفرق الواضح بين مادة «الكلام» ومادة «القول» وما يتميز به الكلام من قوة وحركة ناشئة عن الأصل اللغوى للكلمة.

من خصائص اللغة العربية:

١ - اللغة العربية لغة مرنة.. تواكب التقدم.. فهى من السعة والشمول بحيث تسع الناس جميعا.. فهى لغة القرآن الكريم الخالد.. الكامل.. الشامل.. فلابد أن تكون على مستواه كمالا. وشمولا.

وإذا ظن السطحيون أنها عاجزة عن الوفاء بكل المعانى البشرية وبنوا على ذلك أنها عاجزة عن أن تكون وسيلة لتدريس الطب مثلا.. إذا ظنوا ذلك فقد قالوا بغير علم..

وتبقى اللغة العربية بكمالها وشمولها اللغة العالمية.. بل اللغة التاريخية..

وهى على ما يقول الشاعر:

لا تقل دارها بشرقىٍّ نجدٍ   كل نجدٍ للعامرية دار!

٢ـ ثم هى لغة الوضوح فمن سماتها أنها واضحة الدلالة. فهى مبينة للقصد. رافعة للّبس.

إذ لو كان لبس لما كان وئام وتفاهم.. وإنما كان التنافر ثم الخصام.. فالصدام!

وضوح الدلالة أوّلا[1]:

ومن دلائل الوضوح فيها أن الاستمساك بالقاعدة النحوية أو الصرفية قد يكون على حساب وضوح المعنى المراد أحيانا. ولكن اللغة قد تفرط فى القاعدة. وتسقطها من حسابها.. ليظل المعنى واضحا قريبا:

مثال لسقوط القاعدة الصرفية:

تقول القاعدة: إذا تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا. مثل: قال.. ولكن الفعل: حَوَل: وحَوَر.. باقيان بلا قلبنا.. لأنا لو قلبنا.. لحصل لبس.. فلتسقط القاعدة.. وليبق المعنى واضحا.

مثال لسقوط القاعدة النحوية:

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة: الآية: ٦٩: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالآية تفتح أبواب التوبة على مصاريعها.. فالله تعالى يقبل التوبة عن عباده.. حتى عن أخطر المنحرفين.. وهم الصابئون.. فإذا علم المذنبون أن أخطرهم وهم الصابئون يمكنهم بالتوبة أن يعودوا إلى ربهم.. قوى أمل المذنبين

---

(١) رجعنا فى هذا إلى آراء المتخصصين من علماء اللغة.

فى النجاة..

وكان المتوقع أن تنصب كلمة «الصابئون» عطفا على المنصوب قبلها..ولكنه تعالى رفعها لفتا للذهن بقوة.. حتى ينتبه عند هذا المنعطف ويعرف هذا المعنى الذى لن يلتفت إليه إلا بمخالفته لما قبله فى الإعراب.. مع ملاحظة ما يلى:

أن الآية الكريمة لم تقل «إن المؤمنين.. وإنما قالت: **﴿إن الذين آمنوا.. والذين هادوا﴾** ويعنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن النصب فيما اختارته الآية الكريمة مضمر.. غير ظاهر..

من أجل ذلك يتحمل الحس العربى الانتقال منه إلى رفع «الصابئون» بلا صدمة للذوق العربى..

أما لو قال تعالى إن المؤمنين.. لصدم الحس العربى بالانتقال من النصب الصريح إلى الرفع الصريح بين المتعاطفين!!

ولهذا الوضوح صلة بهدف القرآن ـ كما قال العلماء ـ وهو: أنه رحمة.. ولأنه رحمة.. فإنه لا يُبْهم.. حتى لا يشقى المستمع بهذا الإبهام.

٣ ـ دقيقة التعبير دقة تظهر بوضوح فى الآيات القرآنية.. التى يقع اللفظ فيها موقعه.. ولا يغنى عنه لفظ سواه.

أمثلة:

أ ـ يقول سبحانه وتعالى فى سورة الإنسان: الآية: ٣: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾**

يقول القاضى عبد الجبار: «بتصرف»:

إن كلمة «شاكرا» وكلمة «كفورا» وضعت كل منهما فى موضعها: فلم يقل سبحانه «شكورا» بصيغة المبالغة: لأن نعم الله على الإنسان كثيرة.. لا تعد ولا تحصى.. وإذن.. فمهما شكر النعم.. فشكره قليل.. ولذلك لم تجئ بصيغة المبالغة ولكن «كفورا» جاءت دونها بصيغة المبالغة.. لأنه إذا كانت النعم كثيرة فإن الكفر بها يكون عظيما.

أسباب الإلحاد.

ويفرض الاعتبار القومى العناية بالعربية. فهى اللغة المشتركة بين الأقطار العربية كلها، مما دعا الأقطار التى فرض عليها الاحتلال لغة أخرى زاحمت العربية وأبعدتها عن ألسنة أبنائها مثل الجزائر، دعا تلك الدول أن تبذل كل جهد من أجل التعريب، ودعا الأقطار التى أفسد بعدها عن بقية الأقطار العربية واختلاطهما الشديد بأجناس غير عربية مثل الصومال إلي أن تعنى بالعربية عناية زائدة، والعربية هى اللغة المشتركة بين الشعوب العربية على اختلاف دياناتها، مما دفع مسيحى لبنان إلى أن يكونوا أول المعتنين بهذه اللغة، وأول المؤلفين لمعاجم حديثه - وأكثرهم متابعة للتطور، فى العصور الحديثة. ولا تصلح أية لغة عامية - حتى العامية المصرية على شيوعها - لتكون الرباط الوثيق بين هذه الأقطار، فتحل محل العربية الفصحى

الوحدة واللغة المشتركة:

وكلما اشتدت الحاجة إلى توحيد الأقطار العربية فى دولة واحدة أو التنسيق بينها تحت مظلة الجامعة العربية أو خارج مظلتها، تبينت الحاجة إلى تلك اللغة المشتركة منذ زمن بعيد. والوحدة أو التنسيق الشامل أو الجزئى واحد من أهم الأهداف التى تسعى إليها الدول فى القرن العشرين، بعد أن بلغ التقدم درجة تجعل جهد الدولة الواحدة عبثاً لا يحقق شيئاً، ويوجب التنسيق والتضافر.

أضيف إلى الاعتبار القومى الاعتبار الفكرى. فالعربية الفصحى من أغنى اللغات بالمفردات، ومن أقدرها على الوضع والاشتقاق، وعلى الاقتراض من اللغات الأخرى: ما تهذبه فتعطيه مسحة عربية، وما تتركه على صورته الأجنبية. واستطاعت العربية - التى كانت لغة بدوية - أن تتمدن، فتحمل ما أرادت من الحضارات الإغريقية والفارسية والهندية وغيرها فى عصورها القديمة. واستطاعت فى العصور الحديثة أن تتحمل كثيراً من العلوم الراقية مع سرعة تطورها][1].

(١) د. حسين نصار.

معنى بلاغة الكلام:

يكون الكلام بليغا . . أى بالغا هناك عمق الإنسان إذا توفرت له عناصر الكلام البليغ وهى:

١ـ أن تكون ألفاظه فصيحة.

٢ ـ ونظمه محكما.

٣ ـ وأن تكون دلالته على المعنى منتظمة وافية.

وذلك إجمال يحتاج إلى شيء من التفصيل:

١ ـ معنى فصاحة الكلمة:

أ ـ أن تكون سهلة على اللسان.

ب ـ خفيفة الوقع على الآذان.

جـ ـ يألفها الذوق . . فلا تكون نابية جافية.

د ـ أن تكون جارية على قياس لغة العرب.

٢ ـ النظم المحكم:

أن تقع كل كلمة فى موقعها اللائق: فكل كلمة تعانق الأخرى . . فلا تستطيع أن تقول: لو تقدمت هذه الكلمة . . أو لو تأخرت . .

حتى الجملة المعترضة . . [ولا محل لها من الإعراب] فإن لها محلا من المعنى . . لأنها تشكل مع سابقتها ولا حقتها بناء متكاملا.

٣ ـ انتظام الدلالة:

ويعنى انتظام الدلالة . . أن اللفظ حين يطرق سمعك . . فإن معناه يخطر فى قلبك . . وفى نفس اللحظة . . إنه كالطعام الهنيء المرىء . . يأخذ سبيله فى كيانك بلا معوقات . . ثم يستقر فى العروق دما . .

وأسرع منه ذلك المعنى المشتق من اللفظ الفصيح والذى يبرق فى قلبك ضياء . . فإذا هو ممتد فى قلبك . . فإذا أنت منفعل به . . عامل بمقتضاه.

ب ـ فيما حكاه القرآن الكريم عن فرعون قوله: **﴿ألم نربك فينا وليدا﴾**.

لم يجرؤ فرعون على أن يقول «صغيرا» وآثر «وليدا» لأن الصغير معناه: أنه تعهده صغيرا.. حتى كبر..

وهذا غير صحيح...وإنما الصحيح أنه تعهده فقط لحظة الميلاد. وكان وجود موسى فى قصره مجرد «لبث» وكان الله تعالى هو المربى الحقيقى.

هذه أهم مميزات اللغة العربية.. والتى بلغت أسمى مرتبة بالقرآن الكريم الذى شرفت به.

من عيوب اللغات الأخرى:

بالمميزات الآنفة صارت اللغة العربية لغة التواصل بين الأجيال.. يفهم اللاحق ما خطه السابق.. ويتفاهم بها الجيل تفاهما يلف الجميع في وحدة جامعة مانعة..

أما اللغات الأخرى فلم تحظ بهذا الشرف لعيوب فيها لخصها أحد الباحثين فيما يلى:

أ ـ فيها حروف تكتب ولا تقرأ.

ب ـ وحروف تقرأ وهى غير مكتوبة.

جـ ـ لغة سماعية لا يطرد فيها قياس. ولا تعرف لها قاعدة.

د ـ ومخارج حروفها عجيبة.

هـ ـ ليس لها نسب ثابت. ولا أصل معروف بل هى لمامة من الطرق.

و ـ لا يستطيع واحد من القرن العاشر أن يقرأ لغته فى القرن التاسع ومع ذلك فرضها أهلها على الدنيا.

ومع هذه العيوب الصارخة. فقد كانوا يتواصون بالاهتمام بها:

وعندما احتل الألمان فرنسا فى حرب السبعين. قال الأستاذ لتلاميذه:

«اعلموا يا أولادى: أنكم أضعتم بلادكم. وسلمتموها إلى عدوكم بإهمالكم

لغتكم.

أما بعد: فإن هذه الخصائص التى اختص الله تعالى بها لغة القرآن الكريم.. تفرض علينا شكرها بالحفاظ عليها.. على الأقل.. كما يفعل الأجانب الذين غالوا بلغاتهم..

[ذكرت وكالات الأنباء: أن البرلمان الفرنسى صدق على مشروع قانون لحماية اللغة الفرنسية.

ويجرى الآن إعداد قاموس خاص. لاستبدال الكلمات الإنجليزية التى شاع استعمالها. بين أبناء الشعب الفرنسى..].

وما أحرانا أن نحرص على الاعتزاز بلغتنا.. فنرفض الدخيل.. ما دام فى لغتنا البديل.

حتمية العناية بالعربية:

بالإضافة إلى أنها لغة التنزيل.. فإن اللغة وعاء الفكر.. وكما يقولون:

[لا وجود للأفكار خارج نطاق الألفاظ].

وإذا تجنبنا النظرة التاريخية إلى اللغة العربية واكتفينا بالنظر إلى الواقع الراهن وجدنا اعتبارات متعددة تدعو إلى العناية بها.

وأود أن أبدأ بالاعتبار الدينى. فالعربية لغة القرآن والحديث والفكر الدينى الإسلامى، وهى مصادر الشريعة الإسلامية. فلابد إذن أن نعرف العربية، بل أن نتقن مسالكها الأدبية فى التعبير، لنحسن فهم مصدر تشريعنا، ونحسن التعرف على نصوصه ودلالته وروحه فنحسن الأخذ منه.

ويفرض الإسلام الصلاة ـ وهى من أهم أركانه الخمسة ـ بالعربية. فلا يبيح معظم الفقهاء قراءة الفاتحة فى الصلاة، مترجمة إلى لغة أخرى، بل يوجبون قراءتها حتى لو أداها المصلى الأجنبى دون أن يفهم معانيها. ولا شك أن كل حريص على دينه من المسلمين ـ وخاصة العرب ـ جدير بالسعى وراء الإحاطة بالعربية ليعمق معرفته بدينه. وقد أعلن علماء الدين أن الجهل بالعربية واحد من

أما وفاء العبارة فيعنى: أنها كالمرآة.. تريك المعانى.. المعانى الأصلية. والفرعية الزائدة عليها.. تريك إياها.. واضحة جلية.. فلا يفوتك شىء منها..

إنها العبارة الجلية الوفية.. التى لا تغدر.. ولا تخون!!

وإذا بك من الجملة العربية كأنك أمام فصٌ من الماس: له أضلاع.. وكل ضلع يعطيك شعاعا.. لكنها فى جملتها - كما قيل - رائعة هندسية!!

[ولئن كان من سمات البلاغة الرفيعة عند العرب الإيجاز الذى يتحدثون عنه بأنه [خير الكلام ما قل ودل].. ولئن كان أسمى ما يوصف به شخص من بلاغة: أنه يستطيع أن يعبر عن المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة.. وألا يكون فى كلامه حشو لا تقتضيه ضرورة المعنى حتى يكون الكلام كما يصفه الجاحظ مزكيا إياه [وقال بعضهم: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه. ولفظه معناه.. فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك].

ولذلك كان النقاد ينفرون من الكلام الذى يزيد على مقتضيات المعنى ويعبرون عن ذلك بأنهم كانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله(1).

بلاغة القرآن

ولقد تسنم كتاب الله تعالى ذروة البلاغة.. وبلا منازع..

والفرق هائل بين بلاغة القرآن.. وبلاغة الإنسان فيما قرره علماء هذا الفن... فالبليغ من البشر مهما رسخت قدمه لكنه:

أولا: لو أطال الكلام.. لضعف آخره عن أوله.

ثانيا: والإنسان قد يحسن فنا. ثم يضعف فى آخر. ولكن القرآن الكريم هو الأقوى.. ودائما.. فى كل فن من فنون القول..

إلى جانب هذا الإعجاز الذى تفرد به القرآن الكريم حين يعيد القصة فى سورة.. ثم فى سور.. والمستوى واحد..

ولعلك شاعر بحلاوة السورة التى تقرؤها ملايين المرات.. وتبقى حلاوتها فى

---

(1) السخرية فى القرآن. دكتور عبد الحليم حفنى.

ذوقك . . بل تزيد وتزيد .

وتأمل من صور إعجازه وإيجازه كيف يمهد بأسلوبه للنقلة من السابق إلى اللاحق . . حتى يمضى المسلم فى صحبته فلا يحس بفجوة قد تربكه لحظة من زمان . .

وخذ مثلا على ذلك سورة القصص كما أشار العلماء : فمع أن سورة القصص مكية . . إلا أن أسلوبها رقيق رفيق . . يشبه إلى حد كبير أسلوب السور المدنية . . ذلك بأن سورة القصص من أواخر ما نزل بمكة المكرمة . . فكأنما كانت رقتها تمهيدا للدخول بالمسلم إلى الحرم المدنى .

ثم لاحظ ما تحدثت عنه السورة من هجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين . . وكيف كانت تمهيدا للهجرة من مكة إلى المدينة . .

إنها البلاغة . . بلاغة القرآن . . وكفى بها إيجازاً وإعجازاً .

[إقرار البشر]

ولقد أقر العقلاء بعجزهم إزاء بلاغة القرآن . . ملتمسين العذر لأنفسهم صادقين فى هذا الاعتذار . .

ومنهم أبو الفتح البستى الذى أنشد

إذا أحسست فى لفظى فتورا ... وحفظى والبلاغة والبيان

فلا تَرْتَبْ بفهمى . . إن رقصى ... على مقدار إيقاع الزمان

فى مجال التطبيق:

فى غزوة أحد . ومع تفوق المشركين على المسلمين عدة وعدداً . . إلا أن قريشاً لم تكتف بهذا التفوق . . بل أضافت إليه الكلمة الموحية : تواكب السيف . . وتؤازره :

وذلك حين أنشدت النساء بين يدى الحرب الفاصلة

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

وإذا قال «نابليون» إن نسبة القوة المادية إلى القوة المعنوية كنسبة ١ : ٣ فإنا نقول:

أولا: إنه تأثر بتفوق القوة المعنوية إزاء القوى المادية. . فى غزوة بدر. . فكان هذا الحكم. .

ونقول ثانياً: إن هذه الروح المعنوية ذاتها وليدة الكلمة المعبرة المؤثرة. والتى لابد منها عند النزال.

ولقد كان لكلمة «نابليون» أثرها السحرى فى قلوب جنوده عند غزو مصر:

«تقدموا أيها الجنود. . واعلموا أن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام». . . وعلى مر التاريخ لم تفقد الكلمة فاعليتها:

إن الكلمات كما قيل ـ لا تروى التاريخ فحسب. . بل تصنعه أيضاً. .

«إن القوة التى حركت أعظم الانهيارات التاريخية ذات الطبيعة السياسية والدينية. كانت منذ بدء التاريخ هى القوة السحرية. التى تنطوى عليها الكلمة المنطوقة وحدها»[1].

الكلمة.. العربية:

وتأخذ الكلمة العربية أهميتها بين مختلف اللغات. . بما تميزت به من خصائص: الدقة. والوضوح. والإيجاز. والنفاذ إلى أعماق الإنسان.

يقول العقاد: «اشتملت ـ اللغة العربية ـ على وسائل للتمييز بين الأوقات»:

فكل لحظة من لحظات الليل والنهار قد كان لها شأنها من حياة سكان البادية. بين السفر والإقامة. والحل والترحال. . . فمنها ما هو صالح لبدء السير. ومنها ما هو صالح للراحة القصيرة. ومنها ما هو صالح للراحة الطويلة. ومنها ما ليس يصلح لغير السكينة والاستقرار.

ولهذا وجدت كلمات: البكرة. والضحى. والغدوة. والظهيرة. والقائلة. والعصر، والأصيل. والمغرب. والعشاء. والهزيع الأول من الليل.

---

(١) من كلمات هتلر فى كتابه: كفاحى.

ويكاد التقسيم على هذا النحو أن ينحصر بالساعات. على صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات فى كثير من اللغات الأخرى بغير الجمل والتراكيب[1].

بل إن الدقة والوضوح من لوازم الكلمة العربية حين تستعمل فى معنى مجازى لم تخلق له:

(إن الكلمة الواحدة تظل محتفظة بدلالتها الشعرية المجارية. ودلالتها العلمية الواقعية. فى وقت واحد. بغير لبس بين التعبيرين).

وفى هذا يقول ابن خلدون:

(الكلمات الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الكلمات وأوضحها إبانة عن المقاصد.. لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى:

مثل الحركات التى تعين الفاعل عن المفعول. ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال إلى الذوات من غير ألفاظ أخرى.

وليس يوجد ذلك إلا فى لغة العرب.

وأما غيرها من اللغات: فكل معنى أو حال. لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة.

ولذلك نجد كلام العجم من مخاطبتهم أطول مما نقدره من كلام العرب.

ومن هنا كان الغموض سمة من سمات اللغات الأخرى.. عدا العربية التى تظل محتفظة بحظها الكامل من الدقة والوضوح. وبالتالى بقدرتها الفائقة على التأثير.

يقول العقاد: «اللغة التى تلاحظ مقتضى الحال فى كل عبارة من العبارات الثلاث. ولا تستخدم عبارة واحدة لموضعين ملتبسين. بل تستخدم كل عبارة لموضعها الذى لا لبس فيه»[2].

وقد لاحظ الباحثون من جوانب التيسير والإيجاز والخصوبة ما يحتفظ بلغة

---

(١) اللغة الشاعرة: ٨.

(٢) أشتات مجمعات: ٥٧.

القرآن الكريم على القمة أبداً، ومن ذلك[1].

١ـ يكفى فى الإسناد إنشاء علاقة ذهنية بين المسند والمسند إليه. بخلاف اللغات الأخرى المحتاجة إلى رابطة حسية هى (فعل الكينونة).

وكمثال: إذا قلنا: الأمة الإسلامية واحدة.. ثبت هذا المعنى فى نفوسنا ثبوتاً لا تحتاج معه إلى فعل الكينونة. ولا إلى شىء رمزى خارجى.

٢ـ إيجاز اللغة العربية فى مثل قوله تعالى:

(أ) ﴿**كل من عليها فان**﴾ ـ والمراد: الأرض.

(ب) ﴿**حتى إذا بلغت التراقى**﴾ـ والمراد: الروح.

(جـ) ﴿**حتى توارت بالحجاب**﴾ ـ والمراد: الشمس.

وهى أمور يفهمها العربى بدون تنصيص.. ثقة بنفسه. وقدرته على فهم دقائق الأمور.

٣ـ تمتاز اللغة بالثراء والخصوبة. بصورة لم تتوفر لغيرها من لغات الأرض.

فمن معانى اللام. وهى حرف واحد:

(أ) التوكيد: إن زيداً لقائم.

(ب) الاستغاثة: يالناس. (بفتح اللام).

(جـ) التعجب: يا للناس. (بكسرها).

(د) الملك: الكتاب لمحمد.

(هـ) السبب: ﴿**إنما نطعمكم لوجه الله**﴾.

(و) الوقت: لثلاث خلون من رمضان.

(ز) التخصيص: ﴿**الأمر يومئذ لله**﴾.

(ح) الأمر: ليتصدق الغنى.

---

(١) من بحث فى مجلة الأزهر.

(ط) الجزاء: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبيناً. ليغفر..﴾.

(ى) العاقبة: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا حزنا﴾.

الله أعلم حيث يجعل رسالته:

وقد جعل الله سبحانه وتعالى رسالته حيث علم. حين اصطفى لرسالته النبى الأمى العربى.. واختار اللغة العربية تعبيراً عن وحيه الأعلى. تشريفاً لها. وتنبيها على قدرتها فى باب التعبير والتأثير معاً.

يقول سبحانه تنويها بالكلمة كسلاح ذى حدين:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤ـ٢٧].

إن الكلمة هنا مشبهة بشىء نام.. فيه حيوية: ﴿كشجرة﴾.. ثم إنها شجرة طيبة تجرى فيها عصارة الخير ﴿طيبة﴾ ولهذه الشجرة أصل ثابت ضارب الجذور فى أغوار الأض:

(أ) يمدها بمختلف العناصر والمعادن اللازمة للنمو والإثمار..

(ب) يجعلها عصية على الاقتلاع فى مهب الرياح: ﴿أصلها ثابت﴾.

وهى مع هذا كله: تستحم فى الهواء والضياء.. فهى سامقة فارعة.. لا يحجبها حاجب.. تأخذ حظها الأوفى.. من روافد النماء ليكون نتاجها مضاعفا ﴿وفرعها فى السماء﴾.

من أجل ذلك.. فهى تؤتى أكلها ﴿كل حين﴾.. فلا تثمر فى كل عام مرة أو مرتين.. بل هى دائمة العطاء.. موصولة البر..

وإذ يتهيأ لها من أسباب النماء هذا الحظ الوافر.. الذى جعل «كمية» الثمر

أيضا وافرة . . فإن نتاجها من ناحية «الكيف»فيه من البركة ما فيه . . لأنها موصولة بالزيت المبارك . . تثمر . . حين تثمر مرتبطة بالخالق سبحانه . . فلا تتحرك . . ولا تجود إلا بإذنه سبحانه!!

فإذا تصورت بعين خيالك قيمة الكلمة الطيبة بعد هذا . . تبينت لك خطورتها وأثرها فى حياة الفرد والمجتمع . . بقدر ما يتكشف لك زيف الكلمة المخادعة الباطلة . . التى ولدت ناقصة التكوين . . ولدت ميتة! . . لم تكد ترتسم صورتها فى الذهن مع الآية الكريمة ثم تتلفت فلا تجدها: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ .

مع الفخر الرازى:

وننقل هنا ما كتبه الرازى فى بيان فضل الكلمة الطيبة . . بتصويره المعبر لهذه الشجرة المباركة والتى ينتقل الذهن منها مباشرة إلى تقرير ما للكلمة من آثار حميدة: قال: [اعلم إنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة . ثم شبه الكلمة الطيبة بها .

فالصفة الأولى لتلك الشجرة : كونها طيبة . وذلك يحتمل أمورا:

أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل .

وثانيها: كونها طيبة الرائحة .

وثالثها: كونها طيبة الثمرة . يعنى الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة .

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة . يعنى أنها كما يستلذ بأكلها . فكذلك يعظم الانتفاع بها .

ويجب حمل قوله: شجرة طيبة . على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب .

والصفة الثانية: قوله : ﴿أصلها ثابت﴾ :

أى راسخ . باق . آمن من الانقلاع والانقطاع . والزوال والفناء .

وذلك لأن الشىء الطيب إذا كان فى معرض الانقراض والانقضاء . فهو وإن

كان يحصل الفرح بسبب وجدانه. إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه.

أما إذا علم من حاله أنه باق دائم. لا يزول ولا ينقضى. فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به.

والصفة الثالثة قوله: ﴿وفرعها فى السماء﴾.

وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين:

الأول: إن ارتفاع الأغصان. وقوتها فى التصاعد. يدل على ثبات الأصل. ورسوخ العروق.

والثانى: إنها متى كانت متصاعدة مرتفعة. كانت بعيدة عن عفونات الأرض. وقاذورات الأبنية. فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والصفة الرابعة: قوله: ﴿تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها﴾.

والمراد: أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة وهى: أن ثمراتها لابد أن تكون حاضرة دائمة فى كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التى تكون ثمارها حاضرة فى بعض الأوقات دون بعض(1)].

ويخلص بنا كلام الرازى إلى نتيجة هى: أهمية الكلمة.. وعلو شأنها. وأنها تملك عبقرية البناء. متى طاب مذاقها.

الكلمة والعمل:

وعلى ما للعمل من أهمية تجعل إيمان المسلم لا يتم إلا به. إلا أن الكلمة تسبقه فى الذكر تنبيها على شرفها:

يقول سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر: ١٠].

وإذا كانت الصلاة عماد الدين.. وكانت الزكاة أساس القوة فى النظام

(١) الرازى تفسير سورة إبراهيم.
(٢) سورة فاطر: ١٠.

الاجتماعى للأمة. فإن القول الحسن يتقدمها فى الذكر أيضا بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[سورة البقرة: ٨٣].

الشرط الأساسى:

ولا تكون هذه الفعالية لكل كلمة تقال:

بل لابد من توفر الشرط الأساسى لها لتكون بانية هادية: أن تكون طيبة.. وحسنة.. مباركة.

وهذا سر وجودها وخلودها:

ولن تخلد الكلمة على الأجيال. إلا إذا اتصلت بالحق والخير.. وكان لها من قوانين الله فى خلقه سند. ومن إلهامه عباده وجود.

.. وقد يرمى الظالم بالكلمة فتحرق لكنها سرعان ما تخبو. أما الصادق المحق. فإن كلماته خالدة.

ينبغى أن يجعل كلماته للناس منهاجا. وفى ظلمات الحياة سراجا وهاجا[1].

وهذا شأن الكلمة الطيبة دائماً: ثابتة سامقة مثمرة. ثابتة لا تزعزها الأعاصير. ولا تعصف بها رياح الباطل. ولا تقوى عليها معاول الطغيان.

وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان - سامقة متعالية: تطل على الشر والطغيان من أعلى - وإن خيل للبعض أحيانا أن الشر يزحمها فى الفضاء.. مثمرة لا ينقطع ثمرها. لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة آنا بعد آن.

وإن الكلمة الخبيثة - كلمة الباطل - كالشجرة الخبيثة: قد تهيج وتتعالى وتتشابك. ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الكلمة الطيبة وأقوى. ولكنها تظل نافشة هشة. وتظل بذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض.

وما هى إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض. فلا قرار لها ولا بقاء. ليس ذلك مجرد مثل يضرب. ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع. إنما هو الواقع فى الحياة.

---

(١) عبد الوهاب عزام: الشوارد: ٣٤٠.

ولو أبطأ تحققه فى بعض الأحيان[1]

عبقرية الهدم!:

وكما تحمل الكلمة عبقرية البناء.. فإنها تحمل عبقرية الهدم إذا صح التعبير! ثم إنها مفتاح شخصية الرجل. الذى يتيح لك الدخول إلى أعماقه.

قال يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور فى الصدور: تغلى بما فيها... ومغارفها ألسنتها... فانتظر الرجل حتى يتكلم. فإن لسانه يغترف من قلبه:

من بين حلو وحامض. وعذب وأجاج... ينبئك عن طعم قلبه: اغتراف لسانه[2].

ومن هنا قيل:

(أحسن شيء: كلام رقيق. يستخرج من بحر عميق. على لسان رجل رقيق)[3].

ولأن للكلمة هذا التأثير الخطير فقد أمرنا الإسلام بحسن اختيارها فرارا من خطرها:

عن هانئ بن بريد رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«عليك بحسن الكلام وبذل الطعام»** حديث صحيح[4].

ومع أن القرآن الكريم والسنة المطهرة تحدثنا عن السرقة باسمها الصريح إلا أن رجلا شهد بين يدى الرسول ﷺ: بأن هذا الرجل: سرق.. فقال له: **«أفلا قلت أخذ؟!»**.

فالنتيجة واحدة.. ولكن كره الرسول شيوع الكلمات التى تؤذى المشاعر. تطهيرا للجو العام.. ولتعين الإنسان على أمر الله.

روى مالك أنه بلغه عن يحيى بن سعيد أن عيسى عليه السلام مر بخنزير على

---

(١) فى ظلال القرآن.　　(٢) العوائق: ١٠٩.

(٣) تاريخ بغداد: ١٤/ ٢٠٩.

(٤) جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير للإمام السيوطى جـ٤. ص٥٣٦. ط خطاب.

الطريق. فقال له:

انفذ بسلام!!

فقيل له: تقول هذا للخنزير؟ فقال: إنى أخاف أن أعود لسانى النطق بالسوء![1].

من أجل ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لا يُحبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [سورة النساء:١٤٨].

حتى لا تترك الكلمة المسموعة آثارها فى الاسماع.. **﴿إلا من ظلم﴾** فيجوز له أن يجهر بمظلمته. على أن هذا الاستثناء تارك أثره إذ يصبح عقابا يهدد الظالمين فلا يعودون.

وإذا علم المسلم أن من أسلحة الشيطان الماضية: كلمة السوء يحول بها لسان المسلم لتقطع ما أمر الله به أن يوصل إذا علم ذلك كان عند حسن الظن به ملتزما بالقول الحسن.. ليقطع الطريق على الشيطان بقول الله تعالى: **﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾** [سورة الإسراء:٥٣].

وقد يصل الحذر إلى ذروته عندما يعلم حجم المصيبة الناشئة عن كلمة السوء التى قد تضيع مستقبله كله فى لحظة واحدة.

عن أبى سعيد الخذرى رضى الله عنه قال: قال ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا ليضحك بها القوم، وإنه ليقع بها أبعد من السماء**» رواه أحمد[2].

يمـــوت الفتى مـــن عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

(١) خلق المسلم: ٩٥.

(٢) حديث حسن: فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٢. صـ٣٣٦. ط. الأولى: ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

نعمة البيان

نعمة البيان من أجل النعم التى أسبغها الله على الإنسان. وكرمه بها على سائر الخلق بقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

وعلى قدر جلال النعمة يعظم حقها. ويستوجب شكرها. ويستنكر كنودها. وقد بين الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة. وكيف يجعلون كلامهم الذى يتردد سحابة النهار على ألسنتهم طريقا إلى الخير المنشود. . .فإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام. ولا تهدأ لهم حركة.

وقد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام وأسلوب أدائه لأن الكلام الصادر عن إنسان ما يشير إلى عقله وطبيعة خلقه. . .ولأن طرائق الحديث فى جماعة ما. تحكم على مستواها العام. ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها[1].

وصناعة البيان ولدت مع الإنسان أول ما ولد ـ ولذا يجب العناية بها قبل غيرها ـ مما يحتاجه الإنسان:

(إن صناعة البيان هى ألصق صناعة ولدت مع الإنسان. وظهر أثرها من مبدأ تكوينه. وهى التى وضع قوانينها المعلم الأول أرسطو قبل الإسلام. وأحكم بنيانها. وأبدع تقسيم فنون الخطابة فيها. بعد أن قوى الإنسان فى الخصومات. واتسع نطاق العمران. وإن صناعة البيان وحدها هى التى أوقفت رحى الحرب الكبرى (الأولى) فى هذا الزمان وحركت من الشعوب الضعيفة يوم اعتلى «ولسون» على أعواد منبرها وهى السحر الذى يلعب به السياسيون إذا ضاقت بهم السبل)[2].

ما هو البيان:

فى تعريف البيان يقول الرازى فى تفسير سورة الرحمن:

(١) محمد الغزالى ـ خلق المسلم: ٩٠.
(٢) الدعوة والدعاة للشيخ الزنكلمونى.

(البيان: المنطق. فعلمه ما ينطق به. ويفهم غيره ما عنده).

ولا يكفى إظهار المقصود بأى لفظ كان.. فلابد أن يتم ذلك بأبلغ تعبير وذلك قول الزمخشرى فى تعريفه: إظهار المقصود بأبلغ لفظ.

ولا تكفى البلاغة وحدها فى تحقيق المراد. بل ينبغى أن يستهدف ذلك التأثير فى قلوب الآخرين تأثيرا ينتهى بالطاعة.

يقول الجاحظ فى تعريف الفصاحة:

(الإعراب عما فى النفس. وتوضيح ما يريده المتكلم. وحسن نقله إلى مستمعيه حتى يفهموا عنه كل ما يريد. ثم يتأثرون بما فهموه. ثم يطيعونه فيما أمر. وينتهون عما نهى)[1].

وهنا ندرك جلال نعمة البيان على الإنسان الذى يتمكن به من إحقاق الحق وإبطال الباطل.

ويزداد إحساسنا بالنعمة إذا ما تصورنا العى المانع أصحابه من هذه القدرة المعبرة المؤثرة.. وهو ما استعاذ منه موسى عليه السلام. داعيا ربه أن يجعل هارون أخاه ردءا له فى معركته مع الباطل بما كان يمتاز به من ملكة البيان.

فعندما عرَّض فرعون بعلته عليه السلام. (وكانت له رتة فى لسانه) فيما حكاه القرآن... ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

عندما حدث ذلك دعا موسى ربه أن يؤيده بهارون. وذلك فيما حكاه القرآن الكريم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٣].

وقوله تعالى أيضا: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [سورة القصص: ٣٤].

وقد أتم الله نعمته على رسوله موسى عليه السلام بشفائه من علته، ليستكمل عدة الكفاح فى مواجهته فرعون. قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا

(١) البيان والتبيين.

موسى﴾[سورة طه: ٣٦].

ولكن طول الألفة قد ينسى الإنسان جلائل النعم. ومنها البيان.

بيد أن نظرة فاحصة إلى: كيف يتكلم الإنسان.. وما هى الرحلة التى تقطعها الخاطرة فى آفاق النفس.. لتصير كلمة يلفظ بها اللسان.. مثل هذه النظرة تقف بنا على عظمة نعمة البيان على نحو يدفعنا إلى العناية بها:

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين. ويتفاهم. ويتجاوب مع الآخرين. فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة. وضخامة هذه الخارقة. فيردنا القرآن إليها. ويوقظنا لتدبرها فى مواضع شتى. فما الإنسان؟ ما أصله وكيف بدأ؟ وكيف يعلم البيان؟ إنه هذه الخلية الواحدة التى تبدأ حياتها فى الرحم.

خلية ساذجة صغيرة. ضئيلة. مهينة. ترى بالمجهر. ولا تكاد تبين. وهى لا تبين!!

ولكن هذه الخلية ما تلبث أن تكون الجنين.. الجنين المكون من ملايين الخلايا المنوعة: عظمية. وغضروفية. وعضلية. وعصبية. وجلدية.

ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس. ووظائفها المدهشة:

السمع. والبصر. الذوق. الشم. اللمس.. ثم.. ثم.. الخارقة الكبرى.

والسر الأعظم: الإدراك والبيان.. والشعور والإلهام. كله من تلك الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة.. التى لا تكاد تبين والتى لا تبين!! كيف؟ ومن أين؟ من الرحمن.. وبصنع الرحمان.

فلننظر كيف يكون البيان بقول الله تعالى:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾.

إن تكوين جهاز النطق وحدة عجيبة لا ينقضى منها للعجب:

اللسان والشفتان. والفك والأسنان. والحنجرة. والقصبة الهوائية والشعب

والرئتان. . . إنها كلها تشترك فى عملية التصويت الآلية. وهى حلقة فى سلسلة البيان. . . وهى على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكى الآلى فى هذه العملية المعقدة. . المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب. . ثم بالعقل الذى لا نعرف عنه إلا اسمه ولا ندرى شيئا عن ماهيته وحقيقته. بل لا نكاد ندرى شيئا عن عمله وطريقته.

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحل والخطورات والأجهزة مجهولة فى بعض المراحل خافية حتى الآن.

إنها تبدأ شعورا بالحاجة إلى النطق. بهذا اللفظ لأداء غرض معين. هذا الشعور ينتقل - لا نرى كيف - من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية. . إلخ.

ويقال إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب واللفظ ذاته مما علمه الله للإنسان وعرفه معناه.

وهنا تطرد الرئة قدرا من الهواء المختزن فيها. . ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية. . إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التى لا تقاس إليها أوتار أية آلة صوتية صنعها الإنسان، ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام.

فيصوت الهواء فى الحنجرة صوتا تشكله حسبما يريد العقل. عاليا أو خافتا سريعا أو بطيئا. خشنا أو ناعما. ضخما أو رفيعا إلى آخر أشكال الصوت وصفاته.

ومع الحنجرة: اللسان، والشفتان والفك والأسنان. . . يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة فى مخارج الحروف المختلفة. . وفى اللسان خاصة.

يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين. يتم فيه الضغط المعين ليصوت الحرف بجرس معين.

وذلك كله لفظ واحد. . ووراءه العبارة. والموضوع والفكرة. والمشاعر السابقة

واللاحقة.

وكل منها عالم عجيب غريب. ينشأ فى هذا الكيان الإنسانى العجيب الغريب يصنعه الرحمن وفضل الرحمن[1].

سلاح من أسلحة الدعوة:

والخطابة فوق ذلك كله ـ سلاح من أسلحة الدعوة يحق الله به الحق ويبطل الباطل.

وعندما يكثر المبطلون فى الأرض، ويظهر شرهم فى البر والبحر.. فإن الخطيب واحد من الذين يتصدون لهذا الشر، كسرا لشوكته.. مع غيره من رفاق السلاح على طريق الحق..

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوفُ يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**[2]. رواه مسلم.

ولو تأملت موقفه ﷺ فى قضية المرأة المخزومية التى سرقت وجاء أسامة بن زيد ليتشفع لها.. لتبين لك دور الخطبة الرئيسى فى التربية.

لقد أنكر ﷺ على أسامة شفاعته.

عن عائشة رضى الله عنها.. أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: **«أتشفع فى حد من حدود**

---

(١) فى ظلال القرآن.

(١) صحيح مسلم. بشرح النووى. كتاب الإيمان ـ باب كون النهى عن المنكر من الإيمان جـ١. صـ٢٧ ط. حجازى.

الله» ثم قام فاختطب فقال: «**أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[1]. رواه مسلم.

فانظر كيف بقى للخطبة دورها فى التحذير والتنفير.. وكيف تهز النفوس.. فرار بها من وضع إلى وضع أمثل.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحدود - باب حد السرقة. جـ١١ صـ١٨٦. ط حجازى.

زاد الخطيب

تمهيد:

كما تنطلق الشحنة الكهربائية عبر الأسلاك.. فيضيء المصباح. وكما تتسلل خيوط الفجر في غسق الليل.. فيشرق الصباح.. يمضي الخطيب إلى النفوس فيخرجها من الظلمات إلى النور.

وإذا كان العاملون في كل موقع يسهمون بجهودهم في إحداث التغيير النفسي والاجتماعي لدى الأفراد.. فإن الخطيب يأخذ حظه الوافي من هذا التغيير بما يملك من سلاح أمضى. وقدر أشمل:

إن المهندس.. والطيار.. أو البحار.. يتعاملون مع الجماد.. وإذن فما أيسر المهمة..

بيد أن الخطيب يتعامل مع كائن حي له مشاعره وله كذلك فكره.. بل إنه لا يواجه من البشر نوعا واحدا.. بل يواجه مستويات متعددة متفاوتة.

وهو - مع هذا - مطالب بأن يجمعها كلها على الصراط السوي وأن يحوز رضاهم جميعا.

وحتى رفيقيه على طريق التوجيه: المعلم. والأديب كلاهما لا يمارس نفس المعاناة.

فبينما المعلم يتجه أساسا إلى العقل. تزويدا له بالمعرفة... وبينما يخاطب كاتب المقال مستوى واحداً - إلى حد ما - فإن الخطيب يتفرد بمسؤولية امتلاك أقطار النفس كلها: اقناعها.. واستمالة تفضي إلى الالتزام... وفي الوقت ذاته تتسع قاعدته العريضة وتتسع.. لتستوعب حتى الأميين الذين لا يجيدون القراءة والكتابة.. فهو يتعامل معهم بينما لا يمثل بين يدي المعلم والأديب إلا المثقف القادر على الفهم والحوار.

ومع أن الخطيب كالمربي فلابد أن تتوفر فيه متطلبات عديدة وهي أكثر وأشد

مما هى فى المربى لأن هذا الأخير محدود التأثير فى عدد قليل - وإن كان ذا مسؤولية عظمى - بخلاف الإمام الخطيب فإنه غير محدود التأثير فى مثل ذلك العدد بل العدد أنمى وأكثر، ثم أنه غير منقطع الصلة. فإن التلميذ فى القسم يمر بأساتذة متعددين بخلاف الإمام الخطيب فإنه مستمر الاتصال بجمهوره الذى يؤم مسجده دائما وهذا الاتصال كائن من المهد إلى اللحد ولا مرية أن الاتصال بالغ التأثير فى العقول وشديد المفعول فى النفوس.

صلة الخطيب بالرأى العام:

الرأى العام رهين أن يكون أئمته فى الميزان الكفء، حتى لا يفقدوا صلتهم بالرأى العام، إن هناك فجوة تحصل بين الأئمة وبين جمهورهم حين ينقدح فى عقول المنصتين إليهم أنهم قطعوا الصلة بين خطبهم والحياة، والأنكى من ذلك أن يكون المستمعون غير مطمئنين لما يسمعون منهم لما يؤدى إليه ذلك من فتور ثم انقطاع الصلة بين الجمهور وإمامه.

فالحاضرون يجلسون تلك الحصة وهم يستمعون وقلوبهم لاهية وحتى آذانهم صاغية، وليست بصاغية لعدم إقبالهم الكلى على الاستماع الصحيح والإنصات والانصراف إلى تفهم ما يلقي عليهم.

وللحفاظ على هذا المعنى الذى ضيع فى بعض المساجد.

عن سعيد بن المسيب قال: إن أبا هريرة رضى الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت»[1] رواه مسلم.

جاء الحديث فى الإنصات بأدق ما يكون حفاظا عليه حتى أن الأمر بالمعروف وقت الخطبة منهى عنه مع أنه ضرورى وملتزم به. ولو أدى إلى لحوق الأذى بالآمر بالمعروف والناهى عن المنكر.

وما ذاك إلا ترغيب إيجابى للجمهور أن يكونوا عند الاستماع إلى الخطبة على

---

(١) صحيح مسلم مشكول. كتاب الجمعة. باب فى الإنصات يوم الجمعة فى الخطبة جـ٣ صـ٤ ط محمد على صبيح.

المستوى المطلوب فلا يلهيهم شاغل عن التنبه لكل دقيق وجليل يصدر عن الخطيب فهم فى إنصات محكم فى حضورهم الجمعة[1].

منشأ الأهمية:

وتنبع خطورة رسالته من خطورة دور المسجد فى المجتمع. ومدى قدرته على الإصلاح.

فالمسجد ركيزة الإصلاح.. وقطب الرحى فى عملية التوجيه:

(لقد كان المسجد ساحه للعبادة، ومدرسة للعلم. وندوة للأدب..وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وفضائل هى لباب الإسلام)[2].

أى إنه كان حلقة الاتصال التى يتم بها التعارف والتآلف وتحت سقفه مارست الدولة الإسلامية مختلف نشاطاتها فى مجالات: القضاء.. والإفتاء..

كما كان المسجد موئلا للإغاثة والخدمة الصحية والاجتماعية. ومنطلقا للجيوش ودارا للضيافة يستقبل الوفود القادمة.

وإذن.. فمهمة الخطيب المؤسسة على المسجد وقيمه تأخذ نفس الأهمية القصوى..

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من نفس عن مؤمن كُرْبةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»**[3].. رواه مسلم.

---

(١) رسالة المسجد.

(٢) فقه السيرة: محمد الغزالى.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة ـ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء جـ١٧. صـ٢١، ٢٢. ط. حجازى.

حين نتأمل هذا الحديث ندرك أن استنزال السكينة والرحمة من السموات العلى.. وأن الفوز بصحبة الملائكة لا يتم بمجرد الاجتماع.

بل إنه الاجتماع المحكوم أولا بالنوايا المخلصة..ومحكوم ثانيا برائد المسجد الذى لا يكذب أهله.. والذى يتحمل مع المجتمعين مسؤولية هذه المدارسة التى تجعل لهذا الاجتماع قيمة عملية.

وذلك هو الإمام والخطيب.

ولعلنا ندرك أيضا سر هذه المهمة فيما حكى عن عبد الملك بن مروان. قال: شيبنى ارتقاء المنابر. وتوقع اللحن.

وقيل له يوما: قد عجل الشيب إليك. فقال: كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين[1].

[الخطبة.. والمقالة].

ومن هنا يظهر الفرق واضحا بين الخطبة والمقالة.. وبين الخطيب.. وكاتب المقالة..من حيث كان الخطيب أكبر مسؤولية.. والخطابة أشق تناولا والبصراء بأساليب البيان يقررون: إن العمل الفنى لابد أن يتخطى مراحل ثلاث قبل أن يكتمل هى: الإيجاد.. والتنسيق.. والتعبير.

يعنون بذلك: استنباط المعانى.. ثم ترتيبها والتنسيق بينها لتصير وحدة متكاملة..ثم يجىء التعبير عنها كمرحلة أخيرة..

وكاتب المقال.. والخطيب يشتركان فى المرحلة الأولى والثانية. ثم يختلف بهما الطريق فى لون التعبير.

فالخطيب يختار ألفاظه وتراكيبه. على نحو جميل أخاذ.. يساعد على تحويل المستمع من موقف إلى موقف.

وينتقل به من الإقناع إلى الاستمالة.. ثم يلف الجميع شعور واحد يحقق فى النهاية الأثر المطلوب.

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٢٣٣

وربما وضح فرق ما بينهما إذا لاحظنا صعوبة مهمة الخطيب دون الكاتب:

فإذا كان الكاتب يملأ الذهن بالأفكار.. فإن الخطيب ـ فوق ذلك ـ يشعل هذه الأفكار.. ويفجر العواطف خلال النفس تفجيرا.. تتحول به الأفكار إلى قذائف للحق.. تحرق.. وتنير.. فى نفس الوقت..

ومن السهل على كاتب أن يجلس فى الظل.. بعيدا عن أعين الجمهور الراصدة.. وفى الوقت الذى تتوفر له إمكانات الكتابة: من مزاج معتدل.. ومراجع حاضرة.. ونجوة من النقد المباشر أو السخرية.. يواجه الخطيب قوما يرونه.. ويسمعونه.. بل ويسجلون حديثه..

وهم لن يجلسوا بين يديه منصتين حتى يكون قبل ذلك صورة حية لما يدعوهم إليه.. بقدر ما يتاح للكاتب من ضمانات الفرار من هذه المسؤولية.. لأنه يكتب.. ولا يراه الناس.. ولا يتابعونه..

ثم إن الخطيب يواجه أناسا لا يمهلونه حتى يرتب معانيه ويجهز أفكاره المندفعة.. وقد يورطه ذلك فى خطأ.. أو يحمله على إبداء رأى خطير.. لا يليق به.. وهذا هو الذى حدا بالعلماء أن موقفه.. عكس الكاتب الذى قد لا يغفرون له زلته لما توفد له من ضمانات الإجادة.. بحيث لا يتوقع منه الخطأ.. فإذا وقع فهو موضع المساءلة والعتاب.

وهذا قدامة بن جعفر (يتساهل مع الخطيب المرتجل. ويغفر له هنات لا يغفرها للكاتب.. .ويروى قوله عبد الله بن الأهتم:

[إنى لست أعجب من رجل تكلم بين قوم. فأخطأ فى كلامه أو قصر فى حجته؛ لأن ذا الحجا قد تناله الخجلة. ويدركه الحصر ويعزب عنه القول. ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاسا، وخلا بفكره وعقله.. كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام يريده أو وجه من وجوه المطالب يؤمه)[1].

وفى الوقت الذى يرسل فيه الكاتبون بثمار عقولهم إلى المطابع ودور النشر.. وهم فى بيوتهم آمنون. يعايش الخطيب الناس ويحيا مشكلاتهم.. إنه جزيرة

(١) فن الخطابة: ١٢٣.

فى بحر كبير.. يلجأ إليها المشرفون على الغرق.. يطلبون النجاة والعون.. على ما يقول الشاعر:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره　　　تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

فإليه يتجه الحائرون طلبا للأمان والقرار.. فى صحبة مباركة تترك آثارها فى القلب حتما..

وقد أفاض الكاتبون الغربيون بياناً للفرق بين الخطيب والكاتب.

فقال بعضهم مؤكداً أهمية الخطابة: ربما لا يكون مشاهير الكتاب خطباء...وقلما تجد بين الخطباء من لا يعد كاتباً.

إن المكتوب: ينال بالنظر. ويتذوق بالفكر...والمعقول: لا يصل إلى القلب إلا إذا مر على الأذن.

وللأذن إحساس يجب إرضاؤه. ونعومة يحذر من خدشها.

بالإضافة إلى أن الشعور الذى يثيره السمع ليس كالشعور الذى تولده القراءة. وأيضاً.. فالجمهور المحتشد له عقلية غير عقلية الفرد القارئ فى عزلة بين جدران البيت.

تساؤل:

ما الفرق بين الشيخ أحمد حسن الباقورى وبين الشيخ محمد متولى الشعراوى الباقورى؟رجل المثقفين.. أستاذ فى جامعة محدث فى التليفزيون هو يقول ويمضى. فى غرفة مغلقة. وحديثه إلينا هو حديث إلى نفسه فهو لا يرى أحدا. ولا يحس بوجود أحد ولذلك كانت «الفكرة» وترجمتها هى التى تسيطر عليه فهو صاحب فكرة يخاطب المفكرين.

والشيخ الشعراوى رجل الندوة وهو يحدث الناس ويحس بهم فيسألهم ويردون ويرى بعينه وأذنيه وقع كلماته عليهم.

والشيخ الشعراوى كالممثل على المسرح...والباقورى مثل الممثل فى السينما.

والشيخ الشعراوى صاحب لفظ رجل البلاغة ومؤمن بعبقرية اللغة العربية

وقمة العبقرية هى القرآن الكريم.

ولذلك فأنت تسمع الشعراوى أفضل من أن تقرأه... وتقرأ الباقورى أفضل من أن تسمعه.

والشعراوى أقدر على إقناعك، لأنك على صلة به ولأنك تسأله.. ولأنه يسألك.. أى لأنك موجود فى عينيه وفى أذنيه وهو يعرفك فأنت طرف. والشعراوى صاحب حوار هو أحد طرفيه.

ولكن الباقورى لا يقنعك ولا يعرف كيف يفعل ذلك. لأنك غير موجود فهو يتخيلك ولا يحس بك. وهو لا يعرف إن كنت قد فهمت أو لم تفهم وإنما هو صاحب رأى اقتنع به ويعرضه عليك... إنها متعة مؤكدة![1]

آلة الخطابة:

فى قمة ثنائية. اجتمع قس بن ساعدة. وأكثم بن صيفى..

قال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟

قال: هى أكثر من أن تحصى.

وقد وجدت خصله إذا استعملها الإنسان سترت عيوبه.

قال: وما هى؟

قال: حفظ اللسان!؟

ولقد كان من نعمة الله تعالى على الإنسان: ذلك البيان.. حفظا لهذا اللسان:

إن الناس كالأشجار.. والجوارح: أغصان.. والكلام: ثمار..

ومن تمام النعمة أن تكون الكلمة طيبة.. لا معطوبة.. ولا جارحة[2]!

---

(١) أنيس منصور.

(٢) يحس اللسان بالمرارة ولو كانت جزءا من ثلاثين ألف جزء ويحس بالحموضة.. والملوحة.. والحلاوة إذا زادت نسبتها أكثر فى نسبة أقل..

ويعنى ذلك: أن المر والحامض لما كانا مؤذيين كان لابد من إحساس اللسان بهما.. ولو كانت النسبة ضئيلة.. أى لابد من الاستشعار عن بعد. بخلاف الملوحة والحلاوة.

من أسرار اللسان:

من أسرار اللسان أنه خاضع لإرادتك: نطقا أو سكوتا. بخلاف بقية الحواس. . .ثم إنه لسان واحد: محكوم بأسنان وشفتين.

ولك أيضا: أذنان. . وعينان. . .ولا ترى العين إلا الألوان. .ولا تحس الأذن إلا بالمسموعات:

أما اللسان: فهو مطلق السراح!! يتذوق. . وينطق. . وفى نطقه: التعمير والتدمير!

ومن رحمته تعالى أن جعل مع اللسان الشفتين: لأن هناك ألفاظا لا تحتاج إلى لسان. مثل: «باب». . .وهناك ما يحتاج إلى اللسان مثل: «دار» فكان لابد منهما. . .ويظل اللسان دليلا على ما يدور فى أعماق الإنسان!.

سئل حكيم: فى كم تعرف الرجل؟

قال: فى يوم. . إن سكت. . .وفى ساعة. . إن نطق!!

فالإنسان. . يظل منطقة نائية. . مجهولة. . حتى ينطق. . فنعرفه. .

أشرف ما نطق به اللسان:

وأشرف ما نطق به اللسان: كلمة التوحيد. .

وقال العلماء فى تعليل ذلك:

١ ـ كلمة التوحيد: مبدوءة بالنفى. . غسلا للقلب من كل ما سواه تعالى. . وحتى يكون مستعدا للتلقى.

٢ ـ كلمة التوحيد مستغنية عن النقط. . ومن طبيعة الموحد الاستغناء عن الخلق اكتفاء بالخالق سبحانه وتعالى.

٣ ـ ثم إن حروفها جوفية. . فالمهم فيها هو: القلب. .

٤ ـ تنقل المرء من عالم: من شقوة الأبد. . إلى نعيم الأبد.

٥ ـ فى غيابها تصير أعمال المشركين **﴿كرماد اشتدت به الريح﴾** أما المسلم:

فحسنته بعشر أمثالها إلى ما يشاء تعالى من أضعاف.

سأل العباس رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: فيم الجمال؟

قال: «**فى اللسان.. إن من البيان لسحرا**»[1].

وليس هناك أجمل.. ولا أسحر.. من كلمة التوحيد.. تلك الشجرة المباركة: ﴿**أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها**﴾.

*****

---

(١) رواه أحمد.

السيف.. والقلم

يقولون: إن عماد القوة فى الدنيا: اثنان: السيف. والقلم.

فأما السيف.. فإلى حين...وأما القلم.. فإلى كل حين.. والسيف مع الأيام مكروه. مغلوب...أما القلم: فهو: غالب.. ومحبوب!

وإذا كان الخطيب بلسانه يهز المشاعر.. فإن الكاتب بقلمه.. يقف معه فى خندق واحد.. بهذا القلم.. بل قالوا: إن الكاتب أوسع من الخطيب دائرة.. وأبقى منه أثرا.. من حيث يظل نتاجه حتى بعد وفاته دائم الأثر..

إن القلم فى يد الجاهل قطعة من الخشب. ولكنه فى يد العالم شىء آخر:

[بِشَباته يصاب من الأمر الكُلى. والمفاصل.

لعابه لعاب القاتلات.. وهو لعاب الجنى الطيب فى نفس الوقت.

فصيح إذا استنطقته، وهو راكب. [يعنى فى يد الكاتب] وأعجم إن خاطبته وهو راجل [ملقى على الأرض] إذا امتطى الخمس اللطاف - الأصابع - وأُفرِغَت عليه شعاب الفكر وهى جوافل.. أطاعته أطراف القنا. وتقوضت بنجواه تقويض الخيام الجحافل...خطبه جلل.. وهو ناحل.

قال ابن المعتز:القلم: يخدم الإرادة ولا يمل الاستزادة.. يسكت واقفا.. وينطق ساكتا. على أرض بياضها مظلم.. وسوادها مضىء.

وقيل: عقول الرجال تحت سنٍّ أقلامهم والأقلام: مطايا الفتن.

فما أعجب شأن القلم: [يشرب ظلمة. ويلفظ نورا. وقد يكون قلم الكاتب أمضى من سيف المحارب. فهو سهم ينفذ فى المقاتل. وشفرة تطيح بالمفاصل]

إشارة قرآنية:

كان أول ما نزل على الرسول ﷺ: اقرأ.. فالقراءة أولا.. أعنى: التعلّم.

ثم نزلت سورة القلم.. مشيرة إلى التعليم بالقلم.. بعد مرحلة التعلم

بالقراءة.

لكنه تعالى أقسم بالقلم.. وأمر فقط بالقراءة: اقرأ..

إنها إذن مهمة الكاتب بالقلم.. ومدى ما يحققه فى دنيا الناس من آثار:

إن مهمة الكاتب ليست تسلية القارئ.

وإنما هى إيقاظه. وتجنيده. لكى يحارب من أجل تجاوز الحيوان الذى يقبع داخله.

ولذا قيل: لقد تبينت وأنا أمعن فى الكتابة أننى لا أكتب من أجل الجمال.. بل من أجل الخلاص.. خلاص الإنسان.

من بركات القلم:

يقولون: الخط: لسان اليد...والخط الجميل يزيد الحق وضوحا...وهكذا: تتضافر فصاحة اللسان. مع فصاحة اليد..

ومن فصاحة اليد ما قاله النويرى يصف الخط الجميل:

يستحق الخط الجميل أن يوصف بالجودة: إذا اعتدلت أقسامه. وطالت ألفه ولامه. وضاهى صعوده جذوره. وتفتحت عيونه. ولم تشتبه راؤه ونونه. وخيل إليك أنه يتحرك وهو ساكن!!

قال عبد الحميد الكاتب يوصى أهل صناعته بمحاسن الآداب:

[تنافسوا يا معاشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفهموا فى الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ثم العربية، فإنها نفاق[1] ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم].

وصدق القائل:

من لم يقوِّم بالقديم لسانه فبيانه مهما يُجِدْه صهيل!

---

(١) نفاق ألسنتكم: أى: رواج كلامكم.

يقول الدكتور محمد طاهر درويش[1] :

تختلف الخطابة عن الكتابة. ولو قصدت إلى الإقناع والتأثير: لأنها تخلو مما لابد منه للخطيب من: جمهور يواجهه. وجمع يشافهه.

وبهذا تفترق أيضا عن الحديث والقصص ورواية الأخبار وما إليها؛ لأن الخطابة تقوم على عنصرين لا يتوافران فى هذه الأنواع هما: الإقناع والتأثير.

كما تفترق عن الشعر فى أنه لا يلجأ إلى التقرير. . .ولا يجعل اعتماده على المنطق والدليل إلا نادرا. .ويلتزم من القيود ما لا حاجة بها إليه.

وأيضا لارتفاع أسلوبه ودقة معانيه. وتحكم أوزانه وقوالبه فى مبانيه.

وبعد:

[فكثيرون هم أولئك الذين يهزون المنابر هزا. ويكادون بضجيج الكلمات أن يحرقوا آذان المستمعين. ومع هذا يضيع الصوت والصدى. ولا يبقى منهم شيء! وكثيرة هى أعداد الذين تحصى أسماؤهم فى السجلات. وعاظا ودعاة.

فإذا نظرت إلى المردود. هالتك النتيجة. وبدا لك أنهم لا ينقشون على الحجر. ولكنهم يحرثون فى الماء[2].

ولابد لكى ينهض الداعية بأعبائه من توفر أمور تعينه على أمر الله تعالى:

ويمكن الإشارة إليها فيما يلى.

الاستعداد

(الخطابة ـ كالشعر والتمثيل والرسم ـ من المواهب الفطرية)

فبعض الناس يخلق خطيبا أو شاعرا بفطرته.

وهذه الطبيعة توفر عليه جهدا كبيرا فى حصوله على كمال هذه الصفة. ومن الناس من يحسن الكتابة وتشقيق الكلام فيما يعبر عنه من المعانى. لكنه لا يحسن إلقاءه ولا مواجهة الناس.

---

(١) الخطابة.

(١) العقد الفريد: ٤/ ٢٣٣ ـ رسالة المسجد ربيع الأول ١٤٠٢ هـ.

ومنهم من يحصر ويعيى، أو يرتج عليه إذا وقف للخطابة. وإذا تحدث فى مجلس أجاد الحديث.

ومنهم من لا يستطيع هذا ولا ذاك.

وهذا النوع يتجنب الخطابة أصلا...أما الآخرون فيحتاجون إلى تدريب وتكوين عام حتى يحسنوا الخطابة.

والشخص الموهوب أقوى وأقدر على كل حال...ولا يعنى هذا أن الخطيب الموهوب يستغنى عن مؤهلات الخطابة. ومعرفة قواعدها. وطرق إلقائها.

فهناك أمور خاصة: لا يكون الخطيب خطيبا بغيرها[1]].

وقد مر بك رأى أرسطو فى الخطابة وإمكان أن تكون فنا ينال بالممارسة والتعلم:

فمن الناس من هو مطبوع على الخطابة أصلا...ومنهم من يحاول التطبع بالمعاناة والمران.

وهذه حقيقة مقررة. لكن المهم هو: كيف ننمى هذا الاستعداد؟

كيف ننمى الاستعداد:

ينمو الاستعداد بأمور:

المحـــاولة:

فى مستهل حياتنا كنت أنا وزميلى[2] نجمع أعواد الحطب. وبقايا الأثاث القديم فى البيت أو الحقل.

ثم نتخيل ذلك أناسا يجلسون بين أيدينا.. وينصتون إلينا!

ويتقدم أحدنا. ليقوم فيها خطيبا. فإذا انتهى من خطبته. أخذ الثانى مكانه فى جد واهتمام.

لم نكن نعد موضوعا.. بل لم يكن هناك كلام يحسن السكوت عليه. وإنما

(١) د. عبد الجليل شلبى ـ الخطابة ٢٤٣.
(٢) د. محمد الأحمدى أبو النور.

هى محاولة نقول فيها كلاما نصبه فوق رءوس جمهور لا وجود له إلا فى خيالنا.

والمهم أن ننطلق.. وليس مهما أن يكون لكلامنا معنى!

ولم نشأ أن تبدأ المحاولة بين أهلينا فى المسجد مثلا.. فرارا من سخريات قد تطفئ شعلة الحماس فى قلبينا.

وآثرنا أن نتعلم الكلام بعيدا عنهم. حتى إذا تمرست النفوس بالتجربة واتتها قدرة على التعبير. تقوى مع الأيام.

ما معنى هذا؟ معناه باختصار: إن الاستعداد للخطابة مركوز فى نفوسنا..

وعلى تعدد الغايات فى حياة رفاقى. فلم تكن لى غاية إلا أن أكون خطيبا. وهذا الولع المبكر بها دليل هذا الاستعداد.

وكلما تخيلت صورتى فى المستقبل. تبرز صورة خطيب هو - أنا!! - يشير بيديه.. ويضرب المائدة بقوة فى بيان يستحوذ على قلوب المستمعين! وتلك غاية المراد من رب العباد.

فلا كانت صورة المهندس أو المدرس تستهوينى. ولا صورة الطبيب.. على شدة ولع الزملاء بها.

ولا يعنى هذا سهولة المحاولة... بل لابد من تصعيد التجربة العملية ليؤتى الاستعداد أكله.

يروى أن ديمستين خطيب اليونان.. كان ينقطع شهورا طويلة ونصف رأسه محلوق. لئلا يحاول الخروج... وكان يلقى خطبا وفى فمه حصى. وهو على شاطئ البحر. ليمرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس.

ولما رجع إلى المنبر كان قد أخضع صوته لإرادته[1].

مجالسة البلغاء:

بلاغة البلغاء تعدى الآخرين حين يجالسونهم. أو يقرأون لهم. وقد حكى المرحوم الشيخ أبو زهرة عن ابن الأثير رأيه فى ضرورة صحبة البلغاء - فى

(١) الخطابة لأبى زهرة: ٢٦.

مأثوراتهم ـ فى مجالات التعبير.. ليمكن للمتعلم أن يقبس من أنوارهم.

وربما انقدح فى ذهنه معنى غريب لم يسبق إليه الأقدمون... أى أن طالب التفوق فى مجال الخطابة لابد له من متابعة تجارب الآخرين وصولا إلى ذخيرة من المعانى والتراكيب.

ونرى أن مجرد قراءة هذا التراث لا تكفى.. لأن مجالسة الأحياء منهم تقدم للطالب أساليب اللغة منطوقة نطقا صحيحا. وذلك ما لا تتكفل به مجرد القراءة التى لا تتيح سماع اللفظ على وجهه السليم.

وقد تفيد فى تحصيل قدر من المعانى. وتبقى الحاجة ماسة إلى سلامة التعبير عن طريق السماع المباشر.

وقد كنت أوصى بعض الطلاب المتعثرين فى الحديث.. والذين لا تسعفهم قدراتهم على النطق الصحيح أن يكثروا من الاستماع إلى المحدثين الكبار عبر موجات الأثير.

يقول الجاحظ:

(وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين. وإن ظننت أن لك فيهما طبيعة.. وأنهما يناسبانك بعض المناسبة. ويشاكلانك فى بعض المشاكلة.

ولا تهمل طبيعتك. فيستولى الإهمال على قوة قريحتك ويستبد بك سوء العادة).

ثم يحذر من مجالسة الجهال حتى لا يشوشوا على ملكة البيان لديه:

(ولو جالست الجهال والسخفاء والحمقى شهرا فقط. لم تنق من أوضار كلامهم. وخيال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل).

أى أنك مهما جالست العلماء ولو دهرا. فإن ذلك لن يذهب الأثر السيئ الناشئ عن جلوسك مع الجهال ولو كان ذلك زمنا يسيرا. وذلك مردود إلى حقيقة من حقائق النفس الإنسانية يوضحها الجاحظ فى نفس المقام فى قوله:

(.. لأن الفساد أسرع إلى الناس. وأشد التحاما بالطبائع).

الخطيب
والثقافة الأدبية واللغوية

يقول ابن قتيبة: «أول الخطابة اجتماع آلة البلاغة ـ وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش. ساكن الجوارح»[1].

وإلا . . فإن فقدانه ذلك العنصر الفعال مؤدٍّ به إلى الفشل. على ما يقول أبو هلال العسكري:

(. . . . فإن الحيرة والدهش. يورثان الحبسة والحصر. وهما سبب الإرتاج[2]

ويهمنا أن نوضح ـ فى معرض الحديث عن تنمية الاستعداد ـ ما للثقافة الأدبية واللغوية الواسعة من أثر فعال فى حياة الخطيب تمكنه من تصريف القول وتجاوز لحظات الحيرة والدهش بما يملك من زاد يتيح له الكلام فى كل مناسبة. وعلى أى مستوى.

وقد روى ـ دليلا على أهمية الثقافة اللغوية وخطورتها أن أعرابيا قدم المدينة المنورة فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل عمن يعلمه القرآن فاقرأه رجل سورة «براءة» وتلا عليه قوله تعالى: ﴿**أن الله برىء من المشركين ورسوله**﴾.

بكسر اللام فى «رسوله» فقال الأعرابى: أن يكون الله برىء من رسوله فأنا أبرأ منه!!

فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فدعا الأعرابى. . وعرف منه القصة.

فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابى. . إنما هى: ﴿**أن الله برىء من المشركين ورسوله**﴾ برفع اللام.

فقال الأعرابى: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/١٧٣.

(٢) الصناعتين ١٤ ـ ١٥ والحبسة: بضم الحاء خلاف الانطلاق وتعنى التوقف والحصر: مثل حصر القارئ: منع من القراءة فهو. حصر أى ممنوع. أرتج: أى استغلق عليه ولم يقدر على الكلام.

فأمر عمر رضى الله عنه ألا يقرئ الناس القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود فوضع علم النحو.

بل إن حساسية أدبائنا بلغت حداً ليس وراءه وراء فى الاهتمام باللغة حتى فى صورتها الإملائية:

وحكوا فى ذلك عن مدرس بدار العلوم استبقى طالباً أكثر من عام فى مستوى دراسى واحد.. حائلا بينه وبين النجاح لماذا؟

لأنه أخطأ إملائياً فكتب كلمة «لكن» هكذا: «لاكن»!؟[1].

وإذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية فى الدرجة الأولى، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك. ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات.. والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات

[واللغة ـ بمفرداتها ونحوها وصرفها ـ لازمة لسلامة اللسان، وصحة الأداء، فضلا عن حسن أثرها فى السمع. بل صحة الفهم أيضاً، فالأخطاء اللغوية إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد يمجها الطبع وينفر منها السمع.

وانظر كم يقشعر جلدك، ويضطرب قلبك، ويتأذى سمعك، حين تسمع داعية يقول: التُّبعة وهو يريد: التبعة. ويذكر الأهُبَّة وهو يريد الأُهبة.

وآخر ينصب المرفوع، ويرفع المنصوب، ولا يفرق بين فاعل ومفعول به، ولا يبالى بإضافة ولا حرف جر.. فلا يكاد ينهى سطراً من الكلام إلا ضلك فيه ضلة، أو لطمك ـ ولطم الخليل وسيبويه معك ـ لطمة أى لطمة.

وكثيراً ما يؤدى اللحن إلى إفساد المعنى، وإخراجه إلى ما يناقض الشرع والعقل... وشر ما يكون ذلك إذا كان اللحن فى كتاب الله، كذلك الإمام الذى

---

(١) دفع الممثل الامريكى بوب هوب الذى اشتهر بأدواره الكوميدية ثلاثة آلاف دولار ثمناً لكراسة مدرسة مليئة بالأخطاء الإملائية.

الكراسة كانت تخص بوب هوب نفسه وهو تلميذ فى المرحلة الابتدائية وقد اشتراها من شخص وقعت فى حوزته بالمصادفة وبرر ذلك بقوله أنه لا يريد أن يسخر المؤرخون السينمائيون من أخطائه اللغوية. (الجمهورية ٤/١٢/٨٣).

صلى أعرابى خلفه، فسمعه يقرأ: ﴿**ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا**﴾ بفتح الباء.

قال: ولا إن آمنوا أيضاً لن ننكحهم! فقيل له: إنه يلحن، وليس هكذا يقرأ. فقال: أخروه قبحه الله لا تجعلوه إماماً. فإنه يحل ما حرم الله.

إن المرء لا يستطيع أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله بغير التمكن من اللغة وعلومها.

لقد أخبرنى بعض طلابى أنهم سمعوا من يقول بأن حواء خلق أولا وأن آدم خلق منها بعد. وأن المرأة هى أصل البشرية.

ولما سألت من أين جاء بهذا الكلام؟ قالوا: من القرآن من أول سورة النساء وما شابهها - وهنا أدركت سر الخطأ عند هذا المتحدث وهو جهله باللغة فقد قرأ قوله تعالى من فاتحة سورة النساء: ﴿**يا أيها الناس اتقوا بكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها...**﴾ ففهم منها أن كلمة: ﴿**زوجها**﴾ تعنى الرجل وهو آدم فى نظره، ولو كان آدم هو المخلوق أولا والمرأة هى التى خلقت منة لقال: خلق منها زوجتها.. وهذا هو المستعمل عرفاً تقول عن الرجل زوج، وعن المرأة زوجة - وغفل هذا الرجل أن القرآن يجب أن تفسر كلماته وفقاً لمدلولها اللغوى لا العرفى، لأن العرف دائم التبدل. واللغة التى نزل بها القرآن تسمى المرأة زوجاً كالرجل تماماً. ولهذا قال تعالى فى قصة آدم ﴿**اسكن أنت وزوجك الجنة**﴾ ولم يقل وزوجتك. وقال فى شأن هاروت وماروت ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾ وإنما أتى الرجل من جهله باللغة.

والأدب بشعره - ونثره، وأمثاله وحكمه، ووصاياه وخطبه - مهم للداعية، يثقف به لسانه، ويجود أسلوبه، ويرهف حسه، ويقفه على أبواب من العبارات الرائقة، والأساليب الفائقة، والصور المعبرة، والأمثال السائرة، والحكم البالغة. ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التى يستخدمها الداعية فى محلها، فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه.

وقد جاء فى الحديث: عن ابن عباس رضى الله عنهما. قال: جاء أعرابى إلى

النبى ﷺ فجعل يتكلم بكلام. فقال رسول الله ﷺ: **«إن من البيان سحرا، وإن من الشعر حُكْماً»**[1]. وسمع النبى ﷺ - الشعر من أكثر من شاعر واستجاده واستزاد منه، وكان من أصحابه شعراء معروفون مثل حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وغيرهم.

أهمية الشعر:

ويأخذ الشعر أهميته فى نفس الداعية بما له من نظم مؤثر - وسهولة فى الحفظ والاستيعاب. تستميل المستمع. بقدر ما تصوغ الحكم والأمثال فى قوالب جذابة مركزة تبقى فى الذاكرة أبداً - ومن ثم يستمر تأثيرها:

إن الكلام إذا حوِّل نظما: فرح الحزين، وحرك الرزين.. وقرب من الأمل البعيد[3].

عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ قال: **«إن من الشعر حكمة»**[4] كما يقول النبى ﷺ.

(وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت: يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر)[5].

لهذا ملنا إلى إيراد الأشعار، والاستعانة بها فى هذه المواعظ، قاصدين أن نضيف إلى المعانى التى يستحسنها فكر الداعية نوعاً من استحسان نفسه لها، ليرسخ المعنى، ويطول تأمله وتذكره.

وليس أدل على أهمية الشعر فى نصر العقائد وترويجها ما كان له من دور فى إسعاف أهل البدع وترويجها لدى العوام، مضادة لمساعى ابن تيمية وتلامذته عندما

---

(١) رواه أبو داود. قال: الحافظ ابن قيم الجوزية والحديث سكت عنه المنذرى. [عون المعبود. شرح سنن أبى داود] جـ١٣. ص٣٥٤.ط. السلفية الثانية ١٣٨٩ هـ. ١٩٦٩م.

(٢) د. يوسف القرضاوى. ثقافة الداعية.

(٣) خريدة القصر - القسم العراقى: ١/٢٠٢.

(٤) رواه أبو داود. قال الحافظ ابن القيم الجوزية: قال المنذرى. وأخرجه البخاى وابن ماجه. [المرجع السابق].

(٥) وحى القلم للرافعى ٣ - ٢٨٥.

انبروا لتفنيدها ودمغها بحجج السنة الغراء.

(ولا ريب أن منطق ابن تيمية القوى أثر أثره، ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نضرة الشعر وفتنته) كما يقول شاعر الإسلام محمد إقبال[١].

وهو كما قال، فإن الذى قلل من سريان كلام ابن تيمية فى أوساط العامة هو ما كان عليه أئمة الضلال الداعين إلى البدع من روعة البيان، ورقة الشعر. وتمكنهم فيه، حتى سحروا قلوب الناس بشعرهم من حيث لا يشعرون، ولم يتهيأ لابن تيمية شاعر مبدع يسانده.

إن للشعر هذه القابلية فى إسعاف من يستعمله وتزيين الخطأ أو الصواب، ونصرة الحق أو الباطل. عل حد سواء، فى كل شؤون الفكر وحقائق الحياة، إذ النفس الإنسانية تحب الجمال. والشعر جمال كله. وبإمكانه أن يزيد الحق والصواب نضرة وزهاء ورونقاً ووضوحاً، أو أن يخفى ما يشين صفحة الباطل والخطأ والوهم من خروق ونتوء واعوجاج، فينطلى عيبه بالتزويق. ولا يتخلص من أسرار الشعر وتأثيره إلا قلب عامر بالإيمان عمرانا كافياً.

إن هذه الظاهرة الشعرية هى التى دفعتنى إلى الاستعانة بالشعر فى هذه المواعظ. ولئن كان يقلل من تذوق بعض الدعاة لهذا الشعر العربى الرصين الواضح الذى اخترته، ما أصابهم من هذا الذى أصاب عموم الجيل العربى الجديد من ضعف الحاسة الأدبية، فإني أرجو أن يكون عملى هذا محاولة للارتفاع بهذا الذوق لدى الدعاة. ولئن كان باعى فى الشعر قصيراً، فإن فى إنتاج الثقات غنى وبركة. ولئن كان أكثره منشوراً من قبل. فإن فى هذا الانتقاء تقوية وحفظاً وترويجاً وبعثاً جديداً له.

ولنا اقتداء فى استعمال شعر الرقائق بالإمام أحمد، فقد كان يحفظ شيئاً منه أملاه على ثعلب، الأديب المشهور، وسمعه أصحابه ينشده الشعر، ووقف الشعراء بين يديه أيام محنته يمدحونه، بل تنسب إليه قطعة نظمها فى عتاب على بن المدينى حين لم يصبر معه على العذاب[٢].

(١) كتاب محمد إقبال لعبد الوهاب عزام: ٥٢.

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى: ٢٠٥.

وقال له أحد أصحابه: يا أبا عبد الله: هذه القصائد الرقاق التى فى ذكر الجنة والنار، أى شىء تقول فيها؟

فقال: مثل أى شىء؟

قال: يقولون:

إذا مـا قــال لـى ربـى أما استحييت تعصينى؟

وتخفى الذنب من خلقى وبالعصيـان تأتينـى؟

فقال: أعدْ علىّ.

قال: فأعدت عليه، فقام ودخل بيته، ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول:

إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى[1]

وأما استعارة بعض الأبيات التى قيلت فى مدح أناس ثقات من الخلفاء والقادة والكرماء لوصف دعاة الإسلام بها، فذلك مما لا يأباه العرف المأثور عن السلف، ونقتدى بفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سمع أبيات زهير بن أبى سلمى فى هرم بن سنان المرّى:

دع ذا وعدِّ القول فى هَرِم خير الكهول وسيد الحضر

فقال عمر: ذلك رسول الله ﷺ[2].

وبهذا الإقناع فى جدوى الشعر وجوازه: اقتبست الكثير من دواوين القدماء. ثم من دواوين وليد الأعظمى، ومحمود آل جعفر، والأميرى، وعبد الوهاب عزام، وغيرهم.

وكذلك أضفت شيئاً من شعر إقبال، شاعر الإسلام الفحل مما فى دواوينه: (رسالة المشرق) و (الأسرار والرموز) و (ضرب الكليم). فدخل شعره الأول مرة فى المواعظ العربية من بعد ما ترجمه عبد الوهاب عزام.

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى: ٢١٨.

(٢) الأغانى: ٣٠٤/١٠.

وإقبال شاعرٍ صحيح العقيدة، عميق الرؤية، سليم التفكير وقد وثقه أبو الحسن الندوى وكرس له دراسة سماها: (روائع إقبال)، كما وثقه المودودى فى مقال مهم نشرته مجلة البعث الإسلامى الهندية[1]، بين فيه فضل إقبال فى توجيه الجيل الذى أسرته الحضارة الغربية، وإبعاده عن ضيق القوميات، وتأكيد صورة الدولة الإسلامية لديه، حتى إن الأستاذ المودودى وصف عمل إقبال بأنه عمل عظيم فى مجال الإصلاح[2].

---

(١) مجلة البعث، مجلد ١٦ عدد ٤ الصادر فى شوال ١٣٩١ هـ.

(٢) محمد الراشد: المنطلق ص٢٨ وما بعدها.

[فى تعليق لشيخنا الغزالى على قول الشاعر:

لا . . لا أبوح بحب بثينة إنها   أخذت علىّ مواثقا وعهودا

قال: إذا كان شعرا، الغرام يلتزمون بالوفاء فكيف لا يكون المسلم أشد وفاء بعهده مع ربه سبحانه وتعالى؟!

بين الشعر والنثر[1]

جميع الناس فى عامة كلامهم يتناولون النثر، والشعر عندهم لداعية عارضة. وسبب باعث.

ومن فضل النثر: أن الوحدة فيه أظهر. وأثرها فيه أشهر. والتكلف فيه أبعد.. وهو إلى الصفاء أقرب.

ولا توجد الوحدة غالبة فى شىء إلا دليل حسنه ونقائه والنثر من جانب العقل. والنظم من جانب الحس.

ولذلك دخلت على النظم الآفة. وغلبت عليه الضرورة. واحتيج فيه إلى الإغضاء عما لا يجوز من النثر.

ولكن التوحيدى أنصف النظم حين قال: أن صورة المنظوم محفوظة وصورة المنثور ضائعة.. وأن الشواهد لا توجد إلا فى النظم. والحجج لا تؤخذ الا منه.

فالشاعر هو صاحب الحجة. وإن للشعراء حلية ليس للبلغاء مثلها..

فإذا تتبعت جوائز الشعراء فى مجالسهم وأنديتهم وجدتها خارجة عن الحصر..

الرسول ﷺ والشعر:

عن جابر بن سمرة قال: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة... فكان أصحابه يتناشدون الشعر. ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية. وهو ساكت. وربما تبسم معهم.

ويقول الشريد: استنشدنى النبى ﷺ شعر أمية بن أبى الصلت وأنشدته[2].

[عمر.. والشعر]

اجتمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأبناء هرم بن سنان. ممدوح شاعر

---

(١) أبو حيان التوحيدى.

(٢) الأدب المفرد. للبخارى: ١٢٢.

الجاهلية «زهير بن أبى سلمى». فاستنشدهم شعر زهير فى مدح أبيهم... فانشدوه... فعلق الخليفة قائلا: ما أحسن هذا المدح! فقالوا: وما أحسن العطاء كذلك الذى جاد به أبونا!.

فقال عمر: ولكن عطاء أبيكم نفد.. وعطاء زهير لا يزال!

رثا «متمم بن نويرة» أخاه مالك بن نويرة «الذى قتل بيد خالد» فلما استنشده «عمر» ذلك الشعر قال:

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فتأثر به عمر وقال: ليت مثله قيل لأخى زيد بن الخطاب....وكان قد استشهد فى القتال للإسلام.

فقال «متمم»: ولكن أخى «مالكا» لو قتل كما قتل أخوك لم أبك عليه (هدف مختلف).

فقال عمر: لم يعزنى أحد فى أخى «زيد بن الخطاب» أحسن من هذا العزاء.

حسن تخلص:

قال عالم النحو للواعظ الذى كثر لحنه فى خطبته: أخطأت يا لُحنه!!

فقال الواعظ: العبرة بالأفعال لا بالأقوال!

هلا «جزمت» نفسك عن المعاصى... هلا «نصبت» يدك داعياً ربك...هلا «رفعت» رأسك بين الناس!!

وعندما أخطأ الخطيب فنطق هكذا: (.. من رسول) برفع الرسول متجاهلا حرف الجر.. قال متخلصاً من ورطته: ما أردت «جر» الرسول.. وإنما أردت أن أرفعه!!

وأردت بهذين المثالين أن أؤكد أن التظرف أو حسن التخلص لا يعفى الخطيب من مسؤوليته.. ولا يحتفظ بصورته قوية مؤثرة فى أذهان المستمعين.. وإذ يكسب بهذه الإجابة السريعة ابتسامة عارضة.. فإنه يخسر مكانته.. وينزل عن عرشه.. ولا خلاص له إلا بالتمكن من اللغة سلاحاً يحقق به النصر فى معركته

الطويلة الشاقة.

سرعة البديهة:

امتدح أبو تمام الخليفة العباسيَّ أحمد بن المعتصم بقصيدة، فلما بلغ إلى قوله:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الكندى بجرأة وثبات: الأمير فوق من وصفت. . . فأطرق أبو تمام ملياً ثم قال:

لا تنكروا ضربى له من دونَه   مَثَلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنـوره   مَثَـلاً مـن المشكـاة والنبـراس

فسكت الكندى، وأعجبت الفئة الحاضرة لفطنة أبى تمام وأصالة رأيه، وجودة فكره، وسرعة خاطره.

وقد روى أنه نظر فى قصيدة أبى تمام فلم يكن فيها هذان البيتان!

[دور الإعلام]

ولأجهزة الإعلام - مرئية ومقروءة ومسموعة. . لها دورها الفعال فى أخذ النشء بعزائم الأمور. . فى هذا البيان تمكينا لملكة البيان.

إنها أجهزة مفروضة على الإنسان. . تطرق عليه الباب. بل وتقتحم عليه فراشه بما تملكه من وسائل. وما تبثه من أفكار وأساليب.

ومن ثم فاختيار أسلوبها ليكون عربياً ملتزماً أوفق بمصلحة شبابنا. لكنها تختار الأسهل الضار. بما تشيعه من تراكيب سمجة لا أساس لها من قواعد اللغة مع وجود البديل فيها.

ويتضح ذلك فى رمضان. وفيما تعرضه من مسرحيات.

ويكفى أن تجرى على لسان الممثلة أو الممثل جملة تقلب. . القاف. . «كافاً» أو «الطاء» «تاء» لتجرى مجرى الهواء على ألسنة الصبيان. . يتغنون بها فى كل

مكان.

وكان المتوقع أن نكون أوفياء لديننا باستغلال غريزة التقليد لدى هؤلاء الصبيان ترويجاً للتعبير العربى البسيط. الجميل فى نفس الوقت. إعزازاً للغة القرآن.

إن الطبع يسرق كما يقولون. وغريزة التقليد عميقة الأثر فى حياة الناس. وخاصة النشء الغض المستعد للاستجابة.

وأجهزة الإعلام صاحب مفروض كما قلنا.. فلنهيئ للنشء معها صحبة مباركة يستقيم بها لسانه باللغة التى تجمعنا على كلمة سواء.

وللدكتور محمد محمد حسين وجهة نظر تنبثق من إعزازه لغة القرآن.. قال وهو ينعى على الذين يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير:

[إنهم يعدلون فى أكثر الأحيان عن الفصيح السمح الجميل. إلى السوقى السمج الثقيل:

فى مثل: العسكرى.. حلق عليه.. حطت اللحم فى الحلة..

مبسوط.. شاف.. زيطة.. استغرب. زعلان. ابن الحلال.. بص.. حطها فى القفص.. المخده.. زاحنى فى البحر.. يتزحلق..

ومقابل هذه الكلمات فى الفصيح مشهور خفيف شائع. وهو على الترتيب السابق:

الشرطى.. اعترضه أو وقف فى وجهه.. أو فى طريقه.. وضعت اللحم فى القدر.. مسرور.. رأى.. ضوضاء أو ضجيج أو لقط.. دهش أو عجب.. ابن الكرام.. نظر.. وضعها فى القفص.. الوسادة.. دفعنى إلى البحر.. ينزلق.. هل يرى القارئ مسوغًا لإهمال هذه الكلمات الفصحى التى هى قدر مشترك بين سائر العرب. وأصحاب الثقافات العربية[1]].

وفى سبيل التمكين للذوق العربى يبين الدكتور أهمية الالتزام بالفصحى وليس شرطا أن يفهم الطالب اليوم كل ما يسمعه.. بل المهم أن يسمع الصحيح

(١) حصوننا مهددة: ٢٤٢.

الفصيح.. وسوف يجنى الثمرة غدا:

[من المسلم به أن الصبى لا يعى كل ما يحفظه وعيا كاملا. ولكن لا ينبغى أن يفوتنا أنه يختزنه إلى أن ينضج عقله. فيستخرج المدخر آنافآنا لتدبره.

ولو سلمنا باستبعاد كل ما لا يستطيع الصبى أن يتدبره فى صباه. لا نبنى على ذلك استبعاد تعليمه أن الأرض كرة. وأنها تدور. واستبعاد تعليمه أن الله سبحانه وتعالى أحد صمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد(1)].

إن المسؤولية لتبدو فادحة حين تتصور أن شيوع التعبير الركيك فى مجال الصبا إنما هو نقش على الحجر ومن المستحيل محوه. والفرصة متاحة لنا بتوجيه هذه الأجهزة لما خلقت له.

معلم الخطابة:

وبتتبع ذلك حسن اختيار القائم بتدريس مادة الخطابة فى جامعتنا:

وننبه هنا إلى معنى جدير بالتأمل:

فقد كان الاستعمار يباشر نفوذه فى دائرتين:

الأولى: دائرة تعليم النشء بإبعاده عن لغته وهى سر من أسرار قوته.

الثانية: دائرة تأهيل المربى بإفساد ملكة البيان فيه.. ومتى فسد الذوق اللغوى.. لم يكن هناك جامع يجعل من الأمة جسداً واحداً.

والمهم هو فصل الأمة عن مصدر قوتها ومنعتها وهو : القرآن الكريم.

وإذن.. فحسن إعداد الخطيب البليغ تفويت لمكر قديم ما زال يباشر سلطاته حتى الآن. وإن اختلفت الوسائل والعناوين.

ثم هو إتاحة الفرصة لطالب الخطابة أن يعاشر نموذجا للبلاغة والأدب يراه. وينفعل به. وأخيرا يتأثر به..

وإنه فى حياته لمثل الجليس الصالح لابد أن تفيد منه على أى مستوى من

---

(٢) المرجع السابق.

مستويات الفائدة. بقدر ما تنعكس الآية لو لم يحسن اختياره... فقد يكون المدرس عالما بقواعد الخطابة واعيا بكل شاردة فيها وواردة. لكن أسلوبه وطريقة أدائه لا تثير فى الطلاب حماسا إلى تناول هذا اللون من فنون المعرفة.

إنه قادر على تزويد الطالب بأصول الفن.. لكنه لن يجعل منه خطيبا.. لأنه بأسلوبه الركيك يهدم ما يبنيه أولا بأول.

وقليل من القواعد الخطابية.. مع كثير من المقدرة الخطابية أقرب إلى تنشئة جيل من الخطباء يعيشون التجربة مع نموذج حى يملأ عليهم حياتهم..

وأولى مظاهر هذه المقدرة أن يلتزم معلم الخطابة فى أدائه بقواعد اللغة وعلى أوفى ما يكون الأسلوب كمالا وجمالا... على أن تتسع دائرة الالتزام لتشمل هيئة التدريس كلها. لنهيئ المناخ المناسب المعين على نمو ملكة البيان.

مسؤولية الخطباء ومسؤولية الأمة:

وتنبع هذه المسؤولية من سهولة اللغة العربية أولا... ثم من دورها العظيم فى نشر الدعوة الإسلامية وما يترتب على إهمالها من خطر يهدد الفرد والمجتمع.

ومن المفيد أن ننقل هنا ما قاله المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين تنويها باللغة وحضا على إجادتها.

فضل اللغة العربية:

للغة العربية فضل من جهة اعتدال كلماتها، فإنا نجد أكثر ألفاظها قد وضع على ثلاثة أحرف، وأقل من الثلاثى ما وضع على أربعة أحرف، وأقل من الرباعى ما وضع على خمسة أحرف، وليس فى اللغة كلمة ذات ستة أحرف أصلية، وقد جاءت ألفاظ قليلة جدا على حرف واحد أو على حرفين.

ولها فضل من جهة فصاحة مفرداتها، فليس فى كلماتها الجارية فى الاستعمال ما يثقل على اللسان أو ينبو عنه السمع، وللعارف بحسن صياغة الكلام أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضاءة قطعا أو خطباً أو قصائد تسترق الأسماع وتسحر الألباب. ولعناية العرب بتهذيب الألفاظ زعم قوم أن العرب تعنى بالألفاظ، وتغفل المعانى وهؤلاء هم الذين رد عليهم ابن جنى فى باب مستقل من

كتاب الخصائص، ومما قال فى هذا الباب: «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ، بل هى عندنا خدمة منهم للمعانى، وتنويه وتشريف، ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته وتقديسه».

كانت اللغة الفارسية فى الشرق هى التى يمكن بمالها من فصاحة وحسن بيان أن يوازن بينها وبين اللغة العربية. وقد شهد بعض الأعاجم الذين عرفوا اللغتين بأن العربية أرقى مكانة وألطف مسالك.

قال ابن جنى فى الخصائص: «إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى، وقد تدرب قبل استعرابه، عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبعده فى نفسه، وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه، سألت غير مرة أبا على عن ذلك، فكان جوابه عنه نحوا مما حكيته».

وقد استدل بعض علماء الأدب بما كتبه أرسطو فى الشعر على أن الشعر العربى أرقى من الشعر اليونانى، قال حازم فى كتاب المناهج الأدبية[1].

«ولو وجد أرسطو فى شعر اليونان ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع فى فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم فى أصناف المعانى وحسن تصرفهم فى وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفى إحكام مبانيها واقتراناتها، وطلب التفاتاتهم وتمنياتهم واستطراداتهم وحسن مآخذهم ومنازعهم، وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية».

هذه شهادات صادرة ممن يعتقدون أن للغة العربية فضلا من وجهة أنها اللسان الذى نزل به القرآن الكريم، وإليك شهادات ممن لا يؤمنون بالقرآن، وإنما ينظرون إلى اللغة من ناحية حسن البيان، قال المستشرق: «أرنست رينان» فى كتابه (تاريخ اللغات السامية).

«من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل. تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بالمكتبة الصادقية فى تونس.

ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها. وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر، حتى إنها لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة - لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التى لا تبارى، ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة».

وقد ذكر محاسن العربية رجال لا يعرفون غيرها من اللغات الراقية، وشهدوا لها بأنها أقرب اللغات انطباقا على النظم الطبيعية.

قال المطران يوسف داود الموصلى: «من خواص اللغة العربية وفضائلها أنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق، بحيث إن عباراتها سلسة طبيعية. يهون على الناطق صافى الفكر أن يعبر فيها عما يريده من دون تصنع وتكلف، باتباع ما يدله عليه القانون الطبيعى، وهذه الخاصية إن كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية فى وجه من الوجوه، فقلما تجدها فى اللغات المسماة «الهندية الجرمانية» ولا سيما الأفرنجية منها».

لندع الحكم بين اللغة العربية وأى لسان أعجمى لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الأعجمى، فهو الذى قد يصغى إليه الناس متى آنسوا فيه الإنصاف، ويتلقون حكمه بالقبول. والذى أقوله وأنا على بينة مما أقول: أن أساليب اللغة العربية أقرب إلى النظم الطبيعية من اللسان الألمانى، فإن فى اللسان الألمانى ضروبا من التصرف يفقد بها الكلام ترتيبه الطبيعى، وليس لهذه الضروب فى العربية الفصحى من شبيه، ففى اللغة الألمانية أفعال مركبة من قطعتين، يضع المتكلم إحدى القطعتين فى أول الجملة ويضع الأخرى عند انتهائها، فالسامع لا يعرف معنى الفعل عندما يسمع القطعة الأولى فى صدر الجملة، ويبقى معه لفظ لا يدرى ما معناه حتى يصل إلى القطعة الملقاة فى آخر الكلام. والمتكلم باللسان الألمانى يأتى فى صدر الجملة بعلامة استقبال الفعل أو مضيه، أما الفعل نفسه فهو آخر ما تسمعه من الجملة، أعنى أنه يأتى بعد المفاعيل والظروف ونحوها. والمتكلم باللسان الألمانى كثيرا ما يورد أداة التعريف ولا يأتيك بالمعرف إلا بعد كلمات أو جمل لها صلة بالمعرف، وقد تلاقيك أداة تعريف ولا تصل إلى المعرف إلا بعد أن تقرأ نحوا من سطر أو سطرين.

إن اللغة العربية بحر لا ساحل له. وهى فى حاجة إلى سباح ماهر.. ومع مهارته لن يصل إلى شاطئها مهما خاض وسبح! وعليه أن يسدد ويقارب.

إنها المحاولة.. وبذل الجهد..وهو ما نطالب به شبابنا ليبذلوا جهودهم أولا ـ وحتى يصلحوا للدعوة ـ للوقوف على أسرار لغتهم.

ولو لم يكن للغة إلا أنها توصل إلى إعجاز القرآن.. ومعنى النبوة.. وهداية أمر المعاش والمعاد.. لكفى..

قال عمر رضى الله عنه: (تعلموا العربية فإنها دينكم).

وليس المقصود بالتعلم حفظ قواعدها.. لكنه التعمق المعين على فهم القرآن والسنة.. وذلك ما أشار إليه عمر فى خطابه إلى أبى موسى الأشعرى:

(أما بعد: فتفقهوا فى السنة.. وتفقهوا فى العربية).

بل إن العدول عن التكلم بالعربية مع القدرة عليها من شأنه أن يورث النفاق على ما قيل: (من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم إلا بالعجمية فإنه يورث النفاق).

بل إن فقه العربية والإحاطة بها من صميم العبادة والتقصير فيها مؤد بالمسلم إلى الوقوع فى معصية لا يجاب معها الدعاء.

ومن هنا قال الشاعر المسلم جاعلا من اللحن مانعا من قبول الدعاء:

يناجى ربه ليث بلحـــن   كذاك إذا دعاه لا يجيب!!

وقد فهم أعداء الإسلام ذلك عندما جعلوا اللغة الأجنبية يوما لغة التعليم والتعامل الرسمى فى مصر والسودان والعراق وفلسطين.

وعندما مكنوا لهذا المخطط بإنشاء المدارس التبشيرية صرفا للأمة عن لغتها وهى السبيل إلى فهم كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ.

لقد كانت اللغة العربية عونا على فهم كثير من الأحكام... ووضع كثير من القواعد:

على سبيل المثال:

فالباء مثلا: لفظ مشترك وضع لمعنيين: التبعيض والإلصاق.

فإذا قال الحق تعالى: ﴿**فامسحوا برءوسكم**﴾ فإن الأحناف يقولون: الباء للتبعيض.. وعلى هذا فيكفى مسح البعض.. وهو الربع أخذا من السنة العملية...

واعتبرها الشافعية للإلصاق فقالوا: لابد من مسح الكل.

وقد تأدى فقدان الحاسة اللغوية إلى كثير من الخلافات فى مجال الدعوة:

فقصور الباع فى اللغة. وغياب الذهن اللماح. والقلب المفتوح. حدا بالبعض إلى اتخاذ مواقف متشددة..

وقد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الشباب حفظ من سنته ﷺ: أنه لم يضع لبنة على لبنة.. ففهموا ذلك حرفيا وثاروا على كل مظاهر البناء والرفاهية المباحة مع أن المقصود هو النهى عن التطاول فى البنيان تفاخرا..

ومثال آخر: فقد عرفوا من سير بعض الصالحين أنه لم يكن يميز الدرهم من الدينار فأرادوا أن نستدبر المال ونعزف عن الدنيا. مع أن المقصود هو: جعل الدنيا فى اليد لا فى القلب.

يوم الجمعة

فى بيان أهمية يوم الجمعة يقول ﷺ:

«من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى. وزيادةُ ثلاثة أيام. «ومن مس الحصا فقد لغا»[1].

والروايات كلها متضافرة تشير إلى ما يلى:

١ ـ أهمية التطيب. . بعد الغسل.

٢ ـ المشى إلى المسجد بسكينة ووقار. .

٣ ـ لا يكفى مجرد الاستماع. . بل لابد من الإنصات إلى الحد الذى يكون مس الحصى لغوا. .

٤ ـ أ ـ قد تغفر له ذنوبه كلها. .

ب ـ أو كان أجر صلاة الجمعة مساويا لعمل مائتى سنة. .

جـ ـ أو يغفر له ما بين الجمعة والجمعة. . على الأقل.

وإذن ـ فالإسلام: يعد المسلم فى يوم الجمعة. . ليكون مستعدا لتلقى فيوضات ذلك اليوم المبارك. . وإلا. . فما أكثر الأيام التى تمر علينا. . وأفضلها: يوم الجمعة.

وما أكثر الذين يستقبلون يوم الجمعة. . لكن أفضلهم ذلك المسلم الذى يحسن استقباله حين يحسن له الوضوء. . ويحسن الاستماع أيضا. .

أما لماذا كان يوم الجمعة خير الأيام. . فلما جاء فى حديث آخر:

«فيه خُلق آدم. وفيه أُدْخل الجنة. وفيه أُخرج منها» رواه مسلم.

ويعنى ذلك: أنه اليوم الذى تحتفل فيه الإنسانية بعيد ميلادها. . فى شخص أبيها آدم عليه السلام. . بل هو اليوم الذى يُذكرِّها بما حفلت به قصة الخلق. .

(١) رواه مسلم فى رياض الصالحين برقم ١١٤٨.

ودخولُ الجنة والخروج منها.. من دروس وعبر.. تُسدِّد خطانا على الطريق الطويل.

ويمكن أن نقول أيضا: إن يوم الجمعة هو اليوم الذى تأخذ العبادة فيه أرفع مستوياتها:

ذلك أنه لكى تَتِمَّ العبادة كمالا لابد للمسلم من:

أ ـ عقلٍ سليم. يدرك حقيقة الإيمان.

ب ـ وجسم سليم تمكنه العبادة من تنفيذ مطالب هذا الإيمان.

جـ ـ ثم مالٍ.. هو عصب الحياة.

ولا يتم ذلك كله إلا بالاجتماع.. الذى به تتلاقح المواهب.. من أجل ذلك يمكّن الإسلام لمعنى الجماعة.. بالجمعة التى تتم فى أطهر مكان.. وأشرف زمان.. ثم هو مرتبط بفريضة عظيمة.. وخطبةٍ يسمعها كل من تجب عليه ومن لا تجب عليه.. فلها أكبرُ جمهور يستمع إليها.. وهى ناحية إعلامية تفرض احترامنا على الآخرين.

إنه باختصار: يوم اجتماع. وطهر. ونظافة. وإرشادٍ وتعليم.. فى بيت الله الذى قال عنه الباحث الفرنسى رينان: ما دخلت المسجدَ قط إلا تملكنى انفعال شديد هو ـ لو أفصحت عنه: نوع من الأسف على أننى لم أكن مسلما!!

أما سر الوضوء فقد تلخص لى من إرشادات علمائنا: أن المراد بإحسانه: إتمامه. واستيعابه الأعضاء.

فإذا تم ذلك تنامى الحساس بالطهر.. والوصولُ بالمتوضئ إلى ما يرجوه من صفاء ينجيه ـ بإذن الله تعالى ـ من كيد الشيطان.

١ ـ فهو تعبير عن الشوق إلى الله تعالى.

٢ ـ وتنمية شعور المراقبة له سبحانه.

٣ ـ ثم صلاحية تلقى فيوضات الحق.

٤ ـ وتعوّدٌ على طاعته عز وجل.

٥ ـ بقدر ما هو تدريب على كراهية المعاصى.

٦ ـ ومن تمَّ له ذلك فقد عاد ـ كما تشير الأحاديث ـ عاد طاهرا نقيا كيوم ولدته أمه.

خطيب الجمعة:

إذا كان ولابد من توفر عناصر التأثير فى شخصية الخطيب بعامة.. فإن خطيب الجمعة بالذات لابد أن يكون على أوفى معانى التأثير..

وكيف؟

أولا: يهيمن على موضوعه.. الذى يمتلك ناصيته متمكنا منه. راسخا فيه.

ثانيا: فى أسلوب مركز: ذلك بأن أسلوبه هو الإطار العام. الذى يضع فيه فكرته.

وإذن فليكن الأسلوب مركزا موجزا.. ولو أسهب.. لضاعت المعالم.. وتاه الخطيب عن قضيته.. ثم تاه من ورائه المستمعون.. الذين هام بهم الخطيب فى كل واد.. فلم يبق لهم معالم ينتهون إليها؟!

ألا إن الحماس وحده لا يكفى. لأن الحماس يذهب.. وتبقى الأفكار أبدا!!

*****

خطبة الجمعة

تتميز خطبة الجمعة بما لا يكون فى غيرها غالبا وهو آيات القرآن الكريم.. وما يتفرد به من خاصية التأثير..

لقد استمعت امرأة يوغسلافية إلى خطبة الجمعة يوما.. ومع أنها لا تتكلم العربية.. إلا أنها أبدت تأثيرها بمقاطع من كلام الخطيب لم تعرف سرها. ثم تبين من بعد أنها آيات القرآن الكريم التى تعرض لها الخطيب.

ولو توفر للخطيب الوقت والطاقة والموهبة.. ثم خرج بها عن القوالب الرتيبة.. لتكون علاجا لمشكلات حية على الطبيعة.. لو أنه فعل لكانت الخطبة وسيلة فعالة من وسائل التربية.. يغيِّر الله بها ما شاء أن يغير من أخلاق الناس.

وقد روى البخارى ما يؤكد الحرص على أن تكون الخطبة أداة من أدوات التغيير.. إلى الأفضل:

كان عمر رضى الله عنه قائما يخطب الجمعة. إذ دخل عثمان رضى الله عنه.

فناداه عمر: أى ساعة هذه - يلومه على تأخيره -.

فقال عثمان: إنى شُغِلتُ.. فلم أنقلب إلى أهلى.. حتى سمعت النداء.. فلم أزد أن توضأت.

فقال عمر: والوضوء أيضا؟! وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل؟!.

وهكذا.. يكون الحوار الهادئ.. الهادف.. والصحابة يستمعون.. ويتعلمون من حوار القمم.. كيف يتجاوز العلاقات الشخصية.. وكيف يغض الطرف عن قيمة الإنسان مهما علت.. ليأخذ حقه فى النقد والتوجيه..

ويتقبل عثمان هذا النقد الذى كان صادرا من قلب يهدى إلى الصديق عيوبه.. ورحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى.. ولا شك أن خطبة من هذا النوع لا يمكن أن تنسى!!

وإذن.. فلتكن للخطبة أهميتها لتحقق فى نفس الوقت آثارها.. ولن تكون كذلك إلا إذا التزم الخطيب بما ذهب إليه المجربون المحققون.. الناصحون بما يلى:

١ ـ البعد عن الافتعال.. ولا بأس من الانفعال!

٢ ـ ضرورة إعداد الخطبة إعدادا تاما..

٣ ـ ألا تكون محاضرة علمية باردة.

٤ ـ الإيجاز.

٥ ـ التجديد.. ضمانا لارتباط الجمهور بك.. ثم استقبال ضيوف جدد يضافون إلى رصيدك..

أهمية الصوت:

ذكرنا من أمر المرأة الأجنبية أنها وقفت تستمع إلى خطيب مسلم.. وكانت لا تفهم ما يقول.. وبعد انتهاء الرجل من خطبته.. تساءلت المرأة عن شىء غريب كان يتخلل كلام الخطيب.. فكان هذا الشىء هو الآيات القرآنية التى كان يستشهد بها..

ويعنى ذلك أن المرأة الأعجمية لم تكن تفهم معنى ما يقول.. ولكن تأثرت بمجرد الصوت..

وفى هذا المعنى يقول د. محمد دراز:

[انتبذ مكانا قصيا.. بعيدا.. ثم اسمع ما يتلو قارئ شجى الصوت.. دون أن تسمع الحروف.. فسوف تسمع لحنا مختلفا].

وليس شرطا فى التأثير أن يكون الصوت جهوريا. عالى النبرة. شديد الوقع. ليكون الخطيب مؤثرا.. وإلا.. فإن من اشترطوا علو الصوت.. اشترطوا أن يكون مقبولا.. المهم أن يكون الصوت منطلقا من القلب.. يحمل وجيبه.. ويردد خفقاته.. وما زلت أذكر ذلك الحوار الذى دار بين شابين راغبين فى احتراف الغناء..

قال أحدهما للآخر: ماذا قال لك المطرب الكبير لما استمع إليك.. قال: قال

لى: إن صوتك من عقلك.. لا من قلبك!.

وما أكثر الأصوات الهادرة.. لكن نصيبها من التأثير ضئيل ضئيل... ويكفى أن يخرج الصوت من الأعماق.. من القلب.. ليستقر هناك فى القلوب..

لقد تعلمنا من دروس الطبيعة: أن «أصبع الجلجنايت» إن تشعله بعود ثقاب.. فإنه يحترق هادئا.. مثل ورق الكرتون! لكنه.. إن فجرته بالجهاز الخاص.. فإنه يدمر كل شىء حوله..

كذلك الشعور الحار.. والقلب الخافق المعذب.. كل ذلك يجعل الصوت كأنما هو آت من وراء الغيب.. فيكون له سحر حلال.

من أجل ذلك كان الصوت نعمة.. وما أكثر ما ننسى من النعم إذا كثرت فى حياتنا.. ونحن مطالبون أن نشكرها بحسن استثمارها .

إذا كان للصوت هذا التأثير.. إيجابيًا.. فإن له سلبيات إذا أسيء استغلاله عبر مكبرات الصوت.. وقد حمى الإسلام مزاج الناس فحرص على راحتهم بوضع ضوابط وآداب يظل بها الصوت نعمة تذكر فتشكر:

كان ﷺ إذا ألقى السلام ألقاه بحيث يسمعه اليقظان.. ولا يستيقظ النائم.. وكان ﷺ يضع يده. أو ثوبا على فمه أثناء العطاس.. وكانت له متابعة لأصحابه حفاظا على آداب الصوت.

لما رفع أبو محذورة صوته بالأذان قال له: «**أما خشيت أن تنشق مريطاؤك**[1]».

وأمر الإسلام المرأة بخفض الصوت وجدّيته فى نفس الوقت.. ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ**﴾ [الأحزاب ٣٢].

وعند الدعاء ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف ٥٥].

وفى الصلاة ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ**﴾ [الاسراء ١١٠] وفى مجالس العلم ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ [الحجرات ٢].

وتنفيرا من الصوت الأجشّ يقول تعالى: ﴿**إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [لقمان ١٩].

---

(١) ما بين السرة إلى العانة.

إن الذى يرفع صوته تكلفا . . ليدل الناس على ما فى كيانه:

١ - فهو سوء أدب.

٢ - كأنما يخفى عيبا فيه.

٣ - يتعب نفسه. لاتصال الصوت بالقلب.

٤ - تتغير ملامحه إلى حد يثير الضحك.

يقول الدكتور حسين نصار:

وأعتقد أنه من ألزم الواجبات اللغوية علينا الاهتمام بعلم الأصوات، والحرص على إخراج الأصوات اللغوية من مخارجها الصحيحة، وإعطائها ما تستحق من صفات، فمن أكبر العيوب شناعة، ومن أعظمها صدماً للأذن العربية، تلك الأصوات التى نستمع إليها من بعض المذيعات خاصة.

وأنصح باستخدام المخترعات الحديثة من معامل لغوية وأشرطة واسطوانات وغيرها من أجل تعلم النطق السليم. وقد فعلت ذلك أقطار غير عربية، فوصلت إلى نتائج باهرة. وعيب كل العيب أن نجد من غير العرب من يتفوق على العربى فى سلامة النطق بالعربية دون أن يكون فيه عيب لسانى.

كما أنصح كل من يريد إتقان النطق بالعربية - مسلماً كان أو مسيحياً - بالاستماع إلى قراء القرآن، والمجيدين منهم خاصة، ومحاكاتهم فى النطق.

ثم أقترح الاستماع إلى أجهزة الإعلام ومتابعة الصحف والمجلات، والتقاط ما يقع فيها من أخطاء، وخاصة ما يشيع منها، وتصنيفه على أبواب النحو، والعناية بتدريس تلك الأبواب، وتمكين الدارسين من استخدامها استخداماً سليماً.

وأقترح أن تقوم مجامع اللغة العربية بدور نشط فى الاعتراض على الأخطاء الموجودة فى الإعلانات القائمة على جنبات الطرق الهامة تحت بصر كل عابر يتأثر بها. وأقترح ألا تسجل متاجر بأسماء غير عربية، فقد صارت المتاجر أو أغلبها غير عربية، بعد أن كانت عربية صرفة. بل وصل الأمر إلى ما هو أفدح، فحورت الأسماء العربية لتعطى مسحة غير عربية.

وأود أن أمنح اللغة المستخدمة فى الإذاعة والتليفزيون وقفة خاصة نظراً لخطورتهما، لأنهما يرددان تلك اللغة، فيطبعانها فى آذان النشء وعقولهم، فيعتقدون صحتها، ويصعب عليهم التخلص مما يقع فيها من أخطاء.

يختلف الإذاعيون فى النظر إلى اللغة التى يجب أن تستعملها الإذاعة. فيراها بعضهم ما ينبغى أن يتفوه به الناس، ولذلك يجب التمسك بالقواعد الموضوعة، والحرص على السلامة. ويراها بعضهم ما يتفوه به الناس فعلاً فى فترة من الفترات، لأن اللغة فى حركة وتغير دائمين.

ويقسم الإذاعيون اللغة إلى مستويات ثلاثة:

(١) الفصحى: هى العربية السليمة التى تستخدم فى الكتابة أصلاً، مهما أدخل عليها من تبسيط.

(٢) الدارجة: وهى العربية القريبة من السابقة، والمستخدمة فى الحديث أصلاً.

(٣) العامية: وهى اللغات العربية المحلية. ومهما يكن من أمر فإن الإذاعيين يقولون أن التجارب أثبتت أن الفصحى أطوع فى التعبير من بقية المستويات، وأدق في التصوير، وأقدر على التفنن فى الأساليب، مما يتسق وطبيعة البرامج الجادة، ذات المسحة الثقافية والإعلامية، وأن هناك مجالاً للتوسع فى استخدام الفصحى، خاصة بعد إقبال المستمعين على البرامج الفصيحة اللغة، ورغبتهم المتزايدة فى استخدام الفصحى لسهولة فهمها.

حسن المظهر:

إن المستمع يرى من الخطيب أول ما يرى: مظهره البادى للعين المجردة.

وهو لا يدرى عن مخبره شيئا.. وإلى أن يعرف المخبر.. فلابد أن يكون الخطيب مقبولا شكلا.. حتى إذا انسجم المستمع مع هذا الشكل.. كان ذلك مدخلا إلى ساحة الخطيب الذى سوف تظهر ملامح شخصيته مع الأيام رويدا.. وعندئذ تتوثق الصلة بين المرسل والمتلقى..

المقصود بالهيئة:

إنها الهيئة التى تؤكد الهيبة!

أرأيت إلى فتى يرتدى الملابس الرياضية؟ إن هذا اللون من اللباس يزين للابسه الخفة والنشاط والحركة.. فإذا ارتدى العمامة مثلا.. كان الوقار شيمته وجبلته!

وما دام الأمر كذلك.. فليس المقصود بالهيئة تلك «الأناقة» التى لا تليق إلا بالنساء.. وإنما المقصود:

أ ـ أن يلبس الخطيب أحسن ما عنده.

ب ـ أن يكون فى مكان مرتفع؛ ليراه الناس.. ويراهم كذلك.. يتكئ فى السلم على عصا.. وفى الحرب على قوس.. أى إنه يأخذ وضع الأستاذ.. لتخرج الكلمات من قلبه.. عن طريق لسانه.. لتستقر فى قلوب الناس.

وإذن فالمبالغة فى التزين من قبل الخطيب قد تجىء بأثر عكسى.. نظرا لحساسية موقفه التى تفرض عليه الالتزام بما يحضّن عليه من قيم نبيلة..

وهذا هو الفارق بين الخطيب وغيره من المتحدثين: فالمذيع فى «التلفاز» مثلا.. يجيئك بالأخبار التى تهمك.. ومهما كان أنيقا متكلفا فأنت مضطر إلى متابعته لأن غريزة حب الاستطلاع تفرض عليك التنازل عن بعض ما يعجبك.. ما دمت أنت المحتاج إلى المذيع؟! وهو مستغن عنك!!

أما الخطيب.. فهو المحتاج إليك...إنه يدعوك لتكون مثله.. ولكى تتابعه لابد أن يكون بسيطا بريئا من التكلف.. على غاية ما يكون الوقار وإلا نفر الصيد!!

ألا وإن الصلة بين الخطيب ومستمعيه لتتحدد على أساس ما تنقله الحواس من صور: فالمستمع يرى الخطيب بعينيه.. قبل أن يسمعه بأذنيه.

وإذ يقول الشاعر:

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

فإنما يجعل التأثر الحادث عن طريق الأذن استثناء من القاعدة التى تؤكد سبق العين فى هذا المضمار.. لأنها ترى.. ثم تحدد صلتها الأولية بمن تراه وما تراه على أساس ما يرتسم فى اللوح الحساس.. عن طريق العين فى كل حين.. وعن طريق الأذن.. أحيانا.

وما أكثر المشاهد القرآنية المعروضة على البصر.. ليراها ويتملاها. وصولا إلى الإيمان بخالقها سبحانه وتعالى.. وربما كان لسان حالها أبلغ فى الدلالة على عظمته سبحانه من لسان المقال.

فإذا ما طبقنا هذه القاعدة على الخطيب جاز لنا أن نقول: إن حسن مظهر الخطيب أحد الأسباب المعينة على التأثير.. حين يراه المستمع فى صورة ترتاح لها العين قبل أن يبدأ حديثه وحينئذ يعيره انتباهه مستوعبا ذلك الحديث.

[استئناس]

فإذا دل على أهمية الشارة البادية ما رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه. قال: «**بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ. فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ:الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرنى عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرنى عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرنى عن الساعة قال: ما المسئول عنها بأعلم من**

السائل. قال فأخبرنى عن أماراتها قال:أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان قال: ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى: يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1] .

(والحكمة فى مجىء جبريل عليه السلام بهذه الهيئة الحسنة: من شدة بياض الثياب. وشدة سواد الشعر. المستغربة من جهة أنه مع وجاهته غير معروف لهم. وليس عليه آثار السفر.

ليعظم اتجاههم إليه. وإصغاؤكم لما يقول. ويقال له. فإن النفوس أشد مراقبة للعظيم. وأعظم تطلعاً للأمر المستغرب. وبذلك يتمكن فى نفوسهم ما يدور بينهما عليهما الصلاة والسلام من سؤال وجواب).

أهمية الهيئة:

يقرر البصراء بفن الخطابة أهمية الهيئة فى التمكين للمعانى فى قلوب المستمعين.

إن البلاغة ليست فى اختيار الألفاظ.. لكنها كذلك فى الصوت.. والملامح.. وحركة العين: وفى العيون تقرأ: الرجاء.. الأمر.. السرور.. اليأس.. الحزن.. السخرية.. الاحتقار.. الغضب.. الحب..

وتعبر حركة العين عن القلق مثلا: بإغماضها.. وعن الاشمئزاز: بإدارتها يمنة ويسرة..

فإذا كنت تدعو: رفعتها إلى السماء. وفى وقت الشدة: أثبتها فى مكانها.. ولحظة الفرح: تزداد بريقاً ولمعاناً. وفى ساعة العار والحيرة.. تخفضها إلى الأرض.

كما وأن الوجه بملامحه يوحى إليك بمعانى: الشباب.. والهرم.. والصحة.. والمرض.. والألم.. والقوة.. ففى حالة البهجة ترتفع خطوط الوجه

---

(١) رواه مسلم. صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان ـ باب تعريف الإسلام والإيمان وأمارات الساعة جـ١ صـ١٥٧ ـ ١٦٠. ط. حجازى.

إلى أعلى. . وفى وقت الألم. . تنحدر إلى أسفل. .

وإنك لتقرأ الخطبة مكتوبة. . فلا تجد فيها ما يجعل قائلها خطيباً. . والسبب. . الهيئة. . والأداء. . والصوت. . والتى لا يتم بها التأثير إلا إذا كان مجموع الهيئة مطابقاً للمعنى.

وينبغى أن يكون مفهوماً أن لبعض الخطباء قدرة على التأثير وإن لم تكن هيئتهم مساعدة على ذلك.

إن للهيئة كما قلنا تأثيرها. . لكن ذلك لا يغض من قدرة بعض الأفذاذ على النفاذ إلى قلوب المستمعين مهما كان مشهدهم دميماً. .

وقد قال بعضهم فى هذا المعنى لرجل: تكلم. . حتى أراك. . فجمال السحنة وحده لا يكفى. . وإلا فقد كان «ميرابو». خطيب الثورة الفرنسية دميماً. . ولكنه صار بكلامه. . وسيما!. لقد كان دميماً حقاً. . ولكنه إذا تكلم أسكت. لا يحس المستمع بأنه ناقل إليه أفكار غيره. ولكنه يشعر بقلبه يفيض بالمعانى فيضاناً. .

وكان على ما قاله العربى وقد سئل. . لماذا كانت المراثى أجمل أشعاركم فقال: لأنا نقولها. . وقلوبنا تحترق. .

وإذا انفعل القلب بالمعنى. . بل واحترق به من الداخل. . فلا تسل عن الشارة حينئذ ولا عن الإشارة!

وإذا حرم الخطيب يوماً من الألوان الجاذبة. . والمظهر الملفت فإن فيما يقدمه ألوانا من الفن تأسرك من حيث لا تحتسب. . إنه يقدم إليك الجديد دائماً. . ومن ثم تظل أسيره. . وهو بأسلوبه. . يقودك إلى واحة راضية. . تستشعر فيها الأمان. .

وما أشبه بعض الخطباء بالجدول الجارى. . إن فيه جمالا. . وإن بعضهم كالنافورة المندفعة. . وإن فيها أيضاً لجمالا. .

ولكن الخطيب الناجح هو الذى يبدو أمامك جديداً دائماً. . يقدم لك الغذاء المناسب. . وبالقدر المناسب. . فإذا أنت منه على مائدة حافلة بأطايب الطعام. لا تملها أبداً. .

يقول الشيخ محمد المهدى: والنظر يفعل فى القلب كما يفعل الكلام فى السمع... فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية. ألا ترى أن معاوية لما رأى النخار مرتديا عباءة رثة أنكر مكانه وهيئته. حتى اضطر النخار إلى أن يقول: إن العباءة لا تكلمك. إنما يكلمك من فيها[1].

وعندما ذهب أحد العلماء إلى حفل غير ملتزم بملابس خاصه واعترض عليه فى ذلك قال: إذا كنتم تريدون الثوب الرسمى.. فها هو ذا..

وإذا كنتم تريدونى.. فها أنذا بين أيديكم!

ذلكم هو النظر ورد فعله فى قلوب المشاهدين.. من أجل ذلك كان العربى إذا أراد أن يخطب اعتجر عمامته - أى لبس العمامة الكبيرة. حتى إذا رآها الحاضرون أحسوا برهبة وخشوع يساعدان على الإذعان والقبول لما يقول.

ولا نقصد بذلك أن يتكلف الخطيب ليبدو وكأنه فى سباق مع الآخرين ينسيه رسالته الكبرى.

ولكننا ننبه فقط إلى ما للمظهر الحسن من آثار تنقلها العين الباصرة إلى محل الإقناع والإذعان.. العقل والقلب معا.

ولما رأى النعمان بن المنذر ضمرة بن ضمة. وكان دميماً فقال له: (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه).

فأجاب ضمرة: إن الرجال.. لا تكال بالمكيال!

وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه

[إشارة قرآنية]

عندما انتزع الوحى محمداً ﷺ من فراشه بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

رسم له الحق تعالى فى نفس اللحظة طريقه الواصل به إلى قلوب الناس ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ تكبيراً تستعلى به فوق المطامع.. وتستعين به على مغارم البلاغ..

---

(١) الخطابة: ٥٨.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾.

وإذا كان هجران الرجز مما يعين الناس على الإيمان به.. فإن تطهير الثوب أمر يتعلق بمظهره العام المتصل بالرسالة.

وتأمل كيف أمر بتطهير الثوب فى أحرج اللحظات. وما ذلك إلا لأن الداعية الطاهر المطهر.. تستقبله العيون بالترحاب.. بمقدار ما تشم منه ريحاً طيباً هو أثر من آثار هذه الطهارة.

وهكذا التزم علماؤنا الأولون لما تعطروا وتطهروا وهم يواجهون الناس مفتين أو معلمين.

جاء فى كتاب القاسمى (ص٢٣٤):

على المحدث إذا أراد حضور مجلس التحديث أن يتطهر بغسل أو وضوء ويتطيب ويتبخر. ويستاك. كما ذكره ابن السمعانى. ويسرح لحيته.

ويجلس فى صدر مجلسه متمكناً فى جلوسه بوقار وهيبة.

ولا يعنى ذلك أن تكون للصورة البادية أولوية فى عملية الإقناع والاستمالة - على ما لها من أهمية كما قلنا.

وإلا.. فإن القامة المديدة.. الضخمة لا تتكفل وحدها بالتأثير.. ولابد لصاحب هذا القوام من طيب الكلام!

إن أفكاره.. ومنطقه يجب أن يكونا فى نفس الاتجاه وعلى نفس المستوى.. ضخامة وعلوا!

فإذا كانت الأفكار تافهة هابطة.. وكانت الكلمات متناثرة غير مترابطة ولا منسقة.. فلن يغنى القوام المشوق شيئاً!!.

ويصبح الأمر على ما يقوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

وقد يبدو لك المتحدث ضريرا.. أو صغير الحجم مثلا - فتزور عنه العيون أولا.. حتى إذا تكلم فتحت له القلوب على مصاريعها.. لأن الفكرة العميقة.. والعرض الشائق سدا معا هذا النقص. وكذلك دافع الرجل عن نفسه أمام معاوية.

ودافع «ضمرة» أيضاً عن نفسه أمام النعمان.. بأن المهم هو: القلب الموصول بالحق.. المؤمن بالفكرة.. واللسان القادر على قوة التصوير والتأثير.

وقديماً قال المتحدث الضرير معتزا بنفسه.

يقولون: الضرير.. فقلت كـــلا ... بلـــى والله أبصـــــر مـــن بصير

ســـــواد العـــين زار بياض قلبـي ... ليجـــتمعا علـــى فهـــم الأمـــور

وعلى أثره قال الرجل المغمور فى زحمة المشهورين المرموقين:

إلا يكن عظمى طويلا.. فإننـــي ... له بالخـــصال الصالحــــات وصول

إذا كنت فى القوم الطوال علوتهم ... بعارفــــة.. حتى يقـال طويــــل

اللازمـــة:

فى معرض الحديث عن تأثر العين بما ترى نذكر موقف المرحوم مصطفى كامل.. فقد ظهر فى مناسبة قومية أمام الجمهور.. ولم يتحرك.. ولم يتكلم أيضاً.. ولكن دموعه تحدرت من عينيه.. وانفجرت الجموع هادرة متجاوبة بعد أن تأثرت بما رأت أبلغ التأثر.

وإذا كان للعين هذا الأثر فإن للأذن دوراً مماثلا إزاء ما تسمعه. وإذا.. فدور الخطيب يفرض عليه تجنب ما يؤذى عين المستمع وأذنه.

ونعنى بذلك ما يسمى باللازمة.. من حركة.. أو كلمة معينة.. أو جملة بذاتها يكثر ترددها.. مثل: فى الواقع.. فى الحقيقة..

وقد ينتهزها بعض الظرفاء أو الجبناء فرصة للتشويش على نحو يترك آثاره على جو الخطبة العام..

وقد حدث أن مفتشا بالمعاهد الدينية كان يزيل تقريره عن المدرس دائماً بعبارة: بيد أنه - أى المدرس - كان كذا!!

وصار ذلك لازمة له استحق بها بجدارة أن يسمى بما سماه به بعض الظرفاء: وصل الشيخ: بيد أنه!!

وإذا تنشأ اللازمة: حركية أو قولية بالتكرار لتصير عادة.. فإننا أيضاً بتكرار التخلص منها نستطيع أن نزايلها إلى وضع يكون مقبولا.

الإشارات:

تساعد الإشارة على إيضاح المعنى. إلى جانب أخواتها من وسائل البيان. والتى حصرها الجاحظ فى خمس: اللفظ...اللحظ...الإشارة..والعقد. والحالة الدالة)

[الإشارة فى القرآن الكريم]:

ورد ذكر الإشارة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى حكاية عن مريم ابنة عمران: ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ [مريم: ٢].

فانظر كيف ارتاب القوم فى أمرها. واستنكروا موقفها. وقالوا ما قالوا معرضين بشرفها. ذاهبين إلى الطعن فى كرامتها. وهو أعظم ما يصيب المرأة فى حياتها... ثم انظر كيف أمرها الله تعالى بالصمت. ولم يكن لها من مخرج إلا أنها: «أشارت إليه» فبلغت بالإشارة ما لو أنها تكلمت لما نطق اللسان بمعنى الإشارة.

فى السنة المطهرة:

وقد استخدم رسول الله ﷺ الإشارة كما ورد فى حديث عن سهل بن سعد رضى الله عنه. عن النبى ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا**» وقال: بأصبعيه السبابة والوسطى[(١)]. رواه البخارى.

ويكفى دليلا أن أفصح الخلق عبر عما فى نفسه من معان جليلة بالإشارة.

وفى الأدب:

قال الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها   إشارة محــــزون ولم تتكـلم

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر العسقلانى كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيما. جـ١٣. صـ٤٣.. ط. مصطفى البابى الحلبى. ١٣٧٨هـ. ١٩٥٩ الأخيرة.

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً　　وأهـــلا وسهلا بالحـبيب المتيم

وقال شوقى:

وتعطلت لغة الكلام وخـاطبت　　عيناى فـــى لغة الـــهوى عيناك

يقوله العلماء: إن الإشارة لغة العالم وإنها لتحدث من التأثير ما لا يتم لأية لغة من لغات الناس.

وإنها لتساعد على تفريج الصدر الممتلئ هواء. فلا ينال الخطيب تعب.

شروط الإشارة:

١ـ ألا تمر من أمام جسم الخطيب.

٢ـ ألا تخفى وجهه.

٣ـ أن توافق المعنى فلا تكبر أو تصغر.

٤ـ أن تكون سريعة خاطفة. كلما كان الكلام ملتهبا.

٥ـ أن تسبق الكلام ولا تأتى بعده.

٦ـ إذا كان هناك معنيان.. فإن الإشارة تكون للمعنى الأخير. متدرجة مع الصوت.

من عيوب الإشارة:

١ـ الضعف: عندما تأتى مع المعنى ولا تدعمه.

٢ـ الإبهام.. عندما يحتد الخطيب بلا سبب. أو تكون الإشارة غير مطابقة للمعنى.

٣ـ المبالغة والإفراط بغير حساب.

فإذا لم تكن الإشارة على المستوى المطلوب توافقاً وانسجاماً..لم تحقق هدفها.. وحينئذ فلا يلومن الخطيب إلا نفسه.. لأنه حينئذ كرجل يكثر من الإشارة فى الظلمة.. ثم يتعجب كيف لا يراه الناس؟.

ويركز الجاحظ على الإشارة وأثرها فى الوصول بالمستمع إلى المقصود فيقول:

(الإشارة واللفظ شريكان. ونعم العون هى له. ونعم الترجمان هى عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ. وما تغنى عن الخط).

وتؤكد التجربة ما ذهب إليه الجاحظ:

فعندما تتحرك اليد حركة منسجمة مع المعنى المراد.. أو يهتز الجسم. أو الرأس. يصبح ذلك عوناً على الفهم.. بقدر ما يشيع من حيوية فى جو الموقف.

ولا يمكن هنا وضع قواعد ضابطة... لأن الأمر متروك للفطرة التى تستجيب للموقف.. ثم تمتلك زمامه بالكلمة والصوت. والحركة.

وقد تشاهد المستمعين مبهورين بهذا الانفعال البادى على الخطيب فيما يشبه أن يكون معركة حقيقية على الطبيعة.

فى الوقت الذى لا يحقق الوقار الزائد غايته.. وقصاراه: أن يزود المستمع بالأفكار التى ترسب فى قاع النفوس. لكنها لا تنشئ خلقاً. ولا تغير عادة.

الذوق المصرى ـ والذوق الإنجليزى[1]:

يقول المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة:

(إن الذوق العام المصرى، من ناحية الخطابة. يشبه الذوق الإنجليزى من حيث الرغبة فى قلة الإشارات. وألا يكون هناك تكلف فيها.

فإن ذلك ليس مألوفاً من كبار الخطباء عندنا. وهم الذين يوجهون الذوق العام فى متجهاته).

ويبدو أن الأستاذ محمد زكى عبد القادر من المؤمنين بهذا التشابه إلى حد حمله على انتقاد فضيلة الشيخ الشعراوى فى كثرة إشاراته ونصحه أن يقلل منها.

ولم يكد هذا الرأى ينشر فى صحيفة الأخبار حتى انهالت عليه الرسائل ترد نقده وتفنده. فى غضبة تعكس الذوق المصرى الحقيقى. والذى يضيق ذرعاً بالتكلف لكن إشارات الشيخ الشعراوى .إنما هى تعبير حقيقى عن معان يتمثلها وينفعل بها. ولا تتم فائدة الكلام إلا بها!

(١) راجع البيان والتبيين.

والحق أن انحاءة الشيخ. ونظرات عينيه.. وحركات يده.. وجسمه.. تثير ما قد يكون كامنا فى كيان المستمع.. ليتلقى عنه بكل طاقة الإدراك.

ولو أن الشيخ يلقى أحاديث فى وقار المتبتلين. لبقيت فى حديثه زوايا دقيقة لا تنكشف خفاياها... ويبقى المستمع فى حاجة إلى الإشارة المضيئة!

ويكفى ملاحظة أن الشيخ أحياناً يواصل حديثه.. ثم لا يسعفه اللسان بالكلمة فى نهاية المقطع.. فتتولى إشارة يده.. وإيماءة رأسه.. إتمام الحديث!

وإذا عرفنا أن (مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت) كما يقول الجاحظ. زاد - إيماننا بجدواها. شريطة أن تبرأ من التكلف... بمعنى ألا تكون الإشارة لازمة مع كل لفظ وحال... فإن صارت كذلك انقلبت حجة عليه. بدل أن تكون حجة له.

رأى أبى شمر:

ذهب «أبو شمر» وهو أحد أئمة القدرية المرجئة إلى تقرير أنه: ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره... يقصد الإشارة؛ لأنه كان إذا تكلم لا يحرك يديه ولا منكبيه. ولم يكن يقلب عينيه.

وذات يوم تحاج هو و«إبراهيم النظام» فأفحمه إبراهيم بالحجة. وزاد عليها بأن حرك يديه. وحبا إليه حتى أخذ بيديه!!

رأى علم النفس:

يرى بعض الباحثين ضروة أن يقف الخطيب فى وقار بلا حركة تذهب بمقصود خطبته.

وحجتهم فى ذلك: أن الخطيب إذا وقف ساكناً. كانت الكلمة وحدها هى التى تؤثر فى الناس وهنا يتبين مقدار فصاحة كلمته:

فإن كانت الكلمة فصيحة تؤثر فى الناس. وتدخل إلى قلوبهم. أما إذا - كانت الكلمة ضعيفة. أو قليلة البيان. فإن صاحبها يستعين عليها بالحركة وبالإشارة وبالقيام والقعود. وما إلى ذلك.

لكن علماء النفس المحدثين فصلوا فى ذلك مؤخراً وقالوا: من الأفضل أن

يتحرك الخطيب. وذلك رعاية لأمر جوهرى أخذوه من عيون المشاهدين والمستمعين.. فقالوا: إن عيون المستمعين هى أول ما يتعلق بالخطيب قبل أن يخطب يعنى أول ما يقع الخطيب فى النفوس. يدخل عن طريق تعلق أبصار الناس. فعندما يأتينا محاضر أو محدث فأول ما نرى منه مظهره وسمته فإذا وقف أمامنا كالجهاز الآلى لا يتحرك بدأت العيون تنصرف عنه وخاصة إذا درسنا طبائع الجماعات وعرفنا أن للجماعة طبيعة تختلف عن طبيعة الفرد.

الفرد منا يستطيع أن يجلس فى مكتبه ساعات وساعات يقرأ ويكتب ويعمل فى جد ومثابرة لا يمل ولا يتحرك لكن هذا الإنسان إذا كان فى جماعة اختلفت طبيعته وتغيرت شخصيته فيصبح عضواً أو جزءاً من هذه الجماعة يتأثر بها عن طريق «العدوى» بدليل أن الجالسين فى الصف الأول فى أى اجتماع إذا صفقوا تبعهم كل من فى القاعة.

ومن طبيعة الجماعة الملل.. لماذا؟ لأن الجماعة عادة لا تفكر بعقولها وإنما تفكر بعواطفها ومشاعرها.. ومشاعر الجماهير عادة قلَّب حوّل لا تطيق صبراً على شىء لمدة طويلة ولذا تحب الجماعة أن تغير المواقف وتتغير لها المواقف ولهذا فضلوا فى الخطيب أن يستخدم الكلمة المسموعة ثم يساعدها بالإشارة والحركة وما إلى ذلك.

وكان العرب الأقدمون إذا قام الرجل ليخطب اعتمد على عصا أو على مخصرة يقف بها أمام الناس ثم تحولت هذه الأمور فى العصور المتأخرة إلى رمز.. حيث يقف الخطيب على المنبر وبيده صورة سيف خشبى يضعه فى يده ليساعده على الاتزان ويساعده كذلك على ضبط أفكاره فلا يضل ولا تتشتت[1].

الخطيب المطبوع و الخطيب المصنوع:

لا تستطيع ـ لمجرد أنك تجيد صناعة الكلام ـ أن تستحوذ على مشاعر الجماهير. لابد مع هذا. وقبل هذا من الاستعداد الفطرى.

هذه الصلاحية التى ينتقل بها حديثك من القلب إلى القلب. بحيث يشعر

---

(١) مجلة رسالة المسجد ربيع الأول ١٤٠٢هـ.

المستمع كما يقول إقبال برائحة قلب الخطيب المحترق بآلام الناس.. وروحه المتطلعة إلى إنقاذهم. إنه حينئذ لا ينتزع الدلاء من قاع بئر عميق ... لكنه - عندما يتحدث - فكأنما يفيض بماء عذب سلسال. بلا تكلف أو معاناة.

إن الخطيب - كما يقول باحث غربى - لا يتحدث إلى عقول السامعين فحسب. بل يحاول أن ينفذ كذلك إلى عواطفهم.. ومن ثم إلى إرادتهم.. فإذا لم تواته طبيعة مستعدة لم يستطع أن يواصل مسيره إلى أعماق الإنسان.

العربى - فارس الحلبة:

أجاب صحار بن عياش معاوية لما سأله: ما هذه البلاغة التى فيكم؟

قال صحار: شىء تجيش به صدورنا. فتقذفه على ألسنتنا![1].

وأنت ترى هنا البيان فطرة وسليقة فى كيان العربى: سجية تلك فيهم غير محدثة..

إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فما هو إلا أن يصرف همه للكلام فإذا اللسان يتحرك معبراً عن عواطفه ومعانيه بلا تعمل أو تكلف..

إنه فقط يتجه إلى الكلام. فإذا به ينثال انثيالا.

فى الوقت الذى تمتلئ فيه أدمغة أناس بأفكار شتى. فإذا راحوا يترجمونها أعجزهم التعبير. فليست لديهم طاقة من الفطرة تساعدهم على قوة التصوير والتأثير. وإنما هى أفكار باردة لا تنقل المستمع من رأى إلى رأى...ومن السلب.. إلى الإيجاب..

كل الناس يعرف أن الشجاعة أفضل من الجبن.. وكلهم يعرف أن الكرم أجدى من البخل.. ولكن..! ولكن تبقى هذه المعانى معرفة تعشش فى الدماغ.. ولا تحرك الإنسان إلى الشجاعة ولا إلى الكرم خطوة واحدة!..

ثم يتقدم الخطيب بدقة تصويره.. وحسن تعبيره المشحون بالعاطفة والحماس.

---

(١) فن الخطابة للحوفى ١٤.

ينجح فى نقل الشحنة إلى المستمع.. وإذا بهذا المستمتع ينطلق إلى ساحة المعركة ويتجاوز معرفة الشجاعة بعقله.. لتتحول إلى رغبة فى قلبه.. بل رغبة ملحة تحركه من سباته.. وتبعثه من مرقده. فإذا هو منطلق إلى الساحة ليموت بطلا.. أو شهيداً.

وما يقوله صحار بن عياش ترجمة حية للطبيعة العربية التى وصفها الجاحظ بقوله: إن كل شيء للعرب.. فهو بديهة وارتجال.. وكأنه إلهام... وليست هناك معاناة ولا مكابدة.. ولا إجالة فكرة.. ولا استعانة.

وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام.. وإلى رجز يوم الخصام.. أو حين يمتح[1] على رأس بئر. أو يحدو ببعير... أو عند المقارعة.. أو عند صرع أو فى حرب. فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذاهب وإلى العمود الذى إليه يقصد.. فتأتيه المعانى إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا... ثم لا يقيده على نفسه.. ولا يدرسه أحداً من ولده.

وكانوا أميين لا يكتبون.. مطبوعين لا ينتحلون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر. وهم عليه أقدر وأقهر.

وكل واحد فى نفسه أنطق. ومكانه من البيان أرفع.. وخطباؤهم أوجز. والكلام عليهم أسهل. وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ. أو يحتاجوا إلى تدارس. وليس هم كمن حفظ علم غيره. واحتذى على كلام من كان قبله[2].

لقد كانت الطبيعة الصافية في عين العربى.. والسماء المنبسطة.. والأفق الواسع المتراحب.. من العوامل التى فتحت الطريق أمام ملكاته لتنطلق على سجيتها.. ومنها ملكة التخيل.. وقوته أيضا..

(فإذا كانوا ـ العرب ـ لم يبتكروا ولم يرق على أيديهم فن عظيم خاص بهم فإن طبيعتهم الفنية قد وجدت أحسن تعبير عنها فى وسيلة واحدة هى الكلام.

وقد لا تجد شعبا يتسلكه الإعجاب بالقول الجميل. ويحركه الكلام. كالعرب

---

(١) المتح: الاستقاء يقال: متحت الدلو من باب نفع إذا استخرجتها.

(٢) البيان والتبيين ٣ـ ٢٦٢٠ عن فن الخطابة للحوفى

وقل أن تجد لغة تستطيع أن تسيطر على عقول أهلها. وتترك فى نفوسهم أثرا لا يقاوم كاللغة العربية.

وإن جماهير المستمعين اليوم فى بغداد ودمشق والقاهرة لتستثيرهم القصيدة الملقاة إلى أبعد حد. رغم ما يحيط بها من غموض عليهم. أو الخطبة الفصيحة المرتجلة. وإن كانوا لا يفهمون إلا بعضا منها.

وإن السجع والقافية والموسيقى. لتترك فى نفوسهم ذلك الأثر الذى يعبرون عنه بالسحر الحلال «تاريخ العرب. فيليب حتى ١٠٧ـ ١٠٨».

لقد كان العربى حرا كطيره ووحشه وهوائه. . .أبيا متطرفا فى إبائه. رحب الخيال كأديمه وصحرائه. . .صافى القريحة صفاء جوه وسمائه. . .متحمسا عصبى المزاج. بما يستتبعه ذلك من ذكاء يظهر فى لغته. . .ويتجلى فى حضور بديهته.

وكانت العرب تعيش بنجوة من مشاغل الحضارة. . تواجه الطبيعة متفرغة للتأمل فيها. والنظر فى ملكوتها (الخطابة٤٨) د. محمد درويش.

نموذج:

وقف إبان بن ثعلب على أعرابية توصى ولدها المسافر.

قالت: أى بنى: قف أمنحك وصيتى. وبالله التوفيق.

أى بنى: إياك والنميمة. فإنها تزرع الضغينة. وتفرق بين المحبين.

وإياك والتعرض للعيوب. فتتخذ غرضا. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام. . .وقلما اعتورت السهام غرضا إلا كلمته حتى يتهيئ ما اشتد من قوته.

وإياك والجود بدينك. والبخل بما لك. . .وإذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك. ولا تهزز لئيما فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها.

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك. فاعمل به. . .وما استقبحت من غيرك. فاجتنبه. . .فإن المرء لا يرى عيب نفسه.

قال إبان: ثم أمسكت الأعرابية. فدنوت منها. فقالت: أو أعجبك كلام العرب يا حضرى؟!

قال: نعم... قالت: الغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم... ومن جمع الحلم والسخاء. فقد أجاد الحله: ربطتها[1].. وسربالها.

وقد حق لأبان بن تغلب.. وهو الحضرى - أن يعجب بالإعجاز فى هذا الإيجاز! وكيف جمعت الأعرابية بنت البادية فضائل الأعمال والعقائد كلها فى هذه السطور القلال.

لقد حذرت ولدها من النميمة التى تقطع ما أمر الله به أن يوصل.. مبينة ضرورة أن يصفى نفسه من عيوب تجعله غرضاً لسهام لابد أنها واصلة إليه يوما.. وكيف يستمسك بدينه فلا يبيعه فى أسواق الطمع.. وليكن أحرص عليه من ماله. ثم رسمت له منهج المعاملة مع الآخرين.

فليفتح بصره على فضائل الآخرين وسوآتهم.. وليتصف بالأولى.. بقدر فراره من الأخرى.. ضانا بكرامته أن يبذلها تحت أقدام لئيم لا يقدر الإنسانية قدرها.. وليقصد الكرام العارفين بقدر الإنسان.

ولم تنس الأعرابية أن تلقن الحضرى درساً فى الأخلاق فلخصت له أسباب فساد الجماعات فى الغدر... وجمعت أسباب الصلاح فى الحلم. والسخاء.

هناك خطيب يزحم الجو بكلام غير موصول بطبيعة مواتية.. فإذا هو: جعجعة.. ولا أرى طحنا..

إنه كما يقول الإنجليز: خطيب يتصف بالقدرة على قول.. لا شيء؟!

ولتستمع إلى الأستاذ البهى الخولى يحكى لنا تجربة ميز بها بين الدخيل والأصيل.

يقول رحمة الله عليه:

(هناك خطيب يكلمك فى الوطن. ورضا الوطن. ويطلب إليك أن تبذل من أجل وطنك. وتعمل لوجهه. تتعلم العلم لرفعته أو تفعل كذا وكذا فى سبيله.

---

(١) الربطة: الملاءة ليست قطعتين أو كل ثوب رقيق. والسربال: ما يلبس من قميص أو درع.

فإذا كنت خالياً من كل مؤثر يجعلك تتملك الخطيب إتقاء شره.. أو ابتغاء بره.. بدا لك الخطيب مخلوقاً جافاً تافهاً.

إذا حرك مشاعر الجماهير.. فإنه لا يثير إلا ما هو ظاهرى فقط مما لا يتصل بعقل رصين.. أو عاطفة تذهب إلى المكنونات الكريمة فى أعماق الفطر الكريمة).

ثم يقول كاشفاً عن معدن آخر.. مستعد بطبيعته.. موصول بالحق الذى لا يحابى ولا يتلون..

(يغوص إلى أعماق النفوس.. فيحركها إلى أشرف الغايات وينبه فيها أثمن المشاعر ويبعث منها أقوى الهمم والعزائم.

فيظل السامع يسمع فى سكون. ويميد فى هدوء. ويتجدد فى لذة. ويحيا فى قوة.. إن كل إنسان كائناً ما كان ينطوى على مناجم إلهية من العبقريات العظيمة وإمداد من العزائم والهمم وكنوز من الفضائل التى تنضر وجه الحياة. وتزدان بها الإنسانية... ولا سبيل إلى إثارة هذه المناجم النفيسة إلا بذكر الله العلى الكبير).

ولن يضع الله مفتاح هذه المغاليق إلا فى يد مستعدة فعلا لأداء ذلك الدور.. ثم تنمى ذلك الاستعداد بما يجعله أقدر على إثارة ما فى النفس من طاقات.

إن الحق تبارك وتعالى لم يحرم أحداً من فضله وكرمه.. وقد وزع الاستعدادات والقدرات على الناس ليتكاملوا.. وبهذا التكامل تستقيم الأمور..

وعن اختلاف الطبائع وأهمية ملاحظتها فى مجال الدعوة. يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين:

(تؤدى الدعوة باللسان تارة. وبالقلم تارة أخرى. ولكل منهما مقام هو أحق به من الآخر.

ففى الناس من يسعده لسانه فيعبر كيف يشاء ويمسك القلم فلا يجده مطواعا...

وفى الناس من إذا نطق وقع فى كبوة.. وإذا كتب أبدع وبلغ ببيان ما يجول

فى ضميره الأمد الأقصى.

فينبغى للداعى أن يبصر فى نفسه. ويعرف من أى صنف هو. ثم يأخذ الناس بالطريق التى يركبها ذلولا.

فإذا كان الداعى طلق اللسان بليغ القلم.. راعى فى إرشاده حال المدعوين (والاستعداد عون له على ذلك):

فإن الناس طبقات:

وإذا استوى فى نظر الطبقة المستنيرة الخطيب البارع والكاتب الفائق فإن الخطب أسرع إلى فهم العامة. وأنهض بهم إلى ما تأمر أو تنهى)[1].

ويستطرد الكاتب فيحكى تجربته بما يجلى دور الخطيب المطبوع وأثره فى قلوب مستمعيه فيقول:

[ولشدة ما تؤثر الخطب فى نفوسهم ترى الرئيس المستبد يحنق على الخطباء أكثر مما يحنق على الكتاب. والدعوة بالكتابة أوسع جولة وأخلد أثرا.

ومن فوائدها إرشاد من لا يمكنك مخاطبته...وإرشاد المنحرفين عن السبيل مع البعد عن ساحتهم. والسلامة من أن يواجهك سفهاؤهم بالسخرية والأذى.

عنى الإسلام بالخطابة. فشرع الخطب أيام الجمع والأعياد ليقوم الخطيب فيهما بإرشاد يراعى فيه حال الأمة. فيقرع أسماعها بالموعظة الحسنة. ويستنهضها للأعمال الكافلة بعزها فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة.

ذهل كثير من الخطباء عن هذه الحكمة. فالتزموا لكل شهر خطبا معينة. يسردونها سردا. ولا ينظرون فيها إلى ما يقتضيه حال الناس فى التعليم أو التذكير.

وبصنيعهم هذا خرجوا بالخطب عن أن تكون طريق الدعوة إلى إصلاح]

ثم يبين الشيخ ما يمكن أن تبلغه الخطبة من القلوب عندما يجود بها استعداد مكين فيقول:

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح: ٣٦ - ٣٨.

(ويزيد فى حسن الخطبة ونفعها أن تكون من إنشاء الداعى ويكون نفعها أبلغ إذا استطاع أن يرتجلها ارتجالا.

فإن الأقوال التى ينزع معناها بنفسه، ويسبك عباراتها بطبعة. تكون أبلغ أثراً فى نفوس السامعين. وأملك لعواطفهم. من أقوال صنعت من قبل. فأخذ يحكى ألفاظها حرفاً فحرفا والأقوال المنشأة حال إلقائها تصدر عن انفعال نفسى. وقوة إرادة. فتنفذ فى نفس السامع بألفاظ جديدة. وهيئة غير مصطنعة.

ويمكنك أن تعرف مقدار انفعال الخطيب وقوة إرادته، مما تشاهده فى هيئته الظاهرة: من تبسم أو استعبار. وعبوسة جبين أو طلاقته. ورفع صوت أو خفضه. إلى ما يماثل هذا من الآثار التى تشاهدها على ظاهر الناقل أو المترجم لكلام غيره إلا أن يتكلفها).

خطيب الورقة

إذا توفرت للإنسان أسباب الكلام.. واستقر الاستعداد لمواجهة الجمهور فى نفسه.. كان ذلك ضماناً أكيداً تزحف به الحقائق الإسلامية من قلب إلى قلب.. وتثب من كيان إلى كيان.. لأن القاعدة أنه: لا يؤثر إلا المتأثر..

ولن تستحيل الأفكار دما يجرى فى عروق الخطيب إلا إذا مارس الحياة.. وذاق حلوها ومرها.. وعاش التجربة التى يحكيها.. عندئذ يمكنه أن ينقل الأفكار إلى الآخرين.. ينقلها بكل ما حولها من انفعالات وإيجابية تحمل على تنفيذها فى دنيا الواقع..

وخطيب الورقة محروم من هذا الموقف.. بعيد عن هذه الساحة الحافلة بالحركة والنشاط..

إن اللفظ.. والصوت.. والإشارة.. بل والهيئة.. كل أولئك عوامل تأثير لابد منها كى تحول المستمعين من وضع إلى وضع.. وتنقلهم من التلقى الرتيب.. لينهضوا مسارعين إلى ما دعوتهم إليه..

وخطيب الورقة.. بنبرته الرتيبة.. ووصفه الآلى لا يصل إلى ما ينبغى أن يكون:

١ـ إن صوته يمضى بالمستمع على نبرة واحدة.. تفرض عليه النوم أحياناً!

٢ـ مشغول بالنظر إلى ما خطه قلمه خشية الزلل.

٣ـ وإذن فلا تلتقى عينه بالمستمع.. الذى يحس بأن شخصاً آخر يحدثه غير هذا الخطيب الذى يراه.. ولذلك.. فلا رابطة بينهما جامعة.

٤ـ إذا دعت للاختصار ضرورة طارئة لا يستطيع ذلك.. لأنه مرتبط بالنص المكتوب.. وقد تكون الضرورة مما لا يمكن التساهل فيه.. وحينئذ يزيد الهوة اتساعاً..

٥ـ وقد تصل هذه الظروف الطارئة إلى حد تغيير موضوع الخطبة برمته.. بيد

أنه لا يستطيع!

ويترتب على ذلك: أن الناس فى واد.. وإمامهم فى واد!

إنهم مشغولون.. بالحدث الطارئ.. وقلوبهم وعقولهم مشحونة بصوره.. وألسنتهم تلاحقه بالتعليق.. بينما الخطيب.. يصرخ فى واد.. وينفخ فى رماد!

٦- لا ينشأ الولاء المطلوب بين القيادة والجند.. لأن الإحساس قوى بأن الخطيب ينقل تجربة غيره.. وإذن.. فلا فضل له.. إلا مجرد النقل.

٧- إن هيئة خطيب الورقة جامدة لا تتحرك.. وينعكس الجمود على الموقف كله سآمة وملالا.

وأين هذا من خطيب مطبوع.. يختار فكرة بسيطة.. ولكنها حية.. منتزعة من واقع الناس تجيب على ما فى رؤوسهم من أسئلة حولها تطلب الجواب.. وأنفس حائرة تنشد القرار..

فإذا أطل عليهم.. فعرض الفكرة ارتجالا.. كما أحس بها.. بأسلوبه هو وبصوته الذى يدور بين العلو والانخفاض والليونة والخشونة طبق ما يعبر عنه من معان.

وفى نفس الوقت.. تتحرك يداه.. بل وجسمه فى إطار من الوقار وبعيداً عن حركات الممثلين - وعينه التى تطل منها التجربة بكل أبعادها.. مستغرقة فى عيون الآخرين.

إن له فعل السحر فى قلوب الآخرين.. الذين يعيرونه أسماعهم وقلوبهم.. فإذا هم جميعاً وقد اندمجوا فى الموضوع.. يدورون فى فلك واحد.. ويسيرون بالتالى فى نفس الاتجاه الذى أراده الخطيب.. وإذا هم جميعاً واصلون إلى الحق فى موضوع الحديث.. ثم تتداعى ملكاتهم كأنما نشطت من عقال.. لتطبيق ما يقول.. ومن ثم يحدث التجاوب المنشود.. والذى يستتبع بالضرورة تحقق الثقة المتبادلة بين الإمام والمأموم.. إلى حد يجعل من توجيهاته ما يشبه القانون.. وينشأ بينهما نوع من المودة المشوبة بالإجلال والإكبار.. من جهة المأموم.. يقابلها لون من العطف والحنان.. فى قلب الإمام.. وبهذه الأخوة العميقة ينبعث

الطرفان على طريق الحق يناضلون عنه.. بل ويموتون فى سبيله.. وقد يموت ذلك الخطيب دون أن يخلف من ورائه كتباً تزخر بها المكتبات..

ولكنه يترك من التلاميذ أضعاف ما خلف غيره من كتب وأبحاث!..

والكتاب لن يلد كتابا.. ولكن التلميذ الناجح.. يؤلف أكثر من كتاب! تصير فى نفس الوقت رصيداً للراحل الذى حرث الأرض.. ووضع البذرة.. وسقاها ورعاها.

ثم غاب خلف أسوار الحياة.. ولكنه كالشمس.. تغيب.. وتبقى الأقمار بعدها.. تستمد منها الضياء.

وفى وصف ذلك الداعية يقول المرحوم الأستاذ البهى الخولى:

[إنه يجد مادة الكلام حاضرة فى قلبه وعصبه. دون رجوع إلى كتاب. فهو نفسه كتاب هذا الحق. وصحيفة تجاربه العملية. وفوق هذا فإن النفس التى صهرتها التجربة ومرارة التنفيذ.. تطل رائعة من خلال عينيه. وعضلات وجهه. وخطوط أساريره. وإشارات يده. ونور طلعته. فتتحدث إلى الناس بأفصح مما تتحدث به عبارته. بل إن نبرة الصوت ولهجة الحديث.. تبلغ من القلوب مالا يبلغه الحديث نفسه..

ودعنى أستشهد على غرضى بسيدنا رسول الله ﷺ: فقد كان يتحدث إلى من لا يعرفونه فيقولون: والله ما هذا بوجه كذاب، ولا صوت كذاب. ومعنى هذا أنهم تأثروا بالصوت والوجه. أكثر مما تأثروا باللفظ والعبارة][1].

ولا يختلف الوضع لو ألقى الخطيب بالورقة بعد أن يكون قد حفظها حفظاً.. ليلقيها.. كما وعاها!

فالإعداد الجيد هنا يحرم الخطيب أيضاً من مواكبة الأحداث الطارئة.. إلى درجة يشغل فكره بموضوعه ولا يشغله بما يهم الناس بين يديه.

فقد تدعو الحاجة إلى زيادة.. أو حذف. أو تبديل أو رد.. ولكن.. ليس إلى هذا من سبيل!

---

(١) تذكرة الدعاة ١٧٨

أما هذا الخطيب المطبوع المتحرر من عبودية النص.. فإنه قادر على التصدى لكل مفاجأة.. بما يناسبها من دفاع ومن ذلك ما روى.

خطب أبو جعفر المنصور فقال اتقوا الله! فقال رجل: أذكرك ما ذكرتنا به.

فقال أبو جعفر: سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله. وذكر به. وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه. فتأخذنى العزة بالإثم ﴿لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين﴾.

وما أنت؟ والتفت إلى الرجل فقال: والله ما الله أردت بها! ولكن ليقال: فلان. قال: .. فعوقب فصبر.

من ذكريات الماضى:

فرضت علينا طبيعة وظيفتنا كأزهريين أن نلقى بعض المحاضرات.. فوق دروسنا المقررة.

وألح صديق لى أن يعد محاضرة.. دون أن يكون له سابق عهد بمواجهة الناس.. ونصحته أول الأمر أن يتريث.. وأن يأخذ سبيله إلى الدعوة من أول السلم.. صاعداً إلى أعلى.. وأصر صديقى على خوض الغمرات.. وأشفقت عليه من معركة لم يأخذ لها عدتها من خبرة السنين.. لكنه جازف معتمداً على أنه سوف يحفظ المحاضرة حفظاً يقف به بين صفوف الخطباء!

وحان الوقت.. وجاء صاحبى إلى قاعة الحديث.. وجمهور كبير ينتظره هناك والأيدى على القلوب إشفاقاً عليه. وبدأ الحديث.. فطواه طياً.. وأفرغه فى حجور المستمعين ولم يضعه فى قلوبهم!! وكيف؟!

لقد ظل - طوال الحديث - معلقاً نظره بسقف المكان ولم ينظر إلى المستمعين مرة واحدة!

ومعنى ذلك.. أنه استغرق مع النص المحفوظ.. يستدعيه من الذاكرة الواعية ثم ينقله إلى المستمعين نقلا!!

فلم يشموا فى حديثه مجهودا له.. ولم يحسوا لحظة أنه يعنيهم بالكلام!! وكأنه إنسان مصاب بطول النظر.. يرى البعيد.. ولا يبصر القريب!

مفاجـأة :

وبعد أن انتهى من حديثه.. أو من تحديثه.. هب واحد من الحاضرين وسأل سؤالا. وغارت الأرض من تحت صاحبنا.. ولم يقو لا على النهوض ولا على الكلام.. وظل مندمجاً فى الدور.. أعنى شاخصاً ببصره إلى السماء.. لأن السؤال لم يكن فى المقرر كما نقول نحن الأزهريين!!

وأنقذت الموقف.. واستأذنت فى الإجابة.. التى إن شكلت سحابة سائرة تحجب انسحاب أخى من المأزق فراراً من ورطة الإحراج.. فإنها بقيت علامة على طريق طلاب الحديث.. ليأخذوا للأمر عدته..

وقليل من الكلام المدروس.. المعد. والمقدور على معايشته وعلاجه ارتجالا.. أقدر على التأثير من سيل الكلام تنقله.. ولا تتمثله.. وتترك الجمهور من بعدك يدير ظهره لك.. باحثاً عن هؤلاء الذين يلمسون قلوبهم بما قل ودل.. من الكلام.. الكلام الصادر عن قلوب كبيرة تجعل الخطيب شخصية مهيبة.. تلك التى يقولون عنها: إنها لقوة تأثيرها.. تعطل ملكة النقد عند السامع المشوق والذى ينجذب إلى تلك الشخصية.. فيسلم لها زمام أمره.. بلا مناقشة!!

إنه الخطيب الذى يعيش مع جمهوره فى أفق واحد.. يدور معه حيث دار: يعدل من خططه.. ويغير من أساليبه.. ويحذف ويطيل فى عرضه حسبما يراه ويحس به من خلال العيون الناظرة إليه.. وسحنات الوجوه التى يقرؤها فيرى نفسه على مرآتها.. ويعرف موقعه من قلوب أصحابها..

ولكن خطيب الورقة فى واد.. والمستمعون فى واد! إنه يسير مع أفكاره المنقوشة.. لا مع أفكار مستمعيه.. وأنى له التأثير؟!

يقول أحد الكتاب واصفاً خطيب الورقة:

إذا استوى على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقاً فنشرها أمامه على الترتيب. وشرع يخطب مطمئناً. وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكن روح سامعيه.. لأنه وزن أدلته وحررها. وأعد شيئاً كثيراً من الإحصاءات والحجج. وأيقن أن الحق فى جانبه. وأن معارضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة

التى يأتى بها . . . وهكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه.

وبينما هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين ثم يتقزز بالضوضاء الناتج من ذلك الاضطراب. ويتساءل:

لم لا يسود السكون؟ وما السبب فى هذا الانصراف العام؟

وما الذى يدور على ألسنة الذين يتحدثون فيما بينهم؟

وما السبب القوى الذى يحمل ذاك على ترك مجلسه!؟

يتساءل الخطيب هكذا. والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه. . ويمسك عن الكلام[1].

---

(١) الخطابة: ٧٣.

العنصر الإيجابى فى شخصية الخطيب

مشكلة العالم اليوم هى: فقدان الأسوة الحسنة.

فما أكثر الذين يعرفون، ولكن ما أقل الذين تستحيل المعرفة فى حياتهم سلوكا وعملا يراه الناس فينسجون على منواله.

إن طالب الطب اليوم يعرف من قواعد المهنة وتفاصيلها أكثر مما كان يعرفه «جالينوس» نفسه!... ولكن أين هو من جالينوس؟!

والجندى العصرى يعرف من قواعد النظام والعسكرية أضعاف ما كان يعرفه قائد محنك كخالد بن الوليد؟!

غير أن خالدا بقدوته كان أكبر فاعلية. وأشد تأثيرا بتطبيقاته العملية التى مكنت للإسلام فى قلوب الناس.. حتى وهو فى قبره بين الأموات فمازالت شخصيته الفذة تؤدى دورها فى الحقل الإسلامى!

فى الوقت الذى يخطب فيه الخطباء الفارغون من صفات الخير.. فلا يؤثرون وهم أحياء!!

إن المعلم ليس هو الذى يعرف ولكنه: القادر على جعل غيره يعرف ولايتم ذلك إلا بالعلم ثم العمل به لأن العمل تجربة تكسبك علما جديدا.

(الخطيب: بين المقال.. والحال):

ولابد أن يبرز العامل الإيجابى فى شخصية الخطيب.. فيترجم أقواله إلى أفعال هى أعلى صوتاً من بيانه مهما كان رائقاً مقنعاً.

لقد اقترح المستمعون على واعظهم يوما أن يخطب فى «العتق» وثمرته وثوابه وكلما ألحوا فى الطلب.. ألح هو فى الهرب!.. ومضى عام أو يزيد. والرجل لا

يبدى ولا يعيد!

وفجأة وقف الواعظ خطيباً فى قومه مبيناً لهم أهمية العتق. وصلته بكرامة الإنسان وموقعه بين فضائل الإسلام.

ومع إعجاب المستمعين.. لكن الإعجاب لم يسكت غريزة حب الاستطلاع فى قلوب الناس عن سر تأخير الحديث عن العتق رغم إلحاح القوم.. وقدرة المتحدث وجاءهم الجواب مؤكدا صدق الخطيب مع نفسه. وفوق ذلك مع ربه سبحانه.. لقد كان عليه ـ كى يكون منطقياً ـ أن يدبر فى عام كامل ثمن رقيق.. ثم يحرره لله تعالى لينطلق لسانه بعد ذلك متحدثاً فى موضوع كان هو أسبق الناس تحقيقاً له!!

إن الناس تسمع بأعينها.. قبل أن تسمع بآذانها.. تسمع الأسلوب الطلى.. والعرض القوى.. مدركة فى نفس الوقت أن هناك أمرا أكثر قوة هو رؤية الخطيب ملتزماً بما يقول.. ودون ذلك فلا استماع ولا ثقة... لأنه يكون كالإبرة: تكسو الناس. وهى عريانة.. وكالذبالة: تضىء للناس. وهى تحترق. أو كالبخور: ينفع غيره بمضرة نفسه.

وعندما يمارس الخطيب وظيفته من موطن الضعف.. والطمع فإنه يخرج من حياة الناس:

لو رأى الناس نبيا ... سائلا ما وصلوه
أنت ما استغنيت عن ... صاحبك اليوم أخوه
فإذا احتجت إليه ... ساعة. مجك فوه!

إن الداعية المتجول فى البلاد يقول كلمته ثم يمضى.. ويعجب الناس به أو لا يعجبون.. لكنه على أى حال يخرج من حياتهم متأثرين به. من حيث أنهم لم يعاشروه.. ولم يشاهدوا منه ما يخالف قوله. وإذا فحسن الظن به احتمال قائم.

بيد أن الخطيب ـ وأعنى خطيب المسجد ـ يعيش بين الناس فى الحى.. يرونه ويسلطون عليه الأضواء.. مرددين البصر بين ما يسمعون من أقوال وما يشاهدون من أحوال.. فإذا بدا التناقض بين القول والعمل.. إذا لم يحقق الداعية فى حياته عنصرها الأساسى فكان قدوة الجمهور.. والصورة الإيجابية لكل ما يقول.. ضاعت الثقة الرابطة بين الجميع.. وفقد الواعظ بفقدها معنى القيادة والريادة.

وعلى رأس الفضائل التى يجب الوفاء بحقها: الزهد.. والورع.. والصبر. ليتم له سمته الوقور. وبالتالى يقوى تأثيره. ويتعلق به جمهوره. حين يحسون به صورة لما يقول. لا سيما وهو دائم الاشتباك مع فتنة الدنيا.. فأنظار الناس متعلقة به ناظرة إلى موقفه من هذه الدنيا التى يشن الغارة عليها دائماً. ما موقفه منها ليتحدد بعد ذلك موقفهم منه.. تعلقاً به.. أو زهدا فيه!!

وبالإيمان بالله عز وجل.. ثم بما يثمره من زهد فيما لدى الناس من متاع.. وما لدى الدولة من مناصب.. يأخذ الداعية وضعه القيادى الفعال.

إن الإيمان يعنى تسلح الإنسان بأسلحة القوة فى مواجهة الحياة.. وبالتالى يمضى قوياً إلى غايته:

فهو بالإيمان شجاع.. لا يهاب أحداً.. صابر على مغارم الدعوة.. لا ييأس.. لا يغتر بفتنة الدنيا.. بل ويستعلى عليها.. وعلى المفتونين بها وحينئذ يتم له معنى الزهد.. الذى لا يعنى هروبه من الحياة.. بقدر ما يعنى مصابرة القوى المعادية للدعوة.. ومكابرة كيدها ليظل فى الموضع الأمثل دائماً.

لقد سمعت أناساً يتحاشون الحديث عن رذيلة الربا المتفشية حينئذ واستبعدوا هذا اللفظ من قاموس وظيفتهم بالمرة!

لماذا؟ لأن للمتعاملين بالربا نعمة على هؤلاء الخطباء تجزى والوفاء يحتم أن نسكت عنها تقديراً لهذه النعم الكبرى؟!

ولو أن الداعية ظل عفيفاً.. على مستوى وظيفته العظيمة.. لمدَّ رجله فى

وجوه المنحرفين حين لم يمد يده!

لقد حصل الخطيب من الجامعة التى تخرج فيها على «الشهادة القولية..» المفيدة صلاحيته لأداء وظيفة البلاغ.. وتبقى بعد ذلك «الشهادة العملية» والتى لا تنال إلا من قبل الجمهور. وهو الناقد البصير.. والذى لا يعطى قلبه وروحه إلا لمن كان على مستوى المسؤولية: قولا وعملا.

يقول المودودى[1]: أما الشهادة العملية فالمراد بها: أن تكون حياتنا العملية مرآة للأصول والمبادئ التى نعتقدها وندعو الناس إليها... فإنه لا يكفينا من أداء هذا الواجب أن يسمع الناس كلامنا فى الثناء عليها والإشادة بذكرها... بل الذى يؤثر فى النفوس. ويأخذ بمجامع القلوب أن يشاهدوا بعيونهم هذه التعاليم والحسنات التى نلهج بذكرها دائما متجلية فى أعمالنا متمثلة فى حياتنا اليومية.

فالذى يجلب الناس إلى قبول هذه الدعوة أن يلمسوا فى عشرتنا ومعاملاتنا ذلك الخلق وتلك الأمانة المرجوة التى يغرس الإيمان الصادق شجرتها فى قلوب أهله فتكبر وتثمر وتؤتى أكلها... وأن يشاهدوا بأم أعينهم أمثال الرجال الصالحين الذين ينشئهم هذا الدين فى كنفه ويربهم.

لا يمكن أداء هذه الشهادة وقضاء حقها.. إلا بأن نتخذ من أنفسنا أفرادا وجماعات برهانا ناطقاً على صدقها. وحجة ظاهرة على أن ما تدعو إليه من دين الحق. حق عملى. ملموسة آثاره ونتائجه فى الحياة العملية..

أن تتضوع بيوتنا ومنازلنا بأجمعها بأريج تعاليم الدين السامية وتتنور متاجرنا ومصانعنا قاطبة بأنوار هدايتها].

صور من الزهد:

وقد آثرت الحديث عن الزهد بالذات.. لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة.. والزهد فيها خلق حيوى يشتد به عود الإنسان ويرفعه إلى عليين حراً طليقاً. يقول الحق ولا يخشى فيه لومة لائم..

---
(١) شهادة الحق: ١٢ ـ ١٤.

ومن هنا نعلم لماذا نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد.. وكيف يهلك آخرها بالبخل وطول الأمل.. وإذا طولب الخطيب بتمثل كل مبادئه ليكون عنواناً كريماً فإن الزهد هو الأكسير الذى مكنه من ذلك.

قدم على عمر رضى الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال: والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن. تزن لى هذا الطيب. حتى أقسمه بين المسلمين.

فقالت امرأته عاتكة: أنا جيدة الوزن. فأنا أزنه لك.

قال: لا. فقالت لم؟ قال: لأنى أخشى أن تأخذى به فتجعليه هكذا (وأدخل أصابعه فى صدغيه).. وتمسحى به فى عنقك. فأصيب فضلا من المسلمين.

وكان يوزن بين يدى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مسك للمسلمين فأخذ بأنفه (أى: سدَّها بيده) حتى لا تصيبه رائحة.

وقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه... قال ذلك لما استبعد ذلك منه.

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله: أنه كانت له شاة فأكلت شيئاً يسيراً من علف بعض الأمراء. فلم يشرب من لبنها بعد ذلك.

وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: ألا تشرب من ماء زمزم.

فقال: لو كان لى دلو لشربت... إشارة إلى أن الدلو من مال السلطان. فهو من المشتبه.

وقال ابن المبارك رحمه الله: لأن أرد درهما من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف[1].

الأسوة الحسنة:

ولقد كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة فى هذا الباب.. فكان يمهد السبيل أمام موعظته لتصل إلى أعماق النفوس بالزهد فى هذه الدنيا.. بل لقد كان يأخذ زمام المبادرة.

(١) الشيخ على محفوظ ـ هداية المرشدين: ١١١، ١١٢.

وبدل أن يأكل الطعام على موائد العصاة فلا يستطيع أن يفتح عينيه فيهم بعد ذلك.. بدل هذا.. يبادرهم هو فيمد موائدهُ ـ على ما كان فيه من ضيق ذات اليد.. ثم يقوم فى الضيوف الآكلين خطيباً قوى الشخصية.. عالى النبرة صادق اللهجة.. محققا بذلك كله التأثير المطلوب.. من مركز القوة:

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾** قال رسول الله ﷺ. **«عرفت أنى إن بادرت بها قومى رأيت منهم ما أكره فصمت فجاءنى جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك»** .

قال على رضى الله عنه فدعانى فقال: **«يا على إن الله تعالى قد أمرنى أنذر عشيرتى الأقربين فعرفت أنى إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فصمت عن ذلك ثم جاءنى جبريل فقال يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك: فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام وأعد لنا عس[1] لبن ثم اجمع لى بنى عبدالمطلب»**.

ففعلت فاجتمعوا إليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب الكافر الخبيث فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال: **«كلوا بسم الله»** فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم. والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها، ثم قال رسول الله ﷺ: **«اسقهم يا على»** فجئت بذلك القعب[2] فشربوا منه حتى نهلوا جميعا وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لهذا سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ[3].

---

(١) العس: بضم العين القدح الكبير. والجمع عساس بكسر العين.
(٢) القعب: بفتح القاف إناء ضخم كالقصعة.
(٣) ابن كثير ـ تفسير صورة الشعراء، وفيه بقية القصة.

وأيا ما كانت النهاية. فقد حقق اللقاء بعض أهدافه. حين صدرت الموعظة. أو الخطبة القصيرة من مركز القوة. على لسان رجل ليس فقط زاهدا فى الدنيا. ولكنه يبذل ماله فى سبيل التمكين لخطبته فى قلوب الناس.

ولا شك أن الضيافة كسرت من حدة السخرية فى هذا اليوم من حيث طعم الفم.. فاستحت العين. واستحى اللسان!!

لقد كانت الخطبة قصيرة .. لكنها طويلة بشخصية قائلها.. وكانت كلماتها قليلة.. لكنها كثيرة المعنى وإن ضاق المبنى.. بما منحها الخطيب من روح الزهد والمودة... ولقد آمن - من بعد - حمزة والعباس..

وكان لهذا الإيمان أسباب كثيرة.. وكان من بينها ولا شك هذه الحكمة النبوية القادرة على قيادة النفوس إلى التى هى أقوم.

وما أكثر الذين يخطبون.. فيخلبون الألباب.. لكنك تبحث عن رد الفعل فلا تجد..

ذلك بأنهم يزهِّدون فى الدنيا ثم لا يَزهدون فيها.. وفى غفلة بيِّنَة يصرخون لأن الناس لا يأتمرون ولا ينتهون. والناس مثلهم يصرخون.. لأن الخطيب مثلهم فى حاجة إلى خطيب؟!!

أهمية الصبر:

وإذا فلابد للخطيب من صبر جميل يعينه على احتواء جمهوره..

إن فى الناس: اللين والعنيد.. وعليه أحياناً أن يكظم غيظه إذا ووجه بما يشوش عليه..

وإذا كانوا يقولون: لا يطاع إلا من يطيع.. فعلى الخطيب - أحياناً - أن يجارى الناس فى بعض ما يرغبون.. ليتسنى له كما قيل: أن يصل بزورقه إلى الشاطئ الآمن قبل أن يتحطم فى عرض البحر..

ويفرض عليه ذلك أن يكون بعيد مطارح النظر. خبيراً بالنفوس.

فلا يكلم سيد الأمة كما يكلم الأمة... ولا يخاطب العمال بلغة أرباب المال... ولا يواجه الشباب كما يواجه الشيوخ.

باختصار.. عليه أن يتحكم فى أهواء نفسه. ليتمكن من التحكم فى أهواء غيره.

ويمتحن صبر الخطيب فى الوقت الذى يتخلى عنه جمهوره فلا يحضرون إليه.. أو يحضرون ولكن لا ينصتون.

وعليه التجمل بالصبر لاستمالته.. بالتغاضى عن إعراضه.. وإذا لم يحضر إلا القليل اليوم فسوف يتسامع من لم يحضر بما قلته.. وقد يأسف لأنه لم يأت إليك... وإذا لم تحس بأن بعض مستمعيك لم يفهموك فلا عليك:

فالسامع الأمى كالفقير: لا يستطيع أن يلبس الحرير.. ولكن يروقه أن يراه على غيره.

فاستمر فى عرضك الطيب.. فلن يضيع مجهودك سدى..

واعلم أن بعض الناس قد لا يفهم المعنى.. ولا يستجيب لحسن العرض.. ولكن تروقه الإشارات.. فيخرج مسحوراً مسروراً.. وإذا لم يكن ذلك للخطيب انتصاراً فإنه على أى حال خطوة إلى الأمام قد تستدرج هذا المستمع يوماً ليحاول فهمك والاقتراب منك. والأخذ عنك..

وقد كان هناك خطباء يتعرضون لمثل هذه المواقف الحرجة. ولكنهم يحسمونها بمثل هذا البيت الذى قاله أحدهم وقد ارتج عليه:

فإن لا أكن فيكم خطيباً فإننى　　　بسيفى إذا جد الوغى لخطيب

الباب الثانى

ثقافة الخطيب

لا يمارس الخطيب وظيفته من فراغ ـ فلابد من مصادر ثقافية تحيى قلبه. وتمده بثروة من المعانى والحلول اللازمة لمشكلات الفرد والمجتمع.

وهى مناهل يغترف منها. ليقدمها بدوره شراباً للشاربين. فإذا لم يجدد الخطيب حياته بزاد متجدد من المعرفة. يواكب الحياة المتغيرة.. فسوف يكرر نفسه دائماً. ولن يحس الناس بحاجة إليه. وبالتالى سينصرفون عنه إلى غيره ممن يقدرون الوظيفة قدرها.

إن الخطابة فى الإسلام مظهر الحياة المتجددة. الحياة التى تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب. ويثب من فكر إلى فكر. وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل. ومن المكان من قطر إلى قطر.

وهذا هو السر فى أن نبى الإسلام كان يخطب كل أسبوع. وكل عيد. ويخطب أو ينيب عنه أميراً يخطب عنه فى وفود الحجيج عند جبل الرحمة. وتتفجر ينابيع الخطابة الصحيحة من معانى القرآن وأغراضه. فإن القرآن هو الكتاب الهادى للأحياء ذو القدرة الفذة على استثارة أفكارهم. واستجاشة مشاعرهم. والسمو بهم إلى ما يشاء.

فلا جرم كانت الخطابة المستمدة منه وقود نهضة. وضياء أمة][1].

وبعد القرآن الكريم تجىء السنة المطهرة. ووقائع التاريخ.. ثم واقع الحياة الإنسانية والكونية.

إلى جانب كثير من العلوم التى لابد من الإلمام بها أو استيعابها ليتمكن الخطيب من تحمل مسؤولية البلاغ بهذا الزاد المستمد من هذه الروافد جميعاً. فإذا كان الإيمان بالله تعالى أساس بنيانه كله. وكانت الأخلاق الفاضلة سلاحه فى

(١) مع الله: الشيخ محمد الغزالى: ٣٠٦، ٣٠٧.

معركته مع شياطين الإنس والجن. . . فإن الثقافة الحية. والتأمل الواعى فى مسار الحياة هو الجانب الفكرى إلى جانب الأسلحة الإيمانية.

(والدعوة عطاء وإنفاق. ومن لم يكن عنده علم ولا ثقافة. كيف يعطى غيره. وفاقد الشيء لا يعطيه. ومن لا يملك النصاب كيف يزكى؟)[1].

ويحسن بنا - قبل إلقاء الضوء على هذه المصادر أن نبين خصائص الثقافة الإسلامية المميزة لها عن بقية المعارف البشرية فى المناهج الوضعية.

خصائص الثقافة الإسلامية:

إذا دعا بعض الكتاب إلى الأخذ بالثقافة الغربية وصولا إلى نهضة حقيقية. . فإن ذلك خطأ منشؤه عدم التمييز بين الغث والثمين (فهناك خلاف واسع فى تقدير الخير والشر بين الكافر) والذى يقول الله عنه: -

﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾.

وبين المؤمن الذى يراقب فى أعماله ثوابه سبحانه وعقابه فى الدار الآخرة.

فبينما يرى الأول أن حرمان النفس مما تشتهيه كل ما تشتهيه - ضرب من الحماقة ليس له ما يسوغه.

يرى الآخر أن إدمان على الشهوات هو عين الحماقة وقصر النظر.

والمتدين يرى التفريط فى العرض والعفاف شرا. بينما يراه الوجودى مثلا حماقة. والمتدين يرى ضبط النفس فضيلة. بينما يراه الفرويدى شراً بسبب الكبت الذى يورث فى زعمه أمراض النفس.

والمسلم يرى اللص والقاتل مجرما تجب عقوبته .

والمتفرنج الذى يعقل بأذنيه ويقلد تقليدا القرود يراه مريضاً خليقاً بالعطف.

والمتدين يرى صورة المرأة العارية قبيحة. لأنه يرى معها قبح نفس صانعها

(١) ثقافة الداعية - د. يوسف القرضاوى: ٧.

ودنس شهوته التى تخالط صنعته فتنفر منها نفسه.

وقد يراها غير المتدين جميلة. لأنه لا يرى إلا مفاتنها. ولأنها تخاطب شهواته وحواسه وحدها. ولا تخاطب ضميره وخلقه[1].

وإذن فالمنهل الذى يستقى منه الخطيب منهل صاف رائق. ينعكس على المجتمع سلاما وأمنا ورشدا.

وعلى هذا الزاد الثقافى النظيف يقوم بناء الخطيب. لينهض بالعبء مع غيره من العاملين.

إنه النظام الذى يتخرج بفضله المؤرخون المسلمون. والفلاسفة المسلمون. والمسلمون الحاذقون فى العلوم الطبيعية والاقتصادية.

والذين لهم حظ وافر فى القانون والسياسة وفى كل فرع من العلوم والفنون. من الذين امتزجت الفكرة الإسلامية بلحومهم ودمائهم.

والذين تثقفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعاً يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات. ومنهاج كامل للحياة العملية مبنى على قواعد الإسلام.

والذين آتاهم الله من الموهبة والمقدرة ما يمكنهم أن يقارعوا أئمة الكفر[2].

إن النحلة تمتص مليونا من الزهور.. من أجل أن تعطينا مائة جرام من العسل!

ثم هى تختار هذه المليون.. من بين ملايين الزهور.. فلا تقع إلا على الطيب من الزهر.. الزكى منه..

ولا تمتص أبداً زهراً ساما.. ولا كريها..

عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمن مثل النحلة إن أكلت أكلت طيبا وإن وضعت وضعت طيبا وإن وقعت على عود نخر لم تكسره ومثل**

---

(١) د. محمد محمد حسين. حصوننا مهددة: ١٤٥، ١٤٦.

(٢) المودودى، منهاج الانقلاب الإسلامى ١٧.

المؤمن مثل سبيكة الذهب: إن نفخت عليها احمرت وإن وزنت لم تنقص» [1].

ومن بين المسلمين تعظم مسؤولية الخطيب الذى يجب أن يتمثل هذا الدرر.. ليسرح فى بطون الكتب.. ومشاهد للطبيعة.. يقرأ ويتمثل.. فى صحبة إحساس صادق بما يقرأ ويسمع.. ليخرج للناس شراباً طهوراً.. فيه شفاء للناس.

شروط القراءة:

إن المطالعة المستمرة مهمة للخطيب. ولابد فيها:

---

(1) رواه البيهقى فى شعب الإيمان. ورمز له السيوطى بالضعف [فيض القدير. للعلامة المناوى. جـ٥. صـ٥١٤. ط. المكتبة التجارية. الأولى سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٨م].

فى سند هذا الحديث. أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة المدنى القاضى الفقيه. عن الأعرج، وعطاء بن أبى رباح، وعنه عبد الرازق وأبو عاصم، وجماعة. ضعفه البخارى وغيره وروى عبد الله وصالح ابنا أحمد عن أبيهما قال: كان يضع الحديث وقال أبو داود. كان مفتى. أهل المدينة.

وروى عباس عن ابن معين قال: قدم ههنا فاجتمعوا عليه فقال: عندى سبعون ألف حديث، إن أخذتم عنى كما أخذ عنى ابن جريج وإلا فلا وقال النسائى متروك.

قلت: ولى قضاء العراق وبعد وفاته ولى القضاء أبو يوسف. وهو أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد البندريين أبى سيرة بن أبى رهم العامرى.

وقال ابن معين ليس حديثه بشىء.

حفص الربالى، حدثنا أبو عاصم. عن ابن جريج، أخبرنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة، عن عبدالله بن أبى مريم عن أبى صالح، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: **«من ذكر رجلا بما فيه فقد اغتابه، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته»**.

عبد الرازق وغيره عن ابن أبى سبرة عن «عبد الله بن إبراهيم بن محمد» عن «أبى معاوية بن عبد الله ابن عفر، عن أبيه عن على ـ مرفوعا: **«إذا كان ليلة النصف من شعبان قوموا ليلها وصوموا نهارها فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه حتى يطلع الفجر»**.

عبد الله بن الوليد، حدثنا أبو بكر بن أبى سبرة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة ـ مرفوعا: **« شرار أمتى أجرؤهم على صحابتى»**.

مات أبو بكر سنة اثنتين وستين ومائة، وكان قد خرج على المنصور مع ابن حسن وكان تحت يده صدقات فأمد ابن حسن بأربعة وعشرين ألف دينار. فأسر أبو بكر وسجن مقيدا. ثم وقع هياج بالمدينة بعد أشهر، فكسر عبيد المدينة السجن وأخرجوه، وأرادوا فك قيده، فقال: هذا ما يفوت. ثم وقف وخطب فى أسفل المنبر، وحرض الناس على الطاعة وحذر من شق العصا فرعى ذلك له المنصور وقال: قد أساء ثم أحسن ثم ولى القضاء. «ميزان الاعتدال فى نقد الرجال لأبى عبد الله بن أحمد بن عثمان الذهبى تحقيق على محمد البيجاوى.. جـ٤. صـ٥٠٣، ٥٠٤. ط. عيسى البابى الحلبى الأول ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.

أولا: من الاستيعاب.

فهناك فئة من المستمعين لا تقبل الكلام المرسل على عواهنه. ولكنها تعاند وتجادل... والخطيب المستوعب قادر على التصدى لهذا النوع واحتوائه... والثقافة الضحلة لا تعينه على النصر.

ثانياً: لابد أن تكون قراءة متأنية وإلا.. فإن التهام الكتب بسرعة وسطحية يميت ملكة الاختراع.

ثالثاً: لا ينبغى أن تكون القراءة عادة مثل التدخين. تنقلك من كتاب إلى كتاب دون التعمق فيما تقرأ.

إن قراءة بحث واحد وهضمه. أفعل من الإلمام بعدد من الكتب.

يقول العقاد: «لأن يطالع القارئ كتابا واحدا عشر مرات خير له من أن يقرأ عشرة كتب.. كل كتاب مرة واحدة».

القرآن الكريم:

يقول باحث غربى:

[إن الروح نار.. فإذا أنت لم تطعمها لتزيد وتقوى. تناقصت وخبت). وخير ما يشعل جذوة الروح هو القرآن الكريم. إنه جوهر الوجود. وروح الروح!

وما فتح المسلمون فتحاً. ولا قطعوا وادياً. ولا ركبوا بحراً. ولا جابوا براً. ولا بذلوا مالا ولا دما. ولا أسسوا إمارة ولا بنوا حضارة. إلا إجراء لأحكام القرآن الكريم الذى كان معناه ممتزجاً بلحمهم ودمهم.

فلما فسد الأمراء. وتواطأ معهم بعض العلماء. رجع القرآن من المعنى إلى اللفظ. وصار يتلى بدون أن يعمل به. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم].

القرآن فى حياة الخطيب:

إذا كان بعض الناس لا تربطهم بالقرآن إلا عقيدة يجأرون بها دون أن تجاوز الآيات ألسنتهم..

وإذا وقف البعض عند حدود الشرح والتفصيل.. فإن للخطيب مع القرآن شأناً آخر.. فهو حياته.. ومسؤوليته التى تستمر بها هذه الحياة.

إن للقرآن دوراً إيجابياً فى الاتجاه بالحياة إلى التى هى أقوم والداعية الناجح هو الذى يحسن صحبة القرآن. بالقراءة ـ والتدبر.. واستنباط القواعد التى يعالج بها أدواء البشر.

كان مالك بن دينار يقول: «ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن. كما أن الغيث ربيع الأرض».

وإذا كان ابن دينار يوجه سؤاله إلى أهل القرآن جميعاً.. فإن السؤال يتجه إلى الدعاة اتجاهاً أولياً.. بحكم صلتهم به.. وانتسابهم إليه.. وما يفرضه ذلك من ضرورة مدارسته.. وفهمهم مراميه.. وصولا بالناس إلى ما رسمه القرآن من أهداف.. وما خطه من مناهج.

وإذا كان الغيث ينزل من السماء مدرارا.. ثم يسرى فى أخاديد الأرض.. ليخرج بعد ذلك جنات وحب الحصيد.. فإن القرآن له نفس الأثر فى دنيا الروح.. وملكات النفس الباطنة.. يغذيها.. وينميها.. ويشيع فى أرجائها سحرا حلالا.. وما يشبه أن يكون زرعا.. وزيتونا.. ونخلا.. يطعم الجائعين.. وأيضاً.. يسر الناظرين!

ولن يصل الخطيب إلى هذا المستوى لمجرد أنه حفظ القرآن... فإن القرآن الكريم لا يعطى سره لهؤلاء الذين يحفظون.. ولا يستنبطون.. وإذا فهموا.. لا يجدون الإرادة الحاملة على التنفيذ.. وإنما يعطى ثماره لهؤلاء الذين صقلوا نفوسهم بالتجربة.. وربطوها بالفلك القرآنى.. فانعكست آثار الصحبة المباركة على أنفسهم خلقاً عظيماً.. يشع فى كل اتجاه..

وعلى هذا الأساس ربى محمد ﷺ أصحابه.. لتكون هذه التربية من بعد.. معراج السالكين من الدعاة فى كل عصر ومصر:

عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: **«اقرأ القرآن فى شهر»** قلت

نى أجد قوة حتى قال «**فاقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك**»[1].

وفى رواية: «**فإنه لا يفقه من قرأه فى أقل من ثلاث**» فمع صدق نية ابن عمرو.. وقدرته كشاب أن يقرأ القرآن فى هذه المدة الوجيزة.. ومع وضوح الرغبة البادية فى مراجعته للرسول ﷺ على هذا النحو.. فإنه ﷺ لم يبح له القراءة فى وقت لا يستطيع قلبه ملاحقة لسانه.. ومن ثم لا يعلق به من بركته ما يكفى لاستقامة حياته.. وليس المهم. كم تلوت.. وأهم منه: ماذا أفدت مما تلوت.. وذلك هو مربط الفرس.

إن مجرد القراءة المتعجلة لا ينشئ خلقاً.. ولا يصقل روحا.. ومعنى ذلك أن القراءة السريعة تنأى بالقارئ عن تمثل حقائق القرآن.. ومن ثم فلا ينهض للعمل..

روى الإمام أحمد: عن أبى عبد الرحمن قال حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبى ﷺ «**أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون العشر الأخرى حتى يعلموا ما فى هذه من العلم والعمل، قالوا فعلمنا العلم والعمل**»[2].

وبعض الصحابة العظام مات قبل أن يختم القرآن لأن المعارك الإسلامية شغلته عن ذلك.

فإذا كانت تلاوة القران أمراً محبوباً ويرجى خيره بلا شك.. فإن الغاية من وراء ذلك: إحقاق الحق وإبطال الباطل.. ولا يتم ذلك إلا بالتدبر الواعى.. الذى يصل المسلم بروح القرآن.. فيحس فى كيانه بروح جديدة.. هى فى نفس الوقت.. وقود يمده بالطاقة المحركة.

---

(١) رواه البخارى. صحيح البخارى بشرح الكرمانى. جـ١٩. ص٤٧. ط. البهية المصرية ١٣٥٦ هـ. ١٩٣٧م.

(٢) رواه الإمام أحمد حديث صحيح «الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ١٨. ص٩ قال الحاكم فى المستدرك عقب هذا الحديث: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ط مكتبة النصر الحديثة الرياض

وهذه الروح التى لابد منها لقارئ القرآن كى يستفيد من خيره وبره هى ما أشار إليه ابن عمر فى قوله:

(لقد عشت برهة من دهرى وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن. . وتنزل السورة على محمد ﷺ. فنتعلم حلالها وحرامها. وما ينبغى أن نقف عنده منها.

ثم لقد رأيت رجالا لا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان: فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته. ما يدرى ما آمره. وما زاجره. وما ينبغى أن يقف عنده. . ينثره نثر الدقل[1].

فالذين يتسابقون فى قراءة القرآن دون أن تصغى منهم القلوب المؤمنة الواعية إلى ما فيه من كنوز يفوتهم خير كثير. .

والدعاة إلى الله مطالبون بالتأمل الواعى. وإنهم لواجدون فى كتاب الله زاد رحلتهم البعيدة. . إن كتاب الله يتلى للنفع والهداية. وقد أمر الله عز وجل بتدبر معانيه حين قال فى كتابه: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾.

وحين قال: ﴿**أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**﴾.

(فهذا التدبر العاقل. وهذا الترتيل المتد لن يكون مع هذه السرعة المزعجة التى تجعل القراءة وحدها هدفاً مقصوداً. لا وسيلة لتدبر المعانى وتأمل العظات.

وقد نزل كتاب الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور باتباع أوامره. واجتناب نواهيه. فكيف تدعو إلى قراءته العاجلة عدة مرات فى اليوم الواحد لتصرف القارئ عن هديه وكأن القراءة وحدها هى الثمرة المرتجاه[2].

ولكن الأمر على ما قاله الحسن البصرى:

(والله ما أصبح اليوم عبد يتلو هذا القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه. وقل فرحه.

---

(١) الدقل: بدال مشددة مفتوحة وقاف مفتوحة: ردىء التمر.

(٢) نظرات قرآنية: د. محمد جب البيومى.

وكثر بكاؤه. وقل ضحكه. وكبر نصبه. وقلت راحته).

ولن يحدث هذا التغير الكبير فى حياة القارئ إلا إذا وهب القرآن كل منافذ حسه ونفسه.. ليحدث التأثير المطلوب..

قال بعض السلف: كنت أقرأ القرآن. فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه.

ثم رفعت إلى مقام فوقه: فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ.

ثم جاء الله بمنزلة أخرى. فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت لذة ونعيماً لا صبر لى عنهما... وهو من مقامات الشهود التى لا قبل بوصفها إلا بذكر آثارها.

فقد روى عن بعض آل البيت: أن حالة لحقته فى الصلاة فخر مغشياً عليه. فلما سرى عنه قيل له فى ذلك فقال:

(مازلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها نفسه. فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته سبحانه وتعالى[1]).

وهذه لمحات لابد منها.. نضعها بين يدى الخطيب تبصرة وذكرى.. فبعض الخطباء يكثرون الاستشهاد بآيات القرآن الكريم.. وهذا أمر أساسى لا جدال فيه.

ولكن الذى يفوت هؤلاء الخطباء أن يقفوا أمام الآية متأملين، مستنبطين ما يمكن أن يصحح مفاهيم الناس..

إنهم ينتقلون سراعاً من آية إلى آية يرصعون بها الخطبة.. دون أن يغوصوا فى الأعماق.. ليستخرجوا منها فصوص الحكم!

---

(1) تذكرة الدعاة: ٢٥٥، ٢٥٦.

ولو فعلوا ذلك لأغناهم من سرد الآيات سرداً.. وسيبقى التأمل لهم بقية من الآيات تجعل الحديث موصولا فى مناسبات آتية.. وإلا.. فلو اقتصر جهد الخطيب على مجرد السرد لما أتى بجديد.. فقد يكون من بين المستمعين من هو أحفظ منه لكتاب الله.. وفيهم أيضاً من يقدر على الربط والاستنباط مثله.. ويبقى بعد ذلك دور الخطيب الذى لابد له من المثول بين يدى الآية أو الآيتين.. لتفهم المعنى.. لمعرفة الوضع الاجتماعى الذى يعالج بهذه الآية.. ثم ملاحقته بما تشير إليه وتحض عليه..

وبذلك نساعد فى تحكيمَ القرآن وهيمنته على حياة الناس.. والإفادة من قدرته الفذة على الإصلاح والتجديد.

إن القرآن الكريم كتاب ضمت آياته على مبادئ وحقائق تصلح بها الحياة والأحياء.. واكتست معانيه بحلل قشيبة من الأساليب الجزلة البليغة.. والداعية منه فى رياض ناضرة.. حافلة بكل ما يجدد شباب الإنسان.

والذين يحسنون صحبته.. والإصغاء إليه.. يعطيهم من أسراره طب القلوب وشفاء الأرواح.

إقبال ـ والقرآن:

يحكى شاعر الإسلام محمد إقبال:

كنت أقرأ القرآن فى مستهل حياتى.. ويدخل على أبى. فيسألنى: ماذا تفعل؟

وكان جوابى: أقرأ القرآن!

وعلى مدى ثلاث سنوات: يتكرر السؤال من أبى. ويسمع نفس الجواب.

وقلت له ذات يوم: يا أبى: تسألنى نفس السؤال وتسمع نفس الجواب ثم لا تزال تسألنى فماذا تريد؟

قال: يا محمد.. اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك[1]!!

وهكذا يرسم الوالد لولده طريق الوصول إلى حقائق القرآن صلاحاً للنفس وإصلاحاً للحياة... فإذا أحس بأنه مخاطب بالقرآن الكريم من قبل منزله سبحانه وتعالى.. أحس فى نفس الوقت بعظم المسؤولية الملقاة عليه. فشد الرحال. واحشد الطاقة. وأحسن الصحبة.

*****

(١) الندوى: روائع إقبال. بتصرف.

بركة القرآن

تؤكد التجربة الإنسانية أن التفوق فى علم.. يقود إلى إدراك علم آخر.. قد تبدو الصلة مقطوعة بينهما.. وقد اهتدى عالم الفقه فى ضوء الحكم القائل: الساهى فى سجود السهو.. لا يعيد السجود.. اهتدى بذلك إلى حقيقة صرفية هى: المصغر.. لا يصغر!!

وذلك الشاهد يحملنا على القول بأن للقرآن الكريم بركة تنعكس على حافظه علما وبصرا بشؤون الحياة..

وإن جمال أسلوبه وبلاغة تراكيبه لتترك آثارها حتما على لسانه..

وإنك لتصادف مجموعة من الفلاحين فى القرية يتحدثون فلا يصعب عليك اكتشاف حافظ القرآن منهم بما يتميز به من طلاقة التعبير وطلاوته.. وقد أمسك أهل القرآن فى القرى بمقاليد الأمور الدينية والدنيوية..

ولا نشك لحظة أن القرآن الكريم قد منحهم من لدنه بركة وهدى صاروا به أئمة يهدون بأمر الله.. لما حفظوه..

وتلك كلمة لابد منها تتجه اتجاها أوليا لطلاب الدعوة وراغبى الحديث.. أن يحفظوا القرآن الكريم ابتداء وقبل التبحر فى دراسة علومه.. وإلا فإن مهمة المدرس تغدو صعبة حين يتعرض لشرح آية كريمة.. واستنباط ما فيها من إشارات وعبر.. بينما الطالب لا عهد له بالآية المشروحة.. ولو انتهت مدة الدراسة قبل أن يسعد بحفظ القرآن.. فإن الفرصة تفلت من بين يديه.. ثم لا تعود.

وحينئذ فسوف يفقد أخص خصائص التأثير.. وربما واجه فى المستمعين من يحفظ دونه القرآن.. وتلك لحظة من أشق اللحظات فى حياة الداعية.. وعليه أن يتفادى وقوعها.

إن تجربة الحياة تثبت هذه الحقيقة... فقد رأيت فى القرية شابا[1] ربما لم

(١) المرحوم الأستاذ سيد شرشر. والذى صار من بعد وكيلا لوزارة الأوقاف.

تتح له الظروف أن يقرأ مثلما قرأ زملاؤه العاكفون على قراءة ثمار المطابع.. بيد أننى كنت أحس فى حديثه.. بالجملة العذبة.. والتراكيب المشرقة والتعليق المركز الهادف.. وحاولت الكشف عن السر المغيب وراء هذه الظاهر الفريدة.

ولم تطل حيرتى.. فقد عرفت أن صحبته لعالم ضليع فى اللغة يحفظ القرآن. وكان عمله الأثير معايشة أساليبه تطبيقاً وتعليقاً.. هو سر الأسرار فى هذا التفوق فى مجال التعبير..

ولم أتردد ـ وصناعتى الكلام ـ فى أن أدخر ما أستطيع من وقت وجهد.. لأعيش مع العالم الجليل[1] .. لأتلقى عنه شيئاً.. لا أجده بين طيات الكتب!

إن الصحبة المثمرة لحافظ القرآن. تؤتى أكلها ولا ريب.. وتتأكد هذه الثمرة لتظهر على اللسان تعبيراً حسناً إذا حفظنا آياته.. لنروض هذه الألسنة بالحفظ على النطق الصحيح طبعاً لا تطبعا..

إن المتعلم يحفظ قواعد النحو.. وقد يخطئ عند الممارسة العملية.. بينما صاحب القرآن ينطق ـ من خلال الآيات الكريمة ـ الفاعل مرفوعاً.. والحال منصوباً.. وهكذا.. وربما لو ألم ببعض القواعد لحقق نجاحاً أربى من زميله أسير القواعد.. بفضل ما عودته الآيات من صواب..

ومن أجل ذلك الأثر القرآنى المبارك فى القلوب.. وعلى الألسنة.. حاول المغرضون أن يحولوا بين الأمة ومصدر قوتها أن يباعدوا بينها وبين لغة القرآن.. ووقف الغيورون لهم بالمرصاد كاشفين عن سر هذه الحملة المغرضة .

(حاول بعض المخدوعين أن يلووا ألسنتهم بالقول المنحرف، إذ يزعمون أن الأدب العربى شىء لا يتصل برسالة الإسلام وأن الأدب أدب، والدين دين.

لقد كان القرآن بلغته العربية العالية، كتاب البيان الأول فى أدب العرب، فرسم للصياغة الراقية فى بلاغتنا العريقة أعظم أسلوب وأرقاه، وصار متأدبو العرب منذ أشرقت شمسه يرجعون إليه دارسين مستفهمين، يرون طريقته فى

---

(١) المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم عماره والذى اشتهر: بصراف مصر .

الأداء، والتصوير والحوار والإقناع أعلى ما يتطلع إليه عيون المتأملين، ولم يقتصر أثره على النثر بل انتقل إلى الشعر، فجعله بالنصاعة والروعة والتماسك والإيحاء، ودارت الأيام، وأسلوب القرآن يعطى النمط الأمثل للتعبير فى الأدب العربى، حتى اضطر آباء العربية ممن لا يدينون بالإسلام إلى الوقوف عند روائعه، واستظهار كثير من آياته، وما نبغ أديب فى القديم والحديث إلا كان القرآن أعظم روافده، وأشهى موارده. هذه حقيقة جلية، ظلت معتقد الناس فى سالف العصور، حتى نبتت فى مطلع هذا القرآن نابتة خاسئة، نهلت من كتب الغرب ولقنت أراجيف الاستشراق، فأخذت تتنكر للبلاغة والبيان، وترى الديباجة الناصعة والأسر القوى آثارا متخفية تعرض ولا تشترى وتقرأ ولا تحتذى، ثم فاض بها الضغن الكريه، فأعلنت أن الأدب العربى شىء والقرآن شىء ورأت من ذيول الأدعياء من ناصرها بالباطل، فألف الكتب المغرضة، وأنشأ المقالات الزائفة، ليرجع بالعربية إلى لغة الحديث المتساهل وليجعلها ترجمة شوهاء لا شرقية ولا غربية)[1].

وقد تصدى المرحوم مصطفى صادق الرافعى لبعض هؤلاء الذين غمزوا أسلوبه وقالوا:

(لو ترك الرافعى التزامه بالجملة القرآنية لكان ذلك أجدى وأنفع وطار القول إلى الرافعى.

فنهض للرد عليه بما اشتهر به من إقناع وقال فيما قال: «لقد ظهر لى من نور الجملة القرآنية ما لم أكن أراه من قبل حتى لكأنها «ميكرسكوب» يفصح عما يخفى من صغار الجراثيم. ما يكون دقيقاً فيستعظم. وخفيا فيستغلق».

ثم قال: «وعربيتها وفصاحتها وسموها. وقيامها فى تربية الملكة. وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقام نشأة خالصة فى أفصح قبائل العرب. وردها تاريخنا القديم إلينا حتى كأنا منه. وصلتنا به حتى كأنه فينا.

---

(١) النهضة الإسلامية: ١٤ـ ١٧٥. د. محمد رجب البيومى.

وحفظها لنا منطق رسول الله ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه.. حتى لكأن ألسنتهم هى عند التلاوة تدور فى أفواهنا. وسلائقهم تقيمنا على أوزانها)[١].

وقد فند المرحوم الأمير شكيب أرسلان مزاعم هذه الحملة الرامية إلى إماتة لغة القرآن ثم ردها إلى أصلها المتمثل فى إرادة نقض قواعد القرآن الكريم.. ومما قاله فى هذا الصدد: إنهم يريدون هدم الأمة فى لغتها وآدابها. خدمة لمبادئ الاستعمار الأوربى.. إن هذه الفئة تريد حرباً. وتورى بغيرها.. فهى تبغى نفس قواعد القرآن التى هى السد الأمنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الإفرنجية.

وتأتى ذلك من طريق نبذ القديم والبالى. والأخذ بالجديد والحالى. ومن جملة هذه الأشراك: أن القرآن حائل دون القومية العربية. لا يفسح لها مجالا[٢].

وهنا تتضح نوايا القوم.. إنهم: (دعاة إلى اللغة والآداب على شرط ألا يكون قرآن ولا حديث. وأن تكون الصبغة لا دينية)[٣]... وهذا هو مربط الفرس.. كما يقولون.

ومن العجيب أن يتولى كبر هذه الحملة كتاب مسلمون... فى الوقت الذى يتجه فيه زملاؤهم المسيحيون عبر القرآن الكريم يحفظونه ويتدارسونه.. ويرصعون بجواهره أحاديثهم.. حتى ظهر الفرق الواضح بين حافظ القرآن.. ومن لم يلم بشىء منه .

[وقد تساءل الدكتور زكى مبارك فى بعض مقالاته بالرسالة عن السر فى بلاغة أسلوب مكرم عبيد. وركاكة مقالات سلامه موسى.

فوضح أثر القرآن فى ارتفاع الأول.. لأنه يحفظ آياته الشريفة. أما ركاكة سلامة موسى. فناشئة عن عداوته الموغلة لروائع الذكر الحكيم][٤].

لقد تواطأ الأدب الحديث مع الإلحاد على تزيين الرذيلة.. وفرضها فى أسلوب يغرى الفراش الحائر من الشباب. ليسقط فى حمأتها.. وسوف يظل الإلحاد رائج البضاعة ـ وبخاصة فى مجال الشباب ـ ما حافظ على حسن

(١) من نظرات قرآنية للدكتور محمد رجب البيومى.

(٢ ـ ٤) من نظرات قرآنية للدكتور محمد رجب البيومى.

عرضها.. وما بقى المرشد عابس الوجه معقد الأسلوب.. مهزوز التراكيب..

إننا ـ لكى ننتصر فى صراع المبادئ ـ لابد أن نواجه النار.. بالنار.. والريح بالأعصار.. كما يقولون... لنضرب الأدب الملحد بالأدب الإسلامى.. المشرق الديباجة.. وقد آن للدعاة أن يهذبوا أسلوبهم.. لاحتواء شباب يستهويه الجمال.. مهما يكن مصدر هذا الجمال.

وقد حدثنى عالم فاضل أثق به[1] .. مجيباً عن تساؤلى: ما سر جمال أسلوبك؟

قال: قبل أن أبدأ الكتابة أو الخطابة أستغرق بكل مشاعرى فى تأمل مقطوعات أدبية: نثرية أو شعرية.. على أرقى مستوى فى جمال الأسلوب.. لا يهمنى إن كانت القطعة أدباً إسلامياً.. أو أجنبياً.. المهم: أن تكون رائعة الأسلوب.. حتى أتمكن من إفراغ أفكارى فى أبهى حلة تغرى بالتأمل والنظر.. بعد أن تترك هذه القطع الأدبية انطباعاتها المشرقة فى عقلى.. ولسانى.. فيظهر أثرها حتما..

إن الشباب المستهدف من قبل أجهزة الإعلام.. لن يترك المادة الخفيفة السهلة.. الجذابة.. لينطلق رأساً إلى «الفخر الرازى» أو «النسفى» مثلا.. لأن ذلك فوق طاقته.

ولابد إذن من أخذه بالأسلوب الجميل.. عن طريق المدخل الروائى.. أو المسرحى.. لنثير شهيته الراكدة لقراءة.. «الفخر الرازى» وأضرابه.. وسوف يحس بأن فى أمهات الكتب هذه جمالا محجوباً عنه.. فينهض باحثاً عنه.. مسوقاً بما لوحنا به.. وأشرنا إليه.. ليكتشف بنفسه كنوزها.. لقد كان من أصحابه ﷺ شعراء معروفون مثل: حسان بن ثابت. وكعب بن مالك. وعبد الله ابن رواحة من الأنصار.

وقال عمر: علموا أولادكم السباحة والرماية. وركوب الخيل. ورووهم ما يجمل من الشعر.

---

(١) الدكتور محمد سعاد جلال .

وقالت عائشة رضى الله عنها: رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم:

وكانت تنشد قول لبيد:

ذهب الـذين يعاش فـى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجرب[1]

صور بيانية من القرآن الكريم:

والأصل فى ذلك كله هو: القرآن الكريم.. لقد حفل القرآن الكريم بصور بيانية رائعة.. تقدم إليك المعنى فى جو يحملك على الإذعان.. وتشير فى نفس الوقت إلى أن جمال الأسلوب تشريع تفرض علينا الأسوة الحسنة.. أن نقترب منه وإن تقاصرت هممنا عن الوصول إليه فى قمته.. وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم!

يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة ص:٨٦].

فكما أنه ﷺ لا يفرض عليهم أجراً نظير هدايتهم.. فهو أيضاً لا يخاطبهم بأسلوب يثقل عليهم تلقيه.. والانسجام معه.. لكنه يأخذ بأيديهم إلى الجنة.. بلا كلفة فى المال. ولا تكلف فى الحديث.. وذانك برهانان يؤكدان صدقه ﷺ فى دعوته كما يحملان سر نجاحه فى عرضها.

والغريب أن بعض الشعراء اليوم يرهقون أنفسهم.. ويعتصرون قرائحهم فى محاولة لنظم القصيدة على طراز حديث تستطيع به أن تقرأ البيت من أوله.. ثم.. من آخره إلى أوله أيضاً!!

وهذه كل بضاعتهم.. وشارة فهمهم. بغض النظر عن مضمون هذا النظم.. وما يحتويه من أفكار تافهة.. مسفهة.. ولكن القرآن الكريم وهو ينأى بنا عن التكلف.. والتعمل.. والتلفيق.. يقدم إلينا فى نفس الوقت أجمل المبادئ.. التى يشنق جمالها من الحق نفسه وهو أعلى صور الجمال.. والناظر فى القرآن الكريم.. يقع على كثير من هذه الصور البيانية.. التى نضرب لها مثلا قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ

(١) يوسف القرضاوى : ثقافة الداعية: ١١٦.

عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾[الرعد: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[سورة إبراهيم: ٢٤].

مفرق الطريق:

وجمال الأسلوب.. والمعنى فى القرآن الكريم يترك طابعه ولا شك على الخطيب ليعيش فى هذا الجو المشبع بالطهر..

وهذا هو مفرق الطريق بين ما ندعو إليه من أسلوب رشيق.. جذاب.. يعكس صفاء المعنى وجودته.. وبين منهج الأدباء والشعراء الذين يدغدغون العواطف.. ويثيرونها بلا هدف إلا التسلية.. وملء الفراغ..

إن الأديب المسلم ملتزم.. ملتزم بالتوحيد.. فله حرية الكلمة.. ولكن فى إطار هذه العقيدة.. لا يركز فقط على نقاط الضعف الإنسانى.. بل يستثمر معانى القوة فى كيان الإنسان.. لينهض من كبوته.. ويواصل نشاطه..

وفى القرآن الكريم ما يحسم هذا الفرق الهائل بين المنهجين.. وذلك قوله عز وجل:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤].

يقول الإمام النسفى فى تفسير الآية الكريمة:

«نزل فيمن كان يقول الشعر. ويقول نحن نقول كما يقول محمد ﷺ. واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم. و﴿يتبعهم الغاوون﴾ «أى لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض. والقدح فى الأنساب. ومدح من لا

يستحق المدح. ولا يستحسن ذلك منهم إلا الغاوون أى السفهاء».

ومعنى ذلك أن كثيراً من الشعراء ـ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ يستغلون ما للشعر من جرس ورنين مؤثر.. فى التمكين للرذيلة وحمل الناس عليها حملا.. وقد كان لهم جمهور مفتون بهم.. واقع تحت تأثير الكلمة الحلوة الخداعة..

وإذا كان الحديد لا يفله إلا الحديد.. فليس أمام الدعاة إلا تطوير الأسلوب.. وصولا إلى قلوب الناس بالجمال الأصيل.. فى ثوبه القشيب.. وإنقاذاً لهم من شعراء المجون.. الذين يهيمون فى كل واد.. ويأكلون على كل مائدة.. ويمدحون وجه النهار.. ويذمون آخره.. سائرين وراء مزاج متقلب.. يمرغ الفضائل الإنسانية فى الوحل!

ولا بأس من التحايل على النفس الإنسانية ـ وهى كالطفل ـ حتى نأخذها برفق ولين إلى حيث تتحمل مسؤوليتها بعد أن تتذوق طعم الفضائل كما قلنا آنفاً.

إن كثيراً من الأبيات الشعرية ذات المضمون الجاد.. يحتكرها مغنون.. ومغنيات ولها فى القلوب رنين...فلماذا لا نستغل هذه الأبيات ونحن نواجه الناس؟

فالأبيات ملك للغة.. وليست ملكاً للفن يتملك بها الغرائز!

فلنكن كالطائر الذكى ـ على حد تعبير الشاعر إقبال ـ نقترب من الشبكة.. نقرضها فى حكمة.. ثم نلتقط الحب.. ونطير قبل أن يمسك بنا الصياد.. قبل أن يستأثر بنا الفن الهابط ويحتوينا..

وكم لهذه الأبيات من وقع.. ربما أسلمت لها القلوب قيادها.. ففجرت فيها معانى التوبة مثل:

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك ... فإننى أطمـــع فــــى رحـــمتك!

يا قابل الأعذار.. عدنا إلى ظلك.. فاقبل توبة التائبين ـ وفى التعبير عن معنى الاعتزاز بالنفس أمام الظالم:

لست أشكو منك.. فالشكوى عذاب الأبرياء.. وهى قيد.. ترسف العزة فيه والآباء.. أنا لا أشكو.. ففى الشكوى انحناء.. وأنا نبض عروقى كبرياء!

لقد أنشد شاعر ماجن يوما:

إذا العشرون من شعبان ولت فبادر بالشراب إلى النهـــــار

ولا تشرب بأقداح صغـــــار فإن الوقت ضاق عن الصغار

وهكذا.. يوصى نفسه.. وغيره من المجان.. أن يعيشوا ما بقى من شعبان (بالعرض) فيعبوا عبا.. قبل أن يدهمهم الصيام!

وقد استغل الفاقهون لدينهم هذين البيتين فخاطبوا الناس بهما بعد إفراغهما من مضمونهما العابث!

وأراد «بالعشرين» ذهاب أكثر العمر.. وبكثرة الشرب: سرعة التزود بالطاعة قبل أن يوافى الأجل الوشيك!

ولاشك أن المدخل الحصيف.. نجح في تحويل الطريق إلى غاية أخرى أجمل وأبقى. ومازالت أشعار قيس وليلى - وما فيها من صور بيانية - تجرى على لسان المتحابين فى الله تعالى..

رأى الأستاذ الندوى:

وفى محاضرة عن «التربية الإسلامية الحرة» يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى.. مؤكداً ما سبقت الإشارة إليه..

[نرى مع الأسف الشديد أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع فى آداب اللغة. والحصول على تلك المقدرة البيانية. والأسلوب البليغ. الذى يدخل إلى قرارة النفوس.. من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها. وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم. وانحرافاً عن جادتهم... مع أننا نرى أن القرآن الكريم نوه بهذه الحقيقة. وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء. ولكنه أنزل كتابه فى أسلوب معجز وبلسان عربى مبين. ولم ينزله فى لسان عربى مبين فحسب. بل نوه بهذه الناحية فى غير موضوع من مواضع القرآن فقال تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾[الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٦].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

فمعنى ذلك أن ناحية اللفظ. وناحية الأسلوب. وناحية البلاغة مهمة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ الإصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الإخلاص. وعلى ذروة الانقطاع إلى الله. وإلى الربانية الصادقة. كانوا لا يستهينون بهذه الناحية. إنما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام.

ولا أضرب المثل بالنبى ﷺ فى هذه المناسبة لأنه ﷺ أفصح الفصحاء. وأبلغ البلغاء من غير شك. ولكنى أضرب المثل بسيدنا على بن أبى طالب إنه كان فى قمة البلاغة.

ونواصل سيرنا إلى آخر القرون الإسلامية. فنرى أن من الذين تبوأوا القيادة أو الزعامة فى الدعوة الإسلامية.. كانوا على جانب عظيم من البلاغة. ومن فهم نفسية المخاطبين.. وسيدنا عبد القادر الجيلانى ـ العابد الزاهد المتبتل ـ يخاطب الجيل المعاصر فى بغداد. بلسان يحلى فى البلاغة. ويخاطبهم بأسلوب ساحر.. بأسلوب يبلغ إلى الأعماق... بأسلوب لا تزال له الصولة إلى الآن... وهذا كله يعطينا الفكرة عن أهمية الأدب والأسلوب.

إننا إذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الإسلامى العميق.. فعلينا أن نتسلح لذلك.. ونعد له عدته.

[ومعنى ذلك أن جمال الأسلوب فى خطاب الشباب قائم على حقيقة نفسية تؤكد ميل هذا الجيل إلى حب الجمال حيثما كان.. فإذا لم تتجاوب مع هذه الحاجة النفسية. بحث عن الجمال تحت أقدام النساء.. وفى الملاهى.. والحدائق.. فراراً من الجمود الذى لا يساير طبعه.. ولا يغذى روحه.. وقد روى عن أثر الشعر الجميل فى الحمل على الفضيلة:

أن «زيادا» بعث بولده إلى معاوية. فكاشفه عن فنون من العلم. فوجده ملما

بكل ما سأل عنه.

ثم استنشده الشعر فقال: لم أرو منه شيئاً.

فكتب معاوية إلى زياد: ما منعك أن ترويه الشعر؟ فو الله إن كان العاق ليرويه.. فيبر. وإن كان البخيل ليرويه.. فيقاتل][1].

وأساس تأثير الأسلوب راجع بالدرجة الأولى إلى ما للكلمة ذاتها من أثر.. دون أدوات التعبير جميعاً..

فإذا كانت ـ إلى جانب ذلك ـ أخاذة.. زاد تأثيرها ـ وفى معرض التنويه بأهمية الكلمة.. وأيضاً.. فى معرض الرد على الأستاذ «تيمور» الداعى إلى تصوير القصص القرآنى فى لوحات فنية لتكون أبلغ من مجرد الكلام..

يقول الأستاذ محمد المجذوب: إن المعنى الأدبى حين ينتقل إلى الرسوم والتماثيل. يفقد أول ما يفقد روح التأثير. الذى تختص به الكلمة... لأنه يحاول اختصار الآفاق النفسية المتعددة فى منفذ واحد.. هو النظر وحده!

ونحن قد نعجب بمنظر الطبيعة تخطه ريشة ـ فنان ـ لأنه يعرض لنا.. وفى تناسق الأصباغ كل ما يجعل هذه الطبيعة مؤثرة ولكن هذا المنظر نفسه يحبس موحياته فى إطار المعنى الواحد أيا كان هذا المعنى.

وبذلك يقف عاجزاً عن تحقيق المهمة التى يستطيعها الأديب حين يعرض لتصوير هذا المنظر عينه بقوة البيان الفحل.. فلا يقف عند حدود اللون والظل. وإنما يتناول كل منافذ النفس الإنسانية. بما يستخدمه فى هذه العملية من خصائص الفن جميعاً:

اللون.. والتجسيم.. والحركة.. والنغم.. والرمز.. وما وراء ذلك مما تطلقه همسات الحروف من المعانى غير المكتوبة.. إلى ما هنالك من أسرار وأسرار. تجعل الأدب وحده هو صورة الحياة الكاملة بالنسبة إلى الفنون جميعاً.

وما على الأستاذ تيمور[2] وهو القاص البارع إلا أن يجرب ذلك بأن يكلف

---

(١) د. القرضاوى ـ ثقافة الداعية: ١١٦، ١١٧.

(٢) هو الأستاذ محمود تيمور الأديب المعروف وصاحب فكرة إدخال الرسوم للمساجد.

أحد كبار الرسامين تصوير إحدى قصصه الناجحة.. ثم يقارن بينها رسوما.. وبينها كلاما.. ويومئذ سيتعرف عملياً خطأ ما يدعو إليه. إذ يتبين له إلى أى مدى استطاع فن الرسم أن يمسخ معانيه.. وإذا كان هذا سيحدث فى قصص الأستاذ تيمور فماذا يكون الأمر إذا فى قصص القرآن!!

هذا ولا يجوز أن ننسى أخيراً أن الفكرة المرسومة غير الفكرة الملفوظة والمكتوبة:

فللأولى تأثيرها العابر، يدغدغ النفس مرة. أو مرتين أو مرات.. ثم يألفها النظر فتعجز عن الإثارة. أشبه بالسلك الكهربائى عندما ينقطع عنه التيار. فيعود كأى خيط معدنى.. لا يفعل ولا يتفاعل..

على حين تظل هذه الفكرة فى التعبير الأدبى حية - يتجدد إيحاؤها فى النفس بمقدار ما تنطوى عليه من دوافع العبقرية. أو بمقدار ما تكون عليه النفس من استعداد للتلقى. ومن هنا يظل السر الذى يجعلنا نقرأ الآية - من القرآن الكريم - مائة مرة وفى كل مرة تحس لها من الطعم والذوق والانفعال ما يكاد يكون نسيج وحده بالنسبة إلى المرات السابقة.

فلا غرابة إذاً أن يكون تصوير القصص القرآنى - لا كان - نذيراً بالكارثة.. كارثة الفراغ من التأثير الذى اعتاده القارئ أن يستقبله من خلال النظم الفنى الأعلى لهذه المعانى الإلهية][1].

وإذا كان للكلمة هذا التأثير فى صورتها الإنسانية.. فكم يكون سحرها وتأثيرها فى صيغتها الإلهية.. والقرآن الكريم شاهد صدق على ذلك... فكلما كررت المعنى.. يزداد إحساسك بحلاوته.. بل إن شعورك بالمتعة ليربو كلما حدث تكرار.. على ما يقول الشاطبى: «وترداده يزداد فيه تجملا».

إن الخطيب لا يقرر فقط للناس حقائق.. ومن ثم فهو لا يتعامل أساساً مع المقدمات والنتائج.. وإن كان ذلك واردا فى دعوته.. لكنه بالدرجة الأولى يتجه إلى القلب.. إلى إثارة الوجدان.. لينشط.. وينهض إلى تطبيق المبادئ.. بل

---

(١) مشكلات الجيل - محمد المجذوب ص ١٣٥ وما بعدها.

والدفاع عنها..

ومن هنا فلابد من الأسلوب الشيق سبيلا إلى ربط ذلك الوجدان بحقائق الدين المقررة.. وتحويلها إلى واقع ملموس.

(لقد اهتدى الإمام محمد عبده بعد عناء طويل فى رحلته الفكرية إلى أن القلب موضع إقناع المؤمن...والمؤمن لا يتطلب تغلغل العقل كى يقتنع.. ولكنه يتلمس ماء الهداية كى يرتوى).

*****

[إن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعانى اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب فى البلاغة. والتشابه فى البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القد. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحياناً الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف، والتجوز والتعسف وقد جاء القرآن على كثرته وطوله، متناسباً فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر: ٢٣] .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢].

ذلك إلى أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف إليها من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم وأحكام، وأعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق فى التقريظ، ومنهم من يغرب فى وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام.

ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، وهم لا خلاف فى تقدمهم فى صنعة الشعر، ولا شك فى تبريزهم فى مذهب النظم.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها، فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه، وبان الاختلاف فى شعره، ثم تجد فى الناس من يجود فى الكلام المرسل، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا عجيباً، ومنهم من يجود بضد ذلك وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى ذكرناها على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والوصف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما تنصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف.

وهناك شىء آخر، وهو ورود تلك المعانى التى يتضمنها فى أصل الشرعية والأحكام والاحتجاجات فى أصل الدين، والرد على الملحدين، بهذه الأساليب البديعة، وموافقة بعضها البعض فى اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر. وقد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، وبراعة اللفظ فى المعنى البارع أعجب من براعته فى المعنى المتداول المتكرر..

وللقرآن مزية أخرى غير ما تقدم، وهى أنه من المقرر المعروف أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذه الأسماع، وتتشوف إليه النفوس، ويرى وجه رونقه بادياً غامراً سائر ما يقرن به، كالدرة التى ترى فى سلك من خرز، وكالياقوتة وسط العقد وأنت ترى الكلمة فى القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير، فإذا هى غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميزه، وتخصصه برونقه وجماله.

وبعد، فإنك تجد فى كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج، ومعرض رشيق، ونظم أنيق غير متعاص على الأسماع، ولا ملتو على

الأفهام، ولا مستكره فى اللفظ، يمر كما يمر السهم، ويضىء كما يضىء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على الطارق المنتاب، كالروح فى البدن، والنور المسيطر فى الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٢-٤].

السنة المطهرة

فى حياة الرسول ﷺ العملية والقولية نماذج رائعة.. استوعبت شؤون الحياة بكل تفصيلاتها ودقائقها..

وهى فى نفس الوقت بيان لما أجمله القرآن.. من أمور الدين والحياة.. وإذا احتاج الخطيب إلى الارتباط بمواطن الأسوة فى حياته ﷺ.. فهو محتاج أيضاً إلى فتح أبصار الناس وبصائرهم عليها.. تتميماً للفائدة.. لقد كان من رحمة الله تعالى أن أرسل إلينا بشراً رسولا.. فأتاح لنا بهذه البشرية المحكومة بالرسالة فرصة التأسى بأعلى صور الكمال الإنسانى.. ولن يتم ذلك التأسى.. ولن تتحقق القدوة إلا بوقفات واعية متأملة دقائق حياته ﷺ. وتجليتها للناس بما يكشف عن مواطن العظمة فيها..

لقد كنت أستمع إلى بعض الأخوة من فوق المنبر فأحس برجال لا ينقصهم الإخلاص للدعوة.. كما لا تفوتهم الإحاطة بكل شاردة وواردة تتصل بموضوع الخطبة.. إلا أننى فى نفس الوقت أتحسس ملامح الناس فلا أرى أثراً يذكر على قسمات وجوههم.. وفى نظرات عيونهم..

وأروح أبحث مع الباحثين عن سر هذه الظاهرة.. ويهدينى البحث إلى أن الخطيب يسرد الأحاديث سرداً.. ولا يغوص بالناس نحو الأعماق الحافلة بكنوز المعانى والصور..

وأعتقد أن الخطيب الذى يختار من بين الأحاديث الكثيرة.. نصا واحدا.. ثم يعطيه حقه من الدراسة والتأمل.. هذا الخطيب يظل حاضراً فى وعى المستمع.. وتظل فكرته الواحدة.. المركزة.. باقية مع الأيام.. وإنه ليستمع بعدها إلى ألف خطيب.. وألف خطبة.. لكن هذا السيل لا يحجب الفكرة الصائبة.. التى رسبت فى ضمير المستمع وأصبحت فى حياته ذكرى عزيزة.. لا تنسى.

والسنة المطهرة ـ كما هى مصدر الأحكام والقواعد ـ هى كذلك مثل أعلى فى البيان تزود الخطيب بصور منه تجعل لحديثه قيمة. مما يفرض عليه تمليها والوقوف

حيال بيانها الرائع. ليقيس منه ويسير على هداه.

قال مصطفى صادق الرافعى يصف البلاغة النبوية:

هذه هى البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآياتها، وحسرت العقول[١] دون غاياتها، لم تصنع، وهى من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها، وهى على السهولة بعيدة ممنوعة[٢]. ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى إن لم تكن من الوحى، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هى من دليله محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة.

وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها، نبض قلب يتكلم، وإنما هى فى سموها وإجادتها، مظهر من خواطره ﷺ إن خرجت فى الموعظة، قلت: أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة، قلت: صورة بشرية من الروح. فى منزع[٣] يلين، فينفر[٤] بالدموع، ويشتد فينزو[٥] بالدماء. وإذا أراك القران أنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء.

وقال الجاحظ فى وصف كلامه ﷺ:

(هو الكلام الذى قل عدد حروفه. وكثر عدد معانيه. وجل عن الصنعة ـ التصنع ـ ونزه عن التكلف.

استعمل المبسوط فى جانب البسط، والمقصور فى جانب القصر. وهجر الغريب الحوشى ـ غير المأنوس ـ ورغب عن الهجين السوقى. ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم. ولا يحتج إلا بالصدق. ولا يطلب الفلج ـ الغلبة ـ إلا بالحق. ولا يستعين بالخلابة ـ المخادعة ـ ولا يبطئ ولا يعجل).

---

(١) حسرت العقول ارتدت وتخاذلت.

(٢) أى تمتنع على من يحاول محاكاتها.

(٣) منزع ـ هنا ـ أسلوب.

(٤) ينفر بها: يدفعها.

(٥) ينزو: يثب.

وقال الزمخشري: (هذا اللسان العربى كأن الله مخضه وألقى عليه زبدته على لسان النبى ﷺ. فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرحل.. ما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل)[1].

وقال القاضى عياض فى الشفا: (وأما فصاحة اللسان. وبلاغة القول. فقد كان ﷺ بالمحل الأفضل. والموضع الذى لا يجهل: سلامة طبع. وبراعة منزع. وإيجاز مقطع. ونصاعة لفظ. وجزالة قول. وصحة معان. وقلة تكلف... أوتى جوامع الكلم. وخص ببدائع الحكم. وعلم ألسنة العرب.. يخاطب كل أزمة منها بلسانها. ويحاورها بلغتها. ويباريها فى منزع بلاغتها. حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. من تأمل حديثه. وسيره علم ذلك وتحققه).

ويلاحظ اشتمال بلاغته ﷺ على العنصر الأخلاقى.. كاشفا عن زيف بعض الأدباء الداعين إلى حرية التعبير.. على حساب الفضائل.. يظهر ذلك من أدبه ﷺ وتحاشيه عن محاولة الغلب فى مجال القول بأية وسيلة.. ملتزما بقواعد الذوق التى وضع أصولها وقعد قواعدها.

وإنك لتلاحظ طرفا من هذا الأدب العظيم فيما يروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال للنبى ﷺ: لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم. فما سمعت الذى هو أفصح منك.

عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**»[2].

---

(١) السجل بفتح السين وسكون الجيم الدلو. فيض القدير فى شرح الجامع الصغير ٣٢/ ٤٢.

(٢) رواه ابن السمعانى فى أدب الإملاء قال العلامة المناوى تعليقا على هذا الحديث قال: «ابن السمعانى» الإمام أبو سعد فى كتاب (أدب الإملاء) أى إملاء الحديث من جهة صفوان بن مفلس الحنطى عن محمد ابن عبد الله عن سفيان الثورى عن الأعمش (عن ابن مسعود) قال قال رسول الله ﷺ «**إن الله أدبنى فأحسن أدبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾**هذا سياق رواية السمعانى بحروفه فتصرف فيه المؤلف كما ترى قال الزركشى حديث «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» معناه صحيح لكنه لم يأت من طريق صحيح وذكره ابن الجوزى فى الواهيات عن على فى ذيل حديث وضعفه وأخرجه بطرق كلها تدور على السدى عن ابن عمارة الجوانى عن على وفيه فقال يا رسول الله إنك تكلم الوفود بكلام أو لسان لا نفهم أكثره فقال «**إن الله أدبنى فأحسن تأديبى ونشأت فى بنى** =

من خصائص كلامه ﷺ:

ويزيد الجاحظ فصاحته ﷺ وضوحا بقوله: (كلامه ﷺ هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه. وجل عن الصنعة. ونزه عن التكلف. وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: **﴿وما أنا من المتكلفين﴾**.

فكيف وقد عاب التشديق. وجانب أصحاب التقعير. واستعمل المبسوط فى موضع البسط. والمقصور فى موضع القصر. وهجر الغريب الوحشى. ورغب عن الهجين السوقى. فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة. ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق.

وألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام. ومع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة. ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب.

بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير. ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم. ولا يحتج إلا بالصدق. ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق... ولا يستعين بالخلابة. ولا يستعمل المواربة. ولا يهمز ولا يلمز. ولا يبطئ ولا يعجل. ولا يسهب ولا يحصر.

وما سمع كلام قط أعم نفعاً. ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً. ولا أكرم مطلباً. ولا أحسن موقعاً. ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن

= فقال له عمر يا رسول الله كلنا من العرب فما بالك أفصحنا فقال **«أتانى جبريل بلغة اسماعيل وغيرها من اللغات فعلمنى إياها»** وصححه أبو الفضل بن ناصر.

قال المؤلف وأخرج العسكرى عن على قال قدم بنو فهد بن زيد على المصطفى ﷺ فقالوا أتيناك من غور تهامة وذكر خطيبهم وما أجابهم المصطفى ﷺ قال فقلت يا نبى الله نحن بنو أب واحد ونشأنا فى بلد واحد وإنك تكلم العرب بلسان لا نفهم أكثره فقال **«أدبنى ربى»** إلى آخره وأخرج ابن عساكر أن أبا بكر قال: يا رسول الله طفت فى العرب وسمعت كلام فصائحهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك قال **«أدبنى ربى ونشأت فى بنى سعد»**. قال إسناده ضعيف وقال السخاوى ضعيف وإن اقتصر شيخنا يعنى ابن حجر على الحكم عليه بالغرابة فى بعض فتاويه وقال ابن تيمية لا يعرف له سند ثابت.

فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ١ صـ٢٢٤، ٢٢٥ ط. الأولى التجارية الكبرى الأولى ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

معناه ولا أبين فى فحواه. من كلامه ﷺ.

يقول العقاد: كان محمد ﷺ مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ. كانت له فصاحة اللسان واللغة. وكانت له المقدرة على تأليف القلوب. وجمع الكلمة. وكانت له قوة الإيمان بدعوته. وغيرته البالغة على نجاحها.

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام.. ولهيئة النطق بالكلام. ولموضوع الكلام: فقد يكون الكلام فصيحاً. وهيئة النطق غير فصيحة... أو يكون الكلام والنطق به فصيحين.. ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب.

قال ابن اسحاق وكان رسول الله ﷺ: يقول لأصحابه **«أنا أعربكم أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر»**[1].

فله من اللسان العربى أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هى فصاحة اللسان والكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً فى بنى سعد.. ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم.. أو يكون صوته غير محبوب.. أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل.

أما محمد: فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه.

وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت: ما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يسرد كسردكم هذا. ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل. يحفظه من جلس إليه:

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه ﷺ من عيوب الحروف ومخارجها. وقدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها. فهو صاحب كلام سليم. فى منطق سليم. ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً. مسترضعاً فى بنى سعد. ويكون كلامه سليما ونطقه سليما...ثم لا يقول كلاماً يستحق أن يستمع إليه السامع فى موضعه.

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير. جـ٢ صـ٢٧٧ط. الأولى مكتبة النصر الرياض ١٩٦٦م.

وهذا أيضاً تنزه عنه ﷺ فى فصاحته السائغة فى شتى نواحيها.

فما من حديث له حفظه الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه أوتى حقاً «جوامع الكلم». ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزقه من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام[1].

ميزان الكلام:

وكما كان ﷺ أسوة حسنة فى باب الأخلاق.. فكلامه كذلك أسوة حسنة فى باب الفصاحة والبيان.. وهو الميزان العادل.. الذى يميز به البلغاء بين الجيد والردىء من صور الكلام.

وحين عرف البلغاء فصاحة الكلام كانوا متأثرين بعد كلام الله عز وجل بحديث رسول الله ﷺ.

روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخلت على عثمان رضى الله عنه. وكنت قد رأيت فى الطريق امرأة تأملت محاسنها. فقال عثمان رضى الله عنه: يدخل علىّ أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينيه... فقلت: أوحى بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا.. ولكن تبصرة وبرهان. وفراسة صادقة.

فلم يشأ رضى الله عنه أن يواجه أنسا بفعلته.. وإنما لجأ إلى أسلوب التعميم تأسيا برسول الله ﷺ.

ومن تأمل ما سبق تتضح الملامح الآتية:

١ ـ أوتى ﷺ جوامع الكلم. فكان يعبر باللفظ القليل عن المعانى الكثيرة.

٢ ـ وقد برئ من التكلف. والسجع الممقوت فجاء حديثه واضحاً بسيطاً بلا غموض أو تعقيد.

٣ ـ رعاية مقتضى حال المستمع.

٤ ـ البعد عن اللفظ الغريب إيثاراً للفظ المأنوس المألوف. بقدر ابتعاده عن الألفاظ المبتذلة.

---

(١) عبقرية محمد.

٥ ـ من أجل ذلك كان كلامه موفقاً واصلا بالحجة إلى موطن الإقناع فى نفس الإنسان بلا تجريح. . وإنما هو الحق يطلبه. والباطل يدحضه. مجاوزاً صور المهاترة واللغو.

٦ ـ كان أسلوبه صافياً كنفسه الصافية بريئاً من اللف والدوران واللجوء إلى الألفاظ البراقة بلا مضمون شريف.

٧ ـ وبهذه الأمور وغيرها كان حديثه ﷺ شريف المعنى. حسن الأسلوب. ومن ثم صار أفضل الكلام على الإطلاق بعد كلام الله عز وجل.

٨ ـ كان كلامه ﷺ أصيلا: لا يتبع غيره. . بل يتبعه غيره.

٩ ـ وهو دائم التأثير فيمن يسمعه. . على نحو يتزايد كلما سمعه.

١٠ ـ وأسلوبه جزل قوى. . ومع هذا فهو واضح كل الوضوح.

١١ ـ وأهم مميزاته: الإيجاز. . أسوة بالأنبياء الذين كان كلامهم نزرا وذلك قوله ﷺ: **«إنا معاشر الأنبياء لكاء»** أى قليلو الكلام:

١٢ ـ وكأن الله تعالى كما قال الزمخشرى مخض اللسان العربى. ثم ألقى زبدته على لسانه ﷺ: [فما من خطيب يقاومه إلا نكص مفكك الرجل. . وما من مصقع يناهزه إرلا رجع فارغ السَّجْل .

وقد كان يخاطب القوم بلغتهم:

أ ـ سأله رجل: أيُدايك ـ يماطل ـ الرجل امرأته ـ فقال ﷺ: إذا كان ملفجا ـ محتاجا أثقله الدين ـ لما خاطبه الرجل بالغريب. . كان الجواب بالغريب.

ب ـ قال ﷺ لعطية السعدى:

[فإن اليد العليا هى المنطية ـ المعطية ـ واليد السفلى هى المنطاة] «المعطاة».

قال عطية: كلَّمنا بلغتنا: أى: فى الإنطاء بمعنى الإعطاء.

قالت أم معبد: رأيت رجلا: إذا صَمَت. . فعليه الوقار. . . وإذا تكلم. . سماه وعلاه البهاء. . . وكأن منطقه: خزرات نظمٍ يتحدرن. . . حلو المنطق. . فصل. . لا نزر ولا هذر. . . أطهر الناس. . وأجملهم من بعيد. . . وأحلاهم

وأحسنهم من قريب. . . له رفقاء يحفّون به . . إذا قال. . استمعوا لقوله. . وإذا أمر. . تبادروا لأمره. . .محفود. . محشود ـ يطيعه أصحابه مسرعين. ويحتشدون حوله. . لا عابث . . ولا مفنَّد أى: متزن فى كلامه. لا يقول ما يعاب به].

يقول الرافعى: لا تزايله الحكمة. ولا تخذله الروية، ولا يباينه الصواب: بل يخرج: رصينا غير متهافت. . متسقا غير متفاوت. . ولا يغلب على النفس التى خرج منها. . بل تغلب عليه ولا تسترسل به المخيلة. . بل يضبطه العقل. . .ولا يتوثب به الهاجس. . بل يحكمه الرأى. . لا يتدافع من جهاته. ولا يتعارض من جوانبه. . بل تراه على استواء واحد. . فى شدة وقوة. واندماج. وتوثيق .

وإذا كانت حروف العربية دقيقة فى مخارجها تقتضى رياضة خاصة لكنه ﷺ ولد عليها. إنه الاعداد الروحى والتربية الإلهية.

ويظهر ذلك من أحواله عند تلقى الوحى الذى يرتفع بحياته إلى أفق أعلى. . إنه من الأحياء. . لكن روحه تنغمس فى النور فتخرج الكلمة كلمته هو. . وكأنما ألقى فيها النور.

الأسلوب النبوى والأسلوب البشرى :

لقد كان التوفيق الإلهى. . وكان القرآن الكريم. . ثم البيئة التى نشأ فيها. . كل أولئك جعل من أسلوبه ﷺ نموذجا فريدا. . دون ما اصطلح عليه البشر من فنون الكلام. .

[إن دراسة أى نص أدبى لا تعدو أن تكون معالجة لنص بشرى

يستطيع الكاتب أن يغوص فيه بما معه من وسائل وأدوات. وبما يستطيعه من معايشة لصاحب النص.

ولكن الأمر مختلف بالنسبة للبيان النبوى؛لأن فيه جانبا من الوحى: فهو وإن كان كلام بشر. فإن معانيه ومقاصده كلها تختلف عما فى كلام البشر من معان ومقاصد.

يضاف إلى ذلك: تعدد روايات الحديث الواحد: بزيادة أو نقصان. وتقديم وتأخير. . واختلاف فى الصيغ والألفاظ].

أحداث التاريخ:

يحفل التاريخ الإنسانى ـ والإسلامى بخاصة ـ بمواقف ومشاهد.. لم تستنفد أغراضها بمجرد وقوعها فى زمنها..

بل بقيت عامرة بدروس وعبر ما أحوج الأحياء إلى تدبرها.. وعلى ضوء ما تشع تجربتها يرى الناس طريقهم.. فى صحبة هذه الدروس وتلك العبر.. ثم يمضون فى حياتهم على هداها.. يحذرون فى نفس الوقت التورط فى مثل ما وقع من أخطاء أسفرت عنها تجارب الإنسان.. وبذلك يمارسون حياتهم أكثر صواباً.. وأقل عابا.

والخطيب الناجح هو الذى يعيش هذا التاريخ.. ويسبر غوره.. ليحاكم الحياة الجارية إلى قانونه.. مبشراً ومنذراً.. وله من القرآن الكريم خير معين: فعندما ذكر القرآن الكريم أخبار الأولين لم يكن يهدف إلى التسلية وإمتاع الأسماع.. بقدر ما كان يستهدف لفت القلوب إلى ما فى هذه الأخبار من قواعد وفوائد.. وأنه ـ فى سبيل ذلك ـ يطوى من القصص ما لا صلة له بجوهر القضية المعروضة.. مكتفياً بما يحقق للحياة الجارية سعادتها.. فى ضوء التأسى بما فى قصص الأولين من عبرة لأولى الألباب.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

إن واجبنا أن نعرف الناس بما كان.. ليواصلوا السير إلى ما ينبغى أن يكون.

لقد كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم مثلا علياً فى دقة الفهم وأدب التلقى.. وكانت قلوبهم مشدودة إليه ﷺ.. ثم إلى الصحابة من بعده: تسأل.. وتفهم.. وتطبق.. وعندما خلت هذه القرون الأولى.. طرأت على الحياة الإسلامية عوارض الضعف والخمول.. فلم يكن المسلمون على نفس مستوى آبائهم..وضعفت لديهم ملكة الفهم العميق للدلائل والبراهين.. وطريقة علاجهم.. لا يتم إلا بعرض نماذج لهؤلاء الرجال الذين سبقونا بالإيمان.. ليروا فى هذه النماذج صورة الإسلام مجسدة.. تجسيداً يغنى عن الدليل.. ويحقق بالقدوة الحسنة ما تعجز أبلغ الخطب المجردة عن تحقيقه.. فليفتح الخطيب لهؤلاء الناس كوة يشمون من خلالها عبير البطولة.. والفداء.. والوفاء.. وليقطف لنا

من تاريخنا الإنسانى زهرات يانعات ترطب جفاف الحياة.

إن بعض الناس يرفض هذه العودة إلى تاريخ الصحابة ومن تبعهم بإحسان.. وكأنما يحسون بوخز الضمير فى أنفسهم.. هذا الضمير الغارق فى حمأة المعاصى ويجد من التذكير بهذا التاريخ إحراجاً وعتاباً.. وهناك مؤامرة مستمرة حتى لا نعود إلى ذلك التاريخ المجيد... فإذا أمرنا القرآن الكريم بالسير والنظر فى مصارع الغابرين فى مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾[النمل: ٦٩].

وإذا بدأنا نلتزم بالهدى القرآنى.. حاولوا التشكيك وقالوا: منهج قد استنفد أغراضه..

وإذا تمثلنا قواداً عظاماً صنعوا التاريخ قالوا: لقد كانوا طلاب دنيا.. دخلوا الأندلس لسلب جواهر الأديرة!.

ثم قالوا: إن العروبة مشتقة من العربة!.. إنها دائماً تابعة.. مشدودة إلى حيث يراد لها!.. ثم أرادوا للهوة أن تتسع فقالوا: آشورية.. فرعونية.. فينيقية حبشية! والمهم أن نرضى بالواقع.. وننسى الماضى.. المجيد.. ونحن مطالبون. بإحياء هذا التراث الفريد.. فى عصر ترصد فيه الميزانيات لإحياء تراث أمم لا تملك معشار ما نملك من قيم وتقاليد..

واقع الحياة:

قد يعمد الخطيب إلى بطون الكتب ينقل منها.. ثم يصب فى آذان الناس صباً! يفعل ذلك.. بينما البيئة من حوله.. وأحداث مجتمعه تعج بمختلف الأحداث الحية.. التى يعيشها الناس فعلا.. والتى يمكن أن تستغل أحسن استغلال لشد انتباه الناس.. من جهة..

ومن جهة أخرى هى فرصة متاحة لعلاج الأمراض السارية فى أوصال المجتمع فعلا.. والخطباء الهاربون من واقع مشاهد.. واقع يفجر أسئلة فى عقول الناس باحثة عن أجوبة مقنعة.. ولا تهدأ حتى تصل إلى قرار..

هؤلاء الخطباء يديرون معاركهم الكلامية على صفحات الكتب ولا يحققون نصراً إلا فى أدمغتهم فقط! أما الناس.. فهم فى واد آخر مشغولين بقضاياهم

الملحة.. وأرضهم البكر التى لم يرتدها داعية ذكى جسور!

وعلى سبيل المثال: يقرأ الناس الصحف والمجلات.. وفيها ما فيها من تجارب الحياة وقصصها الواقعية.. ومطلوب منا أن نقرأ ما يقرأه الناس.. وأن نقف بهم أحياناً حيال موضوع تحدثت عنه الصحف.. لنتناوله من وجهة نظر إسلامية..

ومن الغريب أن يزور الخطيب مقالة لا تشغل بال المستمع.. وأنباء الحرب العراقية الإيرانية مثلا يملأ طنينها الآذان! فبأى أذن يسمع الناس؟ وبأى عقل يلاحقون.. وآذانهم.. وعقولهم مشدودة إلى أحداث تهز العالم كله؟!!.

ثم إن المشاهد الكونية.. وصور الطبيعة مجال فسيح يعطينا وسائل إيضاح تجسم المعانى المجردة.. وحسن استغلالها يعين على أمر الله تعالى..

والداعية الناجح هو الذى يشاهد ببصره وبصيرته معاً.. ثم يختار من أحداث البيئة قضاياه.. ومن مشاهد الطبيعة ألواناً يظلل بها حديثه.. ليتمكن من الوصول إلى مكان التأثير فى قلوب تفتح أبوابها لكل خطيب يشاركها حياتها.. ويضرب باليد الصناع على أوتارها.. فإذا هى تجود بأجمل ما فى القلوب من عواطف الخير.

(إن واقع الحياة اليومية هو تاريخ الإنسانية الحاضر. وهو مستودع أخطائها وصوابها.

فإذا أخذ الداعية مادة حديثة من صميم ما يجرى فى هذه الحياة. وتحدث عن صوابه وخطئه. وصور كلا فى صورته الطبعية الدارجة. وعالجه بروحه الربانى. ووزنه بميزانه الإلهى. فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة.

وسيجد أن كلامه قد غمر الأسواق. وسيطر على الأندية. ودخل البيوت. واستقر مع القراء فى المخادع.. لأن الحياة تولت حمله إلى كل ذلك)[1].

ولأن جسراً من الثقة ربط بين المستمع وخطيب لا يحدثه من برجه العاجى.. وإنما يدور معه فى فلك.. ويعيش ذات الحياة التى يحياها.

---

(١) تذكرة الدعاة.

قال الفارابى: إن أنفع الطرق التى يسلكها الخطيب:

تأمل أحوال الناس. وأعمالهم وتصرفاتهم.. ما شهدها وما غاب عنها. ما سمعه أو تنامى إليه منها.

وأن يمعن بالنظر فيها. ويميز محاسنها ومساوئها. ويبين النافع والضار لهم منها ثم ليجتهد فى التمسك بمحاسنها. وحض الناس على طلبها. لينالوا من منافعها[١].

إن دراسة طبيعة الجماعة تعين الخطيب على تعرف ميولها ومتجهات هذه الميول.. وبالتالى تحديد المسار الموصل إلى امتلاك ناصيتها[٢].

المشاهد الكونية ـ وتوجيه الشباب:

يرى المستشرق «زويمر» ـ وهو يخطط لهدم الإسلام ـ ضرورة التركيز على الشباب فى محاولة لعزله عن دينه.. باعتبار أن الشباب طاقة الأمة.. ومستقبلها.. فإذا استطاع تفريغ قلبه من حقائق دينه.. وهى مصدر طاقته.. فقد جرده من سلاحه الماضى.. وحرم الأمة من عدتها.. وأملها المرموق.. وإذا كان الإنصاف يفرض علينا مواجهة الحديد.. بالحديد.. والإعصار بالأعصار.. والفكرة بالفكرة.. فقد حان الوقت للتعامل مع شبابنا على نحو يخلصه أولا من ذلك الشرك المنصوب.. ثم تزويده بحقائق دينه.. بأسلوب يتجاوب مع طبيعته.. تسامياً إلى أعلى.. وقبل أن ينفرط عقده.. ويضيع منا فى دوامة المكر المبيت.

الاعتراف بالواقع:

يقول المثل الصينى:

إن شجرة الأرز لا تثمره مطبوخا كما وأنها لا تثمر إلا الأرز.. ولن تستطيع حملها على إثمار شىء آخر.. ففى إمكانك ألا تزرع الشجرة أولا..

لكنك إذا زرعتها.. ثم أهملتها فلن تثمر إلا الشوك.. فلا تلومن الشجرة.. وعاتب نفسك أنت..] وهكذا الشباب: إنه حقيقة واقعة.. تفرض نفسها.. ومقاليد الأمور توشك أن تكون بين يديه.. فإذا أوقعناه فى التناقض والتمزق..

(١، ٢) الخطابة: ٥٤.

بين ما يتلقاه فى البيت.. وما يسمعه أو يشاهده فى المدرسة والمجتمع.. فإنه سوف يثمر الشوك.. نتيجة طبيعية.. لظروف تربى فيها غير طبيعية!

والاعتراف بواقع الشباب.. ثم الاغتراف من طاقته عصارة دوائه.. يوفر علينا وعليه الكثير من المتاعب.. والكثير من المال أيضاً..

وماذا يقولون عن طبيعة الشباب؟

تقول التجربة اليومية المكرورة فى حياتنا: لا بأس أن يضطرب الموج فى البحر المتدفق.. ولا بأس أن تهتز أوراق الشجر فى مهب العواصف الهوج.. ومن الطبيعى أن ترتفع الحرارة فى قلوب تدق بسرعة.. إنهم فى مقتبل العمر.. وفى زمن يعتز فيه الإنسان برأيه.. ولا يصغى بالقدر الكافى لنصائح الآخرين.. والحركة الموارة فى أعماقهم تسوقهم هنا.. وهناك فى اندفاع وراء ما يحقق الذات..

والطاقات المذخورة لا تجد سبيلها إلى التعبير السليم.. وعلى مفترق الطرق.. بين قلوب ناشز.. وواقع عاجز عن تلبية أشواقهم يحدث الصدام.. ويتطاير الشرر.. وعلينا أن نستغل هذه المعركة لصالح الشباب نفسه.. انتزاعا للدواء من مكمن الداء!

إن الشباب يحب الجمال.. ولا بأس!.. انزل معه إلى الحقل الأخضر.. متأملا معه جمال الحياة.. لا تخاطبه كفيلسوف متجرد.. فمن الصعب عليه أن يترك مجاله الطبيعى.. ويتبعك.. ولكن.. قف به حيال النهر الجارى.. وبين هبات النسيم. وعلى البساط الأخضر الممتد عبر الأفق النائم فى أحضان الطبيعة.. ومن الطبيعة.. إلى حقائق الشريعة!

ارتفع به من هذا الذى يراه ببصره من مشاهد.. ثم ساعده على تفتح بصيرته لتقرأ ما وراء هذه السطور.. ما وراء هذا النهر.. وتلك الحشرة.

إنها جميعاً تحدثه عن الحق سبحانه.. إنها ليست فقط ملهاة يملأ بها ناظريه.. لكنها شواهد تأخذ بيده إلى الأفق الأعلى.. والذى يليق به كإنسان..

إن الدماغ يستطيب تنوع الأبحاث.. فينسجم..ويستعيد استساغة الفكرة...

والتفكير والنمط الواحد. يكده ويجهده. مثله فى ذلك مثل الأذن:

تمج النغم الواحد المتواتر.

ومثل عضلات القدم التى يرهقها هبوط المنحدر السحيق. كما يضنيها صعود المرتقى الطويل. لذلك يجب أن نقدم لأدمغتنا دراسات متنوعة. لتحتفظ بجديتها ونشاطها[1].

وفى الطبيعة الساجية.. الخضراء هذا الغذاء المتعدد الألوان والطعوم.. فلنتأمله.. ولنتخير منه ألواناً رائقة نقدمها للناس طعاماً شهياً.. لا تمتلئ به البطون.. ولكن.. نملأ به العيون.. سروراً يترك آثاره على الأخلاق.. والسلوك..

مثل ـ من التاريخ:

عندما وقف الإمام الشافعى رضى الله عنه أمام شجرة التوت.. فماذا لفت نظره منها؟

إن الطفل الصغير يحلم بما فيها من ثمر شهى.. والنجار ينسق منها بخياله بابا.. أو نافذة.. والحران المكدود ـ يحب فيها الظل الوارف.. وهكذا.. كل يغنى على ليلاه!

بيد أن الإمام الشافعى رضى الله عنه.. يتجاوز هذا الأفق الضيق.. المحدود.. لينتقل من الشجرة إلى منشئها سبحانه وتعالى.. من الطبيعة.. إلى حقائق الشريعة.. لقد قال: هذا شجر التوت: لونه واحد.. وطعمه واحد.. ومع ذلك: يأكله البعير فيخرج البعر.. ويأكله الغزال فيخرج المسك.. ويحط فوقه النحل.. فيسيل عسلا مصفى.. ويأكله الدود.. فيخرج الحرير.. وهو شىء واحد.. فتبارك الله أحسن الخالقين!

مع فيلسوف الإسلام «إقبال»

فى مجال الطبيعة:

نشأ الشاعر الهندى المسلم «إقبال» فى بيئة.. وظروف كان من المتوقع أن

(١) د. صبرى القبانى ـ طبيبك معك.

تجرفه بعيداً عن الإسلام.. ولكنه على حد تعبيره.. نجا من سحر هذه الجواذب الأرضية كما نجا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. من النار!

لقد نصبت له الشباك.. بيد أنه قرض الحبل.. والتقط الحبة.. ثم طار.. ولم يدركه الصياد الماهر؟!

لقد نشأ في:

١ ـ بلاد بعيدة عن مهبط الوحى.

٢ ـ وتحدر من سلالة برهمية قريبة العهد بالإسلام.

٣ ـ وفى بلاد كان يحكمها الإنجليز.. ويتحكمون فى مقاديرها عسكرياً وفكرياً.

٤ ـ فالثقافة.. والعلوم.. كلها غربية صبغت الحياة كلها هناك..

٥ ـ ومع ذلك. لم يفلت فقط من جاذبيتها.. لكن الشاب صاحب الثلاثين ربيعاً.. يتقدم خطوات أخرى على طريق الكمال البشرى.. فالتهب فى قلبه غرام عارم بالإسلام ونبى الإسلام.. وبلغت ثقته بالأمة الإسلامية حد التشبع.. فى وقت لم يكن فى الأفق تباشير هذا الفجر القادم.. الذى يحلم به الرجل..

وفى الوقت الذى ذهب بعض شبابنا يرقص فى مواخير أوربا.. يبحث عن الحب.. فى الوحل.. يبحث عن النشوة.. فى صهباء أوربا.. يبحث عن الأدب والشعر فى نوادى الليل..

فى هذا الوقت.. يتجه «إقبال» الرجل.. الهندى.. الأعجمى إلى القبلة.. إلى مهبط الوحى الأعلى..ووقف يبكى على الأطلال الإسلامية شاعراً.. وخطيباً.. فكان فى ضمير الأمة الإسلامية نشيداً عذب الرنين.. قوى الأداء... وبدت بصماته واضحة.. وبخاصة فى مجال الشباب.

وقد وصلت به المغالات بكرامة المسلم وشخصيته حداً لفت نظره فيه إلى ضرورة أن يغالى بقيمته.. ويرفع من ثمنها جدا.. حتى لا يستطيع شراءه إلا ربه سبحانه وتعالى.. ويعجز غيره من الأعداء. عن دفع هذا الثمن!

وتأمل قوله وهو يعى على الشباب غفلتهم عن منبع القوة والحياة:

وذلك قوله: إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين. والمحتكرين للعلم. ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً.

إن الكتاب الذى هو مصدر حياتك. ومنبع قوتك.. لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة. فتقرأ عليك سورة «يس» لتموت بسهولة.

فواعجباً!.. قد أصبح الكتاب الذى أنزل ليمنحك الحياة والقوة.. يتلى الآن لتموت براحة وسهولة!]

ثم يضع المسلم وجهاً لوجه أمام هذا المحيط الزاخر بكنوز الحق فيقول: (إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق. فى ضميره الحياة وفيه نهاية كل بداية وبقوته كان على فاتح خيبر).

لقد انتهت به دراسته للفلسفة.. إلى إعلان إخفاقها فى حل مشكلات الحياة.. وإن الدين هو المنقذ من الضلال.. دون سواه من مذاهب الأرض.

[عرف الشاعر صديقاً له من الهاشمين. قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً. وتزلزلت عقيدته الإسلامية. فكتب إليه محمد إقبال قصيدة يقول فيها:

أنا رجل ـ كما تعرف ـ أنتهى فى أصلى إلى سومنات ـ معبد وثنى بالهند ـ وكان أبى من عباد اللات ومناة.

وأن أسرتى عريقة فى البرهمية. ولكن يجرى فى عروقك دم الهاشميين. وتنتمى إلى سيد الأولين والآخرين.

وقد امتزجت الفلسفة بلحمى ودمى. وجرت منى مجرى الروح. أنا. وإن كنت لا أحس شيئاً. فلا شك أنى نزلت فى أعماق هذه الفلسفة. وتغلغلت فى أحشائها. وبعد ذلك أقول:

إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة. وإنها لا تزيد صاحبها إلا بعدا عن صميم الحياة. وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل.

هذا «هيجل» الذى تبالغ فى تقديره.. إن صدفته خالية عن اللؤلؤ. وإن

نظامه ليس إلا وهما من الأوهام. لقد انطفأت شعلة القلب فى حياتك أيها السيد! . . وفقدت شخصيتك فأصبحت أسيرا . .

إن البشرية تريد أن تعلم: كيف تنفق حياتها . . وكيف تخلد شخصيتها . . إن بنى آدم يطلبون الثبات . . ويطلبون دستور الحياة].

لقد عايش إقبال الشباب بين مروج الطبيعة بأزهارها . . وأطيارها وفجر فى أعماقهم معانى عن طريق ما يرون ويسمعون فى دنياهم . . وقبل أن نصاحب إقبال فى رحلته تلك ـ والتى نقدمها نموذجاً لكل راغب فى هداية الشباب ـ نلفت النظر إلى الأساس القرآنى لما ذهب إليه . . فالله سبحانه وتعالى يضرب الماء . . والزبد . . مثلا للحق والباطل فى قوله تعالى:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾[الرعد: ١٧].

فالحق سبحانه وتعالى يسوق إلينا الحقائق عن طريق مجالى الطبيعة المعروضة بين أيدينا . .

والآيات القرآنية الكريمة تدعونا إلى تأمل مشاهدها فى استبصار يقودنا إلى الحق سبحانه . .

وقد أعلن «إقبال» رفضه للفلسفة طريقاً إلى الله تعالى . . وما زال وفيا لمبدئه فى العودة إلى القرآن . . كتاب الله . . وإلى الطبيعة . . مجلى عظمته سبحانه . . تفجيراً لمعانى الحب والجمال فى نفس الإنسان . . وذلك هو الطريق المأمون . . الموثوق به . . لحل مشكلات الإنسان مع نفسه . . ومجتمعه . . وخالقه سبحانه . . ولكن الفلسفة لا تساعدهم فى ذلك.

وبالعكس من ذلك: إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم. واستيقظ الكون.

إن الدين هو الذى ينظم الحياة. وإنه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد ﷺ. فعليك أيها السيد بتعاليم جدك ﷺ.

إلى متى يا ابن على «رضى الله عنه» تقلد أبا على (ابن سينا) إذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشى رسول الله ﷺ خير لك من القائد البخارى «ابن سينا»[1].

نماذج وصور:

وإذ يكفر إقبال بجفاف العقل.. وجمود الفلسفة السائرة على أرجل خشبية فانه يأخذنا إلى البديل.. إلى نداوة الطبيعة.. وأنسها.. لنرى آثار قدرته تعالى وعظمته.. ويرى فيها الشباب بخاصة.. ما يسوقهم إلى مستقبل أفضل.. لو كانوا يعلمون.

فى محراب الطبيعة:

قرأت خبر مدرسة احتفلت بعيد الربيع فى «ملهى ليلى»! وبدل أن يصطحب «المربون» تلاميذهم عبر الطبيعة.. ليغترفوا منها معانى فى الجد.. والرجولة.. والحرية.. يؤثرون الاجتماع فى مكان يميت هذه المعانى الكبار.. فى صدور غضة.. سريعة التأثر بما ترى.. وما تسمع.. وما تحس..

أى أنهم يزودون التلاميذ بكل ما يجعل من التربية أمراً صعباً.. ويفسد عليها أغراضها الكريمة.. ثم يجأرون بالشكوى من ضعف التلاميذ الأخلاقى.. وهم الذين مهدوا له تمهيداً!

ولكن إقبال يصطحب الشباب إلى مشاهد الطبيعة.. ثم يقف به حيال ما ينطق به لسان حالها من معانى الاستقلال والحرية.. والعبودية.. وغيرها.. استمع إليه وهو يمثل معنى العبودية والحرية والاستقلال والتبعية:

(الماء الراكد فى الترعة الصغيرة.. آية الرق والعبودية.. والنهر الجارى السيال.. آية الاستقلال والحرية).

من أجل ذلك.. لم يكن يعجب بالنهر الهادئ المنساب.. بل يأسره مشهد

(١) روائع إقبال: ٦٤، ٦٥.

«النافورة» التي تدفع الماء في قوة!

وفي سبيل التمكين لهذه المعاني يختار لها من الطيور ما يعبر عنها.. ويعكس صورتها:

إنه يترك البلبل لأنه يقضي نهاره يغني.. باحثاً عن الحدائق والبساتين.. ثم يختار (العقاب) رمزاً لها.. لأنه:

١ ـ يقطع البوادي والصحاري القاحلة..

٢ ـ أسرع طيراناً.

٣ ـ أعظم إقداما..

٤ ـ يتسنم القمم العالية..

٥ ـ لا يأكل إلا ما يصطاده بنفسه.. لا ما يصطاده غيره..

٦ ـ معتز بنفسه.. فلا يلتفت يميناً أو شمالاً.

وكذلك.. المسلم.. إنه يناديه قائلا: ترفع أيها المسلم.. ابحث عن قلب النمر.. عن عين الصقر.. ترفع عن تقليد الطاووس في لونه.. والعندليب في صوته.. إن الطاووس هو اللون.. فقط.. والعندليب هو النغم فقط..]

وكأنما يستثير «إقبال» كوامن المسلم ليباشر سلطانه سيداً لهذا الوجود.. ووصياً عليه..

فليأكل من عمل يده.. فما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده.. وليكن اعتزازك بنفسك داعياً إلى الاعتماد عليها.. دون الاستجداء من الغير.. سلاحاً.. أو خبزاً..

إن الكف العزلاء تخذل الحق.. ومن العار أن نعيش عالة على أعدائنا:

يزرعون.. ونأكل نحن.. ينسجون.. ونلبس نحن.. من العار أنهم ينتجون.. ونحن المستهلكون!!

ويمكن لتداعي المعاني أن يقوم بدوره هنا.. ليعود الشباب إلى نفسه يناقشها الحساب..

إن الشباب معجب بكل هذه الطيور.. ولا ريب.. لكنه يصغى أكثر إلى أحاديث الهزار.. والعندليب.. والطاووس تميت فى قلبه حوافز الرجولة.. ويكاد لينسى «العقاب» والصقر. وما يشعانه من معانى الكمال الإنسانى.. فلنستغل نحن إعجابه بالطبيعة ككل.. ثم لنتزل معه إلى الحقل.. لنقوده.. فى حركة تسمو به إلى آفاق أعلى..

مثلا:

لماذا يقف بك الإعجاب عند الشكل.. والصوت.. تقدم خطوة أخرى.. لتكون لك نظرة أعمق إلى هذا الكون.. وصولا إلى مرتبة تليق بك كإنسان.. وإلى معان أنت أحق بها وأهلها..

لماذا تحب الجمال فى المرأة.. ولا تحبه فى الزهرة مثلا؟

فى الماء الجارى؟ فى النسيم السارى؟

﴿قل كل من عند الله﴾.

فما لهؤلاء الشباب يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير.. فيركعون أما صور الجمال الظاهر.. ولا يتأملون ما وراءه من أبعاد؟

يقول إقبال: (شتان بين المؤذن العادى.. وأذان المؤذن الغازى

إن الحدأة تطير.. والصقر أيضاً يطير.. ولكن بينهما فرق كبير.

ويشير إقبال بهذا إلى مثل ما قاله الشاعر العربى:

وللعصفور والبازى جــميعا   لدى الطيران أجنحة وخفق

ولكن بين ما يصطـــاد باز   وما يصطاده العصفـور فدق!

إن الناس جميعًا لهم أعين يبصرون بها.. ولهم آذان يسمعون بهما.. ولهم أرجل يمشون بها.. وأيد يبطشون بها.. وهم بذلك.. وللوهلة الأولى.. صورة مكررة معادة.. وينفرد الشباب المسلم بباطنه العامر بسر الحياة وإدراك معنى الوجود.. منطلقاً مما يشاهد.. ويسمع من خلق الله تعالى.. على نحو يخلقه جديداً.. لا يقف به عند الشكل الظاهر.. ولكنه ينتقل من الكون.. إلى المكون سبحانه وتعالى.

همة ترمى إلى بعيد:

وفى الارتفاع بالمسلم إلى المستوى الأعلى. يشن حملته على أوهام الضعف والاستسلام:

(لا أحتاج إلى الحمامة واليمامة لشبع بطنى. لأن حياتى متعودة على الزهد. إن أقدامى وإقبالى.. وكرى وفرى.. وسيلة لتسخين دمى.

أيها الشباب: لا يليق بك أن تسكن فى البيوت الناعمة المريحة.. إنك صقراوى.. إنك عقاب.. وبيتك فى الصخور الصماء.. والجبال الشامخة!).

ووفاء منه لهذه المعانى نراه:

١ـ يمدح الندى.. والطل.. لأنه استقل بنفسه فوق الزهرة.. أما اللؤلؤة فتغيب فى البحر وتذوب.. ويفنى أصلها.

٢ـ يحب زهور الصحراء.. لأنها تنبت بنفسها.. بدون بستانى.. وتهتز كما تشاء فى مهب النسيم.. مثل «شقائق النعمان».

يقول فى ذلك: (ليس لزهرة البستان حرية ولا استقلال. كحرية زهرة الصحراء. التى لا تحمل على كواهلها مِنَّة البستانى..

وكل إنسان يستطيع قطفها والتزين بها فوق صدور النسوان! وعلى الجدران! وإذن.. فلا يليق بك أن يضعك إنسان فى عمامته).

ثم يلتفت إلى القمر متأثراً بنفس المبدأ:

(إنك يا قمر رهين لمنة الشمس.. فتتألم لوخزها.. وإنى وإن كنت ظلمة حالكة.. وأنت نور كامل.

ولكنك بعيد عن معرفة ذاتك وهدف حياتك.

أنا أعرف مقصدى من حياتى.. وهذا هو النور الدائم الذى قد حرمت منه يا قمر).

وقد قصدنا بهذه اللمحة ضرب الأمثال من حياة داعية مسلم.. لم يعش حياته خلف.. المكتب الوسيم.. أو بين الكتب والمراجع باحثاً «أكاديمياً». بيد أنه

نزل من برجه العالى.. العاجى.. وزامل الشباب الذى يحب الظل.. والماء.. والخضرة.. والطير.. والشمس والقمر. وتذوق معهم جمالها.. وبحكمته.. انتقل بهم من صورة الجمال.. إلى معنى الكمال التى تشهد به.. وتدل عليه..

فإذا ظل الشباب مع ذلك وثيق الصلة بكتاب ربه.. فقد نجحنا فى ربطه بالكتاب المسطور.. والكتاب المنظور.. معا وفى القوت الذى تجاوبنا مع فطرته.. فتغنينا معه بجمال عالمه الأثير لديه نزوده بما وراء ذلك من كمالات ينطق بها الحال وإنها لأبلغ فى صمتها من لسان المقال!!

ونحن نحس بإهمال هذا الجانب فى حياة كثير من الدعاة.. ظناً منهم أن ذلك ترف وضياع مع أنه تشريع قرآنى يفرضه الولاء للدعوة ذاتها..

يقول الشيخ محمد الغزالى:

[القرآن الكريم يلفت الإنسان إلى ما بين يديه.. وما خلفه من السماء والأرض. ويوثق أواصره بمظاهر الكون الذى يعيش فى رحابه.... ويجعل من هذا وذاك المادة التى تكون إيمانه بربه. وتعرفه بما ينبغى له من تسبيح وتحميد. وما يجب عليه نحوه من إنابة وعبادة.

والنهج الفذ لذلك: هو بصر العقل بآيات الله فى ملكوته وانظر إلى هذا الضرب من الاستدلال والهداية. لتعرف أن المراد منها هو إيقاظ الإنسان. وإحياء خواصه الذهنية والنفسية ليعرف ربه بيقين.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠ ـ ١٤].

إن الإنسان مكلف باستخدام حواسه على نطاق واسع فالسماع الغافل. أو النظر الأبله. أو النطق الغبى. هبوط لا يليق بامرئ يحترم نفسه. ويدرك كيف كرمه خالقه. وفضله تفضيلا[1]].

إن من رحمة الله تعالى أن أنزل لنا الشريعة محفوظة من التحريف والتبديل فصان بهذا وجودنا حتى لا يأكله الاختلاف. وبرئنا من تحكم الأمزجة المتباينة والتى لو وكل إليها التشريع لضاعت معالم الطريق. ومن رحمته سبحانه وتعالى أن بسط أمامنا ذلك الكون.. وأمكننا من تأمل ما فيه ومن فيه.. من آثار الجمال الجلال ووصولا إلى تدعيم الإيمان فى قلوبنا..

والقرآن من عند الله تعالى..والطبيعة أيضاً من خلقه سبحانه..

وإذن فهما لا يتناقضان ولا يتنطحان.. وإنما هما معاً طريقان إلى تقرير نفس الحق.. الذى يستقر فى العقول والقلوب عن طريقين.. لا طريق واحد..

وإهمال الطبيعة كشاهد على الإيمان.. عيب يجب أن يزول.. وفى كل شىء له آية..تدل على أنه الواحد

*****

---

(١)مع الله: ٩٦:٧٩.

الخطابة والعلوم الإنسانية

(إذا كانت وظيفة الخطابة هى: قيادة النفوس لمعرفة الحقيقة.. فعلى الخطيب أن يعرف ما للنفوس من أنواع.

وعلى قدر هذه الأنواع تكون الصفات.. ولكل حالة نفسية نوع خاص من الخطابة..

فعلى المتكلم إذا لكى يولد فى النفوس نوعاً من الإقناع أن يطابق بين كلامه وطبيعتهم.

وإذا توافرت للمرء هذه المبادئ.. عرف متى يجب أن يتكلم. ومتى يجب أن يسكت... ومتى يليق أن يكون موجزاً. أو مطيلا أو مبالغاً)[1].

وهذا يعنى أن يلم الخطيب بطرف من العلوم الإنسانية. التى تعينه على امتلاك زمام الإنسان من الداخل..

إن القائد العسكرى لكى ينتصر فى معركته لابد له من معرفة طبيعة الميدان.. وخطط العدو.. ومواقع قواته.. فإن ذلك مما يعينه على تحقيق النصر المأمول.

كذلك الداعية: ينبغى أن يسلط الأضواء على طبيعة النفس. وسنن الله فى الاجتماع.. ليحسن التعامل مع الفرد والجماعة..

كما ينبغى أن يكون على شىء من قواعد المنطق وصولا إلى عقل المستمع وقيادته إلى مرفأ اليقين..

ولأن الناس أشتات وألوان.. فمن المفيد أن نتابع هذه الألوان بما يشاكلها من فنون القول:

[من الناس من لا يجدى معه الاستدلال المنطقى:

(أ) لأنه نشأ على مشهورات تخالف الحق.

(ب) أو لأن فطرته غير مهيأة لقبول البرهان أصلا.

(١) المدخل إلى النقد الأدبى الحديث: ١١٣.

(جـ) أو لأن الحق لا يمكن جلاؤه له فى ذلك الزمن اليسير.

فهذا الصنف تهديه الخطابة إلى الحق الذى يراد اعتناقه.

لأنها تسلك من المناهج ما لا يسلك المنطق[1]].

ودور الخطيب هنا شبيه بدور الفقيه:

قال ابن القيم:

يلزم الفقيه أن يعرف الواجب والواقع.. ليحسن تطبيق الواجب على الواقع.

والمراد بالواجب: أحكام الشريعة الواجب عليه استخدامها.

والمراد بالواقع أحوال الناس الواقعية ـ كما هى فى حد ذاتها ـ

نقول: ولا تنكشف للمجتهد أحوال الناس الواقعية. وتحديد مشكلاتهم بصورة حقيقية. إلا عن طريق العلم بأنواع القوانين التى تضمنت بيانها العلوم الثلاثة. التى تعتبر الأصل بغيرها من العلوم الإنسانية ذات المساس بالفقه فى كشف المنظور الطبيعى للفرد والمجتمع..

والعلوم الثلاثة هى:

علوم: النفس. والاجتماع. والاقتصاد[2].

الخطابة والمنطق:

تنحصر وظيفة المنطق فى أنه: يعصم الذهن عن الخطأ فى الفكر.

(أ) إنه يرشدنا إلى صياغة البرهان على نحو سليم.

(ب) يضمن استمرار تدفق الأفكار سليمة فى الاتجاه الصحيح..

وإذا كان الخطيب يتعامل مع العقل الإنسانى ـ إلى جانب مخاطبته القلب ـ فإنه يحتاج إلى المنطق حصولا على البرهان ينصر به قضيته.. ووصولا إلى فكر متسلسل متماسك. يسلك المستمع معه فى أفقه فلا يتخلف عنه.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) من مقال للدكتور محمد سعاد جلال.

ولك أن تتصور خطيباً ضعيف البرهان.. مشوش الفكر.. لتحكم بأهمية المنطق وحيويته فى مجال الدعوة.. لا سيما وخصومها يتسلحون بالمنطق الخلاب المخادع.

ولابد من منازلتهم بما يرد كيدهم إلى نحورهم.

علم النفس:

ذهب رجل مهموم إلى بعض العارفين يستفتيه فيما يشفيه من همه الثقيل واقترح عليه المستشار أن يرحل عن بيئته فى رحلة سياحية يتناسى فيها ذكرياته الكئيبة.

وعاد الرجل من رحلته إلى بيته بهمومه كما هى!..لأن الطبيب لم يعالج من الداخل.. لم يسلط الضوء فى محاولة لتشخيص العلة حتى يتم الشفاء..

والخطيب الذى لا يعرف غرائز النفس واتجاهاتها.. ورغباتها لا ينجح فى امتلاك زمامها.. ولا تجدى الخطب الرنانة فتيلا إذا ظل باطن الإنسان منطقة مجهولة..

وأصحاب المذاهب الهدامة يقيمون نشاطهم على هذه القاعدة:

فهْم النفس بكل تطلعاتها فهما يمكنهم من زمامها.

ولقد حققوا فى هذا المضمار نجاحاً يتقاضانا ملاحقته بنجاح نستعيد به زمام المبادرة فى أيدينا.

من سنن الله ـ تعالى فى الأنفس:

من طبيعة النفس كما صورها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف: ٥٤].

وفى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

وفى قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

وفى قوله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ .وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وفى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

والوقوف على أسرار هذه الطبيعة بكل غرائزها وتطلعاتها عامل حاسم فى الوصول بالإنسان إلى ما نريد له من خير..

إنه جدل.. بل الجدل جزء من فطرته.. ثم إنه متسرع متقلب.. عجول يميل إلى النفع العاجل..والنفس مولعة بحب العاجل.

ولقد استغل إبليس فى آدم عليه السلام غريزة حب البقاء: فأثارها بما حكاه القرآن: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾.

وخاطب كذلك غريزة التملك بقوله تعالى: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

وحقق فى هذا المضمار نجاحاً ـ لولا أن الحق تبارك وتعالى أحبط مفعول هذا النجاح بتوبته سبحانه على آدم عليه السلام.

يقول المرحوم الشيخ على محفوظ[1].

(علم النفس الباحث عن قوى النفس وخواطرها. وميولها فى علومها ـ وتأثير علومها فى أعمالها الإرادية.

مثال ذلك: أن الأصل أن يكون العمل تابعاً للعلم...ولكن كثيراً من الناس يعتقدون أن عمل كذا ضار ويأتونه وعمل كذا نافع ويتركونه. فما سبب ذلك؟

وهل يحسن أن يدعو هؤلاء إلى الخير وإقناعهم بترك الشر من لا يعرف لماذا تركوا الخير وارتكبوا الشر؟

فهذه المعرفة هى من علم النفس الذى يؤخذ منه أن من العلم ما يكون ملكة راسخة للنفس حاكمة على إرادتها مصرفة لها فى أعمالها. ومنه ما يكون صورة تعرض للذهن لا أثر لها فى الإرادة. فلا تبعث على العمل..

وقد كان الصحابة على حظ عظيم من هذا العلم. فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم. وبما هداهم القرآن بآياته. والرسول ببيانه وسيرته. على بصيرة من علم النفس. وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية).

ولما كان خالق الإنسان سبحانه أعلم بطبيعة الإنسان.. فقد تلطف به تعالى

---

(١) هداية المرشدين: ١٠١.

وكان خطابه فيما يتعلق بعاداته غيره فيما يتصل بالعقيدة.. من حيث فطمه عن الأولى طبق سنة التدرج.. فى الوقت الذى لم يقبل سبحانه فى العقيدة مساومة ولا أنصاف حلول.

والذين يجهلون ذلك المنهج قد يطلبون المستحيل ممن يعظون. أو يطلبون غير موجود..

وقد يطلقون لخيالهم العنان فى علاج الأمور. ثم لا يحققون هدفاً.

علم الاجتماع:

تبدأ مهمة الخطيب بتشخيص العلة.. ثم وصف الدواء بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..ومعرفته بطبيعة المجتمعات. وسنن الله تعالى فيها تعينه على أداء مهمته.

لقد وصلت كراهة أمريكا لليهود حداً كانوا يكتبون فيه على واجهة المطاعم:

غير مسموح للكلاب.. ولليهود!!

فماذا حدث بعد ذلك؟

درس اليهود النفسية الأمريكية. وأعانتهم الدراسة على التعامل معهم فى ضوء معرفتهم بأحوالهم..

إن لله فى الاجتماع سنناً لا تتخلف. وفى دوامة الصراع بين الحق والباطل. تبدو الحاجة ماسة إلى تأمل واع من قبل الدعاة لظواهر المجتمع حولهم. من حيث نشوئها وتطورها وأسبابها.

يقول المرحوم الشيخ على محفوظ[1].

مما يلزم الخطيب (العلم بحال من توجه إليهم الدعوة فى شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم. وأخلاقهم. وما يعبر عنه فى العرف بحالهم الاجتماعية.

وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة خلافة أبى بكر كونه أنسب العرب.

ومعناه: أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب. وبطونها وتاريخ كل قبيلة.

(١) هداية المرشدين: ١٠٠.

وسابق أيامها وأخلاقها: كالشجاعة والجبن. والأمانة والخيانة. ومكانها من الضعف والغنى والفقر.

وما كان إقدامه ـ مع ما عرف به من اللين وسهولة الخلق ـ على قتال أهل الردة إلا بهذا العلم. الذى كان به على بصيرة. فلم يهب ولم يخف. . وقد خاف عمر مع شدته المعروفة على الكافرين).

*****

الباب الثالث

إعداد الخطبة

للخطبة مراحل تمر بها حتى تأخذ شكلها النهائى.. وإن شئت فقل عناصر لا تتم إلا بها.. ولا تأخذ سبيلها إلى عقول الناس وقلوبهم إلا بالوفاء بحقها.

وتتلخص هذه العناصر أو المراحل فيما يلى:

١ـ مقدمة تمهد للموضوع. فتهيئ الأذهان لاستقباله.

٢ـ موضوع مناسب.

٣ـ خاتمة تجيء: إما تلخيصاً لما سبق عرضه.. أو نتيجة له.

٤ـ أن يتم ذلك كله فى أسلوب قوى يخاطب العاطفة ولا يركز على البرهان العقلى إلا قليلا.

وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل:

لكننا نبادر أولا فنلفت الأنظار إلى حقيقة لها وزنها قبل البدء فى التخطيط للخطبة.. وهى: أن يحرص الخطيب على تهيئة نفسه للكلام.. بإفراغ باله من كل ما يشغله ليتمحض للتوجيه.. فلابد أن تكون الرغبة فى الحديث قوية..

فما أكثر المعانى فى عقلك.. ولكن القلب أحياناً يكون مشغولا عنك بهموم العيش. فأنى لك إجادة الكلام؟

وإذا ملكت ناصية الكلام مع هذا.. فكيف تملك به قلوباً أنت مصروف عنها ابتداء بمشاغلك ومشكلاتك؟!

نصيحة أديب شاعر:

(كان زهير بن أبى سلمى معروفا بالتنقيح والتهذيب. وله قصائد تعرف بالحوليات. قيل: إنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر. ويهذبها وينقحها فى أربعة أشهر. ويعرضها على علماء قبيلته أربعة أشهر. ولهذا كان الإمام عمر بن الخطاب مع بلاغته ـ يقدمه على سائر الفحول من طبقته.

وما أحسن ما أشار أبو تمام إلى التهذيب بقوله:

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى   والليل أســـود رقعة الجـــلباب

فإنه خص تهذيب الفكر بالدجى. لكون الليل تهدأ فيه الأصوات. وتسكن الحركات. فيكون الفكر فيه مجتمعا. ومرآة التهذيب صقيلة. لخلو الخاطر، وصفاء القريحة. لاسيما وسط الليل.

قال أبو عبادة البحترى:

كنت فى حداثتى أروى الشعر. وكنت أرجع فيه إلى طبع سليم. ولم أكن وقفت له على تسهيل مأخذ. ووجوه اقتضاب. حتى قصدت أبا تمام. وانقطعت إليه. واتكلت فى تعريفه عليه.

فكان أول ما قال لى: يا أبا عبادة: تخير الأوقات وأنت قليل الهموم. وصفر من الغموم. واعلم أن العادة فى الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شىء أو حفظه أن يختار وقت السحر.

وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة. وقسطها من النوم وخف عليها ثقل الغذاء... واحذر المجهول من المعانى.. وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الوحشية. وناسب بين الألفاظ والمعانى وتأليف الكلام. وكن كأنك خياط: تقدر الثياب على مقادير الأجسام... وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك. ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب. ولا تنظم إلا بشهوة. فإن الشهوة نعم المعين على حسن النظم[1]].

إنك - مع وجود الماء - قد لا تملك الطاقة النازحة.. المعبرة.. والخطبة صورة نفسك.. ومرآة مزاجك. تستقيم باستقامته.. وتهتز باهتزازه.

من تجاربى:

أصر الفتى الطيب على أن أعقد عقده.. وفى بلد بعيد.. ووافقت بصعوبة.

أما الموافقة: فتحقيقا لرغبة فتى يقدر الدعاة قدرهم.. ويرى فى مباشرة فى

---

(١) جواهر الأدب - أحمد الهاشمى ٢: ٢٨.

وأما الصعوبة: فلأنى أعرف ما وراء الدعوة.. وهو: أن أقف خطيبا قبيل العقد.. أو بعده.

وكانت هناك محاذير.. من شأنها أن تلقى على الموقف ظلالا من التحفظ.

أ - فقد يكون بالمسجد أكثر من عقد..

ب - إلى جانب صبيان صغار قد يشوشون على متحدث هو مدرس فى نفس الوقت...ومن طبيعته إذا تكلم ألا يتكلم أحد؟!

جـ - ثم.. ما تعارف عليه الناس من توزيع الحلوى.

وما يترتب على ذلك من تشويش يفت فى عضد المتحدث فلا يستطيع مواصلة الكلام. وإذا واصل.. فلن يكون عند مستواه.

د - وأهم من ذلك كله - وهو بيت القصيد هنا - أننى كنت مدعو إلى محاضرة سوف تذاع على الهواء.. بعيد المغرب.. وخطبة الزواج قبيله!!

أقول: بعيده.. لا بعده.. وقبيله.. لا قبله!

وتلك هى الصعوبة التى تفرض عليك.. وفى غضون ساعة واحدة من زمان أن تتكلم فى موضوعين مختلفين فى آن!!

والمفروض أن الخطيب.. وبالذات عندما يكون الدرس مذاعا على الهواء أن يشغل نفسه من أول النهار بإعداد فكرته..وإفراغ باله لمعايشتها..والانفعال بها.. ثم الفرار بها من كل ما يشغل الذهن. بحيث لا تزاحمها فكرة أخرى قبلها!

فإذا حرم الخطيب ذلك فما هى النتيجة؟

النتيجة معروفة طبعا...وهو تشتت الجهد.. ونزول المتحدث عن مستواه.. ثم.. يتقدم الجالسون على كراس المتفرجين ليحركوا ألسنتهم باللوم.. لوم خطيب كان يجب أن يكون عند حسن الظن به!!

وهكذا..تحترق أكباد الخطباء..ولكن الغافلين..لا يشعرون بل لا يرحمون!!

يحكى الدكتور محمد رجب البيومى[1] عن المرحوم أحمد حسن الزيات:

شاهدته ذات مساء بدار الرسالة. يقدم مقالة إلى كاتبها ـ وهو أديب مرموق ـ قائلا فى ابتسام وديع:

يا أخى: أنت تكتب مقالك للرسالة فى الظهيرة. بعد إجهاد العمل اليومى. وأنا أريد أن تعيد كتابته فى هدأة الليل. أو فى مشرق الصباح. وقد تسلم الأديب المرموق رسالته راضياً. غير غاضب).

إن الهم القاطع. والأمر الشاغل مانع من سداد الرأى ودقة التوجيه. وتسلسل الأفكار.. وبالتالى قاطع ما بين الخطيب والمستمع من جسور التجاوب..

يقول الغزالى:

(إن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر. وكان كسرى إذا دهمه أمر بعث إلى مزاربته[2]. فاستشارهم. فإذا قصروا بالرأى ضرب قهارمته[3] وقال: أبطأتم بأرزاقهم. فأخطأوا فى آرائهم.

وقال «بشر بن المعتمر» فى وصاياه للخطيب: خذ من نفسك ساعة نشاطك. وفراغ بالك. وإجابتها إياك.

فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً. وأشرف حسبا. وأحسن فى الأسماع. وأحلى فى الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ. وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف. ومعنى بديع.

فصفاء الذهن وصحوه لهما أثرهما فى إحكام الرأى. وإجادة اللفظ[4].

إن تجاهل هذه الحقيقة يوقع الخطيب فى الحرج أحياناً. ومن أقسى اللحظات فى حياة الخطيب أن يفرض عليه الكلام فى وقت لم تتوفر فيه الرغبة كاملة.. وربما أسرف الطالبون فى اللوم إذا اعتذر الخطيب.. لأنهم يحسبون الخطابة «زرا» تضغط عليه.. فترمى بالكلام كالسيل!

وقد يقعد بك الهم الشاغل القاطع فلا تصيب الهدف.. وتتعثر الكلمات فى

---

(١) النهضة الإسلامية: ١٧١

(٢) أى إلى مستشاريه.

(٣) أى المسؤولين عن التموين.

(٤) الخطابة للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة.

فمك.. حتى ينكرك الذين يعرفونك خطيباً مؤثراً.

ويحتاج خطيب المنبر إلى وعى هذه الحقيقة.. فالوظيفة تفرض عليه أن يقول.. وفى وقت محدد.. وفى موضوع محدد أيضاً.. وما عليه إلا الاختصار.. وتبقى فرصة الدرس بعد الصلاة أسهل تناولا وأكثر تقبلا.

اختيار الموضوع:

إذا كان اختيار المرء قطعة من عقله.. فإن الخطيب الموفق هو ذلك الذى يقع منه الاختيار على موضوع مناسب. يشد الانتباه.. ومناسبة الموضوع أن يكون:

(أ) فى مستوى أفهام المستمعين.

(ب) ألا يكون مما لا يجرى فيه الاختلاف.

(جـ) أن يكون حيوياً. متصلا بحياة الناس الدينية والدنيوية.

إن سر نجاح الخطيب أن يواكب حياة الناس.. ليجدد نفسه دائماً لينعكس بدوره حركة وبركة على جمهوره.. هذا الجمهور الذى يحس فى كلامه بنبض قلبه.. وهم منه كالإبل الطروب.. تسمع صوت حاديها.. فإذا هى نشاط وحركة!

والتجربة المستمدة من بطون الكتب.. تظل صامتة.. قليلة الجدوى.. ولكن الوقائع التى تصير موضوع الحديث هى التى تجعل له قيمة.

وقد تطول الخطبة.. وتتعدد صور البيان فيها.. وتبقى للأحداث الحية آثارها الباقية.

وما شاب رأسى من سنين تتابعت   علىّ.. ولكن شيبتى الوقائع

أما هؤلاء الذين يزايلون أرض الواقع.. ويجهدون عقول السامعين بقضايا مجرة.. صاعدين بها فى أجواء غائمة.. فأجدر بهم قاعات الدرس.. لا ساحات الدعوة..

لابد ـ لكى تحقق الخطبة هدفها ـ من أن تكون مناسبة فى موضوعها.. مناسبة فى أسلوبها. وفى زمنها..

تناسب الموضوع:

من الضرورى أن يكون الخطيب على دراية بمستوى السامعين . . ليتمكن من اختيار الزاد المناسب . .

فالوسط العمالى غير الوسط المدرسى . والبيئة الريفية شىء يختلف عن البيئة المدنية . .

والحديث إلى الفاقهين غيره إلى المثقفين العاديين . . وهذا يفرض عليه اختيار الموضوع الملائم للمستمعين . .

فمن شأن هذا التجانس أن يثير الوجدان ليرتبط بموضوع الحديث . . ومن إثارة الوجدان إلى الإذعان المفضى إلى العمل والتطبيق . .

وهذا الذى نقول . . ما هو إلا مظهر من مظاهر التيسير كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد جاءت السنة المطهرة داعية إليه فى قوله ﷺ لأصحابه

عن عبد الله بن عتبة: **أن أبا هريرة أخبره أن أعرابيا بال فى المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه وأهريقوا من بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»**[١]. رواه البخارى.

باب قول النبى ﷺ **«يسروا ولا تعسروا»**[٢]

وفى قوله ﷺ لأبى موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل لما بعثهما إلى اليمن:

عن سعيد بن أبى بردة. عن أبيه، عن جده قال: لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما: **«يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا»**. قال أبو موسى: يا رسول الله ، إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له البتع، وشراب من الشعير يقال له المِزْرُ فقال رسول الله: **«كل مسكر حرام»**[٣] رواه البخارى.

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى. للحافظ ابن حجر العسقلانى ـ كتاب الأدب.

(٢) فتح البارى ج١٣١ / ١٤٢ ط. مصطفى البابى الحلبى. سنة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩م.

(٣) المرجع السابق جـ ١٣ ص: ١٤٠

وأعلى صور التيسير والتبشير أن تعين المستمع على طاعة الله تعالى. وذلك باختيار الموضوع الذى يدخل فى دائرة إمكانه فهما واستيعابًا وقدرة على التنفيذ.

وإلا فإن فرض موضوع صعب على وعى لم يرتق إلى تناوله.. يحدث رد فعل معاكس.. يفر به المستمع من الحديث جملة.. بل ويتمرد عليه! لأن الأمر حينئذ - كما قال الشيخ محمد الغزالى - يشبه أن يكون تياراً قوياً سلط على مصباح ضعيف.. فاحترق المصباح.

ولأن موجا كالجبال.. اندفع عبر سد ضئيل.. فانهار السد وتاهت المعالم.

إن لكل واد طاقة يتقبل بها الماء بقدرها. فإذا أمده بما فوق طاقته كان طغياناً وفيضاناً. وتخريباً وتدميراً وإتلافاً.

كذلك.. لكل نفس طاقة تقف عندها فى تقبل هدى الله وعلمه:

فإذا أراد المرء أن يحمل فوق طاقته. تمزق بالسأم. والصد عن الله. أو بالشك أو يتلقى ما لم يؤهل لفهمه.

عن جابر رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«إن هذا الدين متين. فأوغل فيه برفق. فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»**[1]. حديث ضعيف.

فإذا أريد أن يحمل الوادى أكثر مما يجرى فيه. فلا يكون ذلك إلا بالأسلوب الطبعى المأمون.. فيقوم أصحابه بعملية حفر وتطهير. وتعميق وتوسيع. وكذلك أودية القلوب لا تتسع ولا تعمق إذا فعل صاحبها ذلك. صاحبها لا غيره... وما صاحبها إلا الله عز وجل[2].

وقد شرع صاحبها جل شأنه أخذ النفوس بالرفق واللين، والاحتواء وصولا بها إلى أعلى.. رويدا رويدا..

قال الإمام النووى فى التقريب. وهو يتحدث عن آداب المحدث:

«وليتجنب ما لا تتحمله عقولهم. وما لا يفهمونه».

---

(١) فيض القدير. شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٢. صـ٥٤٤. ط. الأولى. سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م مطبعة مصطفى محمد.

(٢) تذكرة الدعاة.

وقال الإمام السيوطى فى شرح «التدريب على التقريب»:

كأحاديث الصفات لما لا يؤمن عليهم من الخطأ. والوهم والوقوع فى التشبيه والتجسيم.

يعنى لا تقال الأحاديث مجتمعة. بل مفرقة فى مناسبات فقد قال على: «أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟

وقال على حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله[1]. رواه البخارى.

وروى البيهقى فى الشعب عن المقدام بن معدى كرب قال. قال رسول الله ﷺ **«إذا حدثتم الناس فلا تحدثوهم بما يفزعهم ويشق عليهم»** رواه الطبرانى فى الأوسط.

قال الهيثمى في هذا الحديث الوليد بن كامل، قال البخارى عنده عجائب ووثقه ابن حبان وأبو حاتم.

وأى فتنة أعظم من شك فى الدين يتحول إلى تكذيب لله ورسوله من جراء فرض موضوعات على أناس ينال الواعظ منهم بالرفق أضعاف ما ينال بالشدة.. وبالحديث البسيط البليغ أكبر مما يحقق بالقول المعقد.

ولكن بعض الناس يغلب فى كلامه رياء.. وتعالما.. يؤدى إلى عكس المطلوب.

ولا يجمل بالعاقل أن يقول كل ما يعرف.. وإلا فلا يلومن إلا نفسه التى لن تسلم من العثار كلما خاضت المجاهيل:

جاء عن الإمام مالك أنه قال: أعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما

---

(١) صحيح البخاى للكرمانى: كتاب العلم. باب من خص بالعلم قوما دون قوم. جـ٢. صـ١٥٣. ط. البهية المصية سنة ١٣٥٦هـ ١٩١٧م.

سمع. ولا يكون إمام وهو يحدث بكل ما سمع[1].

ولقد كان ﷺ من البساطة والرفق بالعامة فى الموضع الأعلى..

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا أتى النبى ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال يا رسول الله إن على رقبة مؤمنة فقال لها رسول الله ﷺ «**من أنا**» فأشارت بإصبعها إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء أى أنت رسول الله قال: «**أعتقها**» رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط إلا أنه قال لها «**من ربك**» فأشارت برأسها إلى السماء فقالت الله»[2] ورجاله موثقون.

إن فكرة الألوهية ماثلة فى ذهن المرأة.. أى أنها وضعت قدمها على الطريق الصحيح.. وهذا يكفى بادىء ذى بدء..

وكون إجابتها بالإشارة لم تكن على المستوى العلمى المطلوب؟

فإن ذلك لا يلغى حقها فى احتواء بذرة الإيمان فى قلبها.. بحسن التقبل.. وتجنب الدخول معها فى مناقشات تمنع البذرة من النمو والإثمار.

والأيام كفيلة بترقية تصورها لفكرة وجود الله تعالى ووحدانيته بما يرضى الحق..

ومعنى التيسير منبث فى تضاعيف أدلة القرآن الكريم.. على نحو يغرى بالبحث والنظر كل إنسان.. وعلى كل مستوى..

وذلك عكس أدلة الفلاسفة التى تشبه بجفافها.. وتقعرها وتعقيدها الأرجل الخشبية كما يقولون..

فهى تجمع قواعد المنطق.. وطرائق الاستدلال..

بيد أنها خلت من الروح. وحنان المشاعر التى تستميل القلوب. وهو ما تميز به القرآن الكريم فى عرضه لحقائق الدين والحياة. وبه حقق نجاحاً منقطع النظير.

---

(١) صحيح مسلم مشكول: مقدمة صحيح مسلم. باب فى الضعفاء والكذابين جـ١. صـ٩ط. محمد على صبيح.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للهيثمى. جـ١ صـ٢٣، ٢٤ ط القدسى سنة ١٣٥٢هـ.

عن طريق ما شرع من تيسير وما تجنب من جفاف.

يقول ابن تيمية:

(فأدلة القرآن مثل الغذاء: ينتفع به كل إنسان.. وأدلة المتكلمين مثل الدواء: ينتفع به آحاد الناس. ويستضر به الأكثرون.

بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى. والرضيع والرجل القوى.

وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع لها الأقوياء مرة. ويمرضون بها أخرى. ولا ينتفع بها الصبيان أصلا)[1].

من هدى الرسول:

وفراراً من تعقيدات الفلاسفة.. وتقديراً لاختلاف الناس ألواناً وأذواقاً وأفهاماً كان ﷺ يكرر الجملة مرارا.. ويعطى الحروف حقها لتخرج من مخارجها بينة واضحة.

وإذا كره عليه الصلاة والسلام تحديث الناس بحديث لا تطيقه بعض الأفهام.. لهذا السبب.. فإنه يستهدف ببيانه الساطع أن تفهم كل المستويات مرامى كلامه..

ولا يكفى أن يعى البعض أفكاره ﷺ.. بينما تظل البقية بعيدة عن الفهم والإدراك.. فربما كان لدى هذا النوع عزيمة تحمل على التطبيق.. نظير ذكاء يعين على الفهم السريع.. بلا عمل على نفس المستوى!

عن أنس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ. كان إذا سلم سلم ثلاثا وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا»[2]. رواه البخارى.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان كلام رسول الله ﷺ فصلا (بينا ظاهرا) يفهمه كل من يسمعه[3].

---

(١) ابن تيمية. إلجام العوام من علم الكلام ٢٠.

(٢) فتح البارى بشرح البخارى. للحافظ العسقلانى. جـ١٣ صـ٢٦٣. ط. مصطفى البابى الحلبى١٣٧٨هـ. ١٩٥٩م.

(٣) رواه أبو داود.

ويرتبط التكرار بطبيعة النفس الإنسانية.. التى تستجيب لتكرار اللفظ.. وإعادة المعنى على سمعها.. فتنشط للعمل بموجبه..

أى أنه ﷺ يكرر.. ليحدث الفهم بالتكرار.. ومع الفهم.. يأخذ الإنسان سبيله إلى التطبيق مدفوعاً بما أحدثه الموقف من أثر فى نفسه.. وهو ما فطن إليه علماء الغرب متأثرين - طبعا - بمنهجه ﷺ.. وإن تحدثوا به تحت عنوان: الحضارة الغربية.. زورا وبهتانا..

قال جوستاف لوبون:

[للتكرار تأثير كبير فى عقول المستنيرين. وتأثير أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى... والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا التكرار وانتهى بتصديق المكرر.

وهذا هو السر فى تأثير الإعلانات العجيب: يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوى من صنع فلان. فيخيل إليه من التكرار أنه سمع ذلك من مصادر شتى. وينتهى بصحة الخبر].

ثم إن تجنب الموضوعات الخلافية يضمن للخطيب أن يظل رائدا فى جماعته قائدا لها.. وإلا فإن القضية الخلافية حين تعرض من فوق المنبر فإن المعارضين من المستمعين لن يسلموا زمامهم للخطيب. انتصارا لرأيهم. وبالتالى لن يظل - فى أذهانهم على الأقل - محتفظاً بزعامته الدينية بينهم. لاسيما وظروف الخطبة لا تسمح بالحوار والأخذ والرد. لأن ذلك خارج عن طبيعتها. ومكان هذه الموضوعات الخلافية هو: المحاضرة أو الدرس بعد الصلاة.. حيث يتسع الوقت لمناقشتها. ويتسع الصدر أيضاً.

ولا يمكن للخطيب أن يتملك زمام الموقف إلا إذا عاش حياة جمهوره.. ومعايشة الجمهور تعنى أن يكون خطيبا كما قلنا فى بيان خصائصه: دقيق التصور.

أعنى أن:

(أ) يتصور القضية المعروضة بكل زواياها.

(ب) ويسلط الأضواء على نفوس المستمعين تشخيصاً لعللها.

(جـ) أن يتأمل ظروف البيئة التى تلف الجميع فى حزمة واحدة.

ومعنى ذلك كله: أن يختار الخطيب زادا يناسب المجتمع الذى عرفه.. وصولا به إلى ما نرجو ويرجو من شفاء يقطع دابر الانحراف. ولا يكون ذلك إلا بمخاطبته بأمور تعنيه فعلا. وتشغل باله. وترتبط بواقعه.

وما ظنك بخطيب يزور فى نفسه خطبة عن حقوق الجار مثلا.. ثم تهدم عمارة فى الحى.. ويفزع الناس.. ويتساءلون عن النبأ الأليم وآثاره وأخطاره.

ولكن الخطيب يصر إصراراً على الخطبة المعدة..

والنتيجة: أنه فى واد وجمهوره فى واد بعد أن قطع بالجمود كل صلات القربى!

وواجبه أن يحسن الاختيار.. وأن يعمل فكره سعياً وراء كل جديد من صور الانحراف المتفشية. والقضايا التى قد يدق حكم الله فيها.. فلا يلقى المستمع لها بالا.. ليقول المتحدث رأى الإسلام فيها بدل الجمود على موضوعات تقليدية لا تهم المستمع ولا يفسح لها فى قلبه مكانا.

(يجب أن يعبر الخطباء عن آمال الشعب وآلامه وأن يعينوهم على القول الحق وبذا يكونون بمثابة المخبر يكشف عن رضا الشعب على الحكم أو سخطه عليه وعلى تصرفات الحاكمين حتى يرسموا خطتهم على أساس من هذا المقياس الذى لا يقول إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق ابتغاء مرضاة الله ورغبة ورهبة إليه.

ويحسن بالخطيب أن يختار موضوعات من واقع الحياة وما يدور فيها وما يحيط بالناس من ملابسات ويتلمس لها الدواء الشافى والجواب الكافى من كتاب الله ومن سنة رسول الله ولذا فقد نزل القرآن منجماً يتجاوب مع الأحداث ويعالج العلل التى تنتشر بين الناس.

وليحاول الخطيب أن يتجنب الخلافيات الفقهية والتعصبات المذهبية وأن يبنى أحكامه على أساس متين من القرآن والسنة، فهما الطريق إلى الجنة والسبيل إلى الجنة.

كما يجب على الخطيب أن يذكر دائماً ببطولة الصحابة والتابعين ففى ذلك غنى عن القصص الخيالية التى ينسجها الغرب حتى يغزو أفكار شبابنا ويلهيهم عن بطولات آبائهم وأجدادهم التى لا مثيل لها والتى لو عقلوها لكانت نبراساً لهم فى حياتهم أن تخلق منهم رجالا وأبطالا يرفعون راية الإسلام ويعلنون كلمة الإيمان والواجب على أولى الأمر أن يقوموا بدور ثقافى للخطباء والعلماء عن التيارات الإلحادية المعاصرة مثل الشيوعية الملحدة والوجودية المفسدة وغيرها من تلك التيارات ووسائل مكافحتها والرد عليها حتى يمكن صدها وردها والقضاء عليها وإن آية واحدة من كتاب الله أو حديثا من أحاديث رسول الله ينطلق فى المسجد فى يوم من أسبوع من شهر كاف أن يهدم صرحاً ضخماً تبنيه الشيوعية أو غيرها فى عصر وفى دهر)[1].

ولا يفوتنا التنبيه إلى أهمية وحدة الموضوع.

إن بعض الخطباء لا يلتزم بتوحيد فكرته.. وإنه ليجمع فى حديثه الرطب واليابس.. وينعكس تشتت فكره على المستمع حيرة تنتهى بانصرافه عنه...لأن تعدد الفكرة لا يتيح للخطيب جلاءها وتوضيحها.. وبالتالى تذهب فائدة الحديث جملة!

وربما كانت الفكرة الواحدة.. والتى تنال حظها من التوضيح والتقرير أبقى فى ذهن المستمع وقلبه من هذا الخليط الذى يذهب آخره بأوله.

وقد يحدثك خطيب بحديث قصير مركز. موحد.. وتمر الأعوام.. وطيفه لا يفارق خيالك.. بقدر ما يذهب هؤلاء المحتطبون بالليل.. يذهبون.. مع أفكارهم المتراكبة.. إلى واحة النسيان!.

ولابد مع هذا من اشتمال الموضوع على آيات من القرآن الكريم فلا قيمة لخطبة لم ترصع بجواهره.

(قال عمران بن حيطان: خطبت عند زياد خطبة. ظننت أنى لم أقصر فيها عن غاية.

---

(١) مجلة الجامعة السلفية - يونيو ١٩٩١.

ولم أدع لطاعن علة. فمررت ببعض المجالس. فسمعت شيخاً يقول: «هذا الفتى أخطب العرب. لو كان فى خطبته شىء من القرآن»[1].

وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل. وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن.

فإن ذلك مما يورث فى الكلام البهاء. والوقار والرقة. وحسن الموقع[2].

وربما بلغ ذلك بأحدهم إلى محاولة أن تكون خطبته كلها آيات من القرآن الكريم كما فعل مصعب بن الزبير حينما قدم العراق[3].

مثل من حياة الرسول:

عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت لقد كان تَنُّورُنا وتنوُر رسول الله ﷺ واحدا سنتين أو سنة وبعض سنة وما أخذت **﴿ق والقرآن المجيد﴾** إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرأها كل يوم جُمْعة على المنبر إذا خطب الناس[4].

وكان عمر يخطب أحياناً بسورة **﴿أتى أمر الله﴾** ولقد كانت الفطرة حينئذ أصفى.. ودرجة الاستعداد لتلقى أسرار القرآن عالية.. إلى جانب أنها كانت تستمع إلى أصدق قائل.. وتستقبل المدد من أطهر قلب عرفته الحياة..

ومن ثم فقد كانت الفائدة محققة يومئذ.. لسلامة أدوات الإرسال. والاستقبال أيضاً.

أما اليوم.. فقد زينّ للناس حب الشهوات.. وابتعدوا عن منهج الله تعالى.. وعجزت الفطر بالتالى عن إدراك أسرار التنزيل..

المقدمة:

بعد الاستقرار على موضوع محدد يحين الوقت لاختيار المقدمة المناسبة:

إن أهمية المقدمة تنبع من وظيفتها... فما هى تلك الوظيفة؟

---

(١) البيان والتبيين: ٢ ـ ٥. (٢) الخطابة د/ درويش: ١ ـ ١١١. (٣) المرجع السابق

(٤) رواه مسلم ـ صحيح مسلم مشكول. كتاب الجمعة. باب تخفيف الصلاة والخطبة جـ٣. ص١٣. ط محمد على صبيح وأولاده.

(أ) تنبيه الغافل. . ليفتح بصره وبصيرته على ما سوف يطرح من قضايا.

(ب) ترغيب المستمع وتشويقه. لمتابعة الحديث.

(جـ) إعداد الذهن للإقناع والإذعان.

ولكن كيف تؤدى المقدمة وظيفتها تلك؟

(أ) بالتركيز. . فإن المقدمة الطويلة تشتت الذهن ولا تضمن للمستمع أن يتابعك. وإذا قصرت جدا. . لم يستوعبها المستمع. . ففاته معناها. .

(ب) أن تكون مشرقة الأسلوب لتستوقف بجمالها جمهورك فلا ينصرف عنك. بل يعطيك كل منافذ حسه[1].

(جـ) ولا يتم ذلك إلا أن تكون مشوقة إلى جانب كونها مشرقة. . بمعنى أن تكون قصة موجزة. . أو تساؤلا. . أو مثلا. . أو بيتاً من الشعر. . أو قسما أو تحذيراً. . إلى غير ذلك مما يهز النفس لتلتفت إلى الحديث بقوة تقطع صلتها بكل ما يشغل بالها. . لتمضى معك إلى نهاية المطاف.

ولابد فى المقدمة من صلة تربطها بموضوع الحديث. . ضماناً لتسلسل الأفكار. . وإيقاظ الانتباه.

وتأخذ المقدمة أهميتها أيضاً من طبيعة الإنسان نفسه. . هذه الطبيعة التى تتلقى بداية الحديث بشىء من الاهتمام. . مدفوعة بغريزة حب الاستطلاع. . التى تتشبث على قدر ما يحمل الخطيب من قدرة على فهم طبيعة الإنسان.

قال ابن الأثير فى كتاب المثل السائر:

وإنما خصت الابتداءات بالاختيار. لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام. فإذا كان ذلك الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده. . توافرت الدواعى على استماعه.

---

(١) ومما يصرف السامع بل وينفره أن تكون المقدمة متجهمة منفرة. . وحكوا فى ذلك قول الشاعر يمدح الحسن بن زيد:

لا تقل بشرى ولكن بشريان ... غرة الداعى ويوم المهرجان

فكره الحسن ذلك وقال للشاعر: هلا قلت:

غرة الداعى ويم المهرجان ... لاتقل بشرى ولكن بشريان

ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة فى القرآن الكريم. كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور. وكذلك الابتداءات بالنداء. كقوله تعالى فى أوائل سورة الحج:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه.

وما ذهب إليه ابن الأثير قائم على أصوله فى طبيعة الإنسان.

لأن [الفكرة الأولى عن شىء. أو عن أمر. أو عن شخص تثبت وتقر بالنفس. ومحوها يحتاج إلى عناء شديد. . .فإن كانت حسنة صعب تهجينها. وان كانت سيئة صعب تزيينها][1].

ومعنى ذلك أن وجود الرابطة بين المقدمة والموضوع كما يحفظ تسلسل الأفكار. . يساعد على الاحتفاظ بالسامع ليظل معك بانتباهه. . وما أكثر الشواغل التى تثقل رأسه. . وترهق قلبه. . ومن ثم فهو فى حاجة إلى من ينتزعه من هذه الدوامة التى تحتويه. . وتبلور موقفه أخيراً. . ليقف من ورائك. ويعطيك عقله وقلبه. .

وهذه الرابطة بين المقدمة والموضوع كأنما تنشط الفكر الخامد لينهض. . ويتابعك. . ويتمتع بصلاحية التلقى عنك. بما نفخت فيه من نشاط وحيوية. . وتلك سمة من سمات الخطيب الناجح. . والكلام المؤثر.

(فإنه لا خير فى كلام لا يدل على معناك. ولا يشير إلى مغزاك. وإلى العمود الذى إليه قصدت. والغرض الذى إليه عمدت)[2].

فإذا وفق الخطيب باختيار الافتتاح المناسب. . وجد ذلك فى أعين المستمعين. فينعكس عليه رغبة فى الحديث. . فينطلق فى صحبة من هذا التجاوب مؤثراً. . وإلا. . فإن ركود المقدمة ينعكس أيضاً على المستمعين ملالا يحسه هو. . فتبرد الحماسة. ويفشل اللقاء.

---

(١) الخطابة للمرحوم الشيخ محمد أبو زهره: ٩٦.

(٢) البيان والتبين.

إثارة الانتباه فى بيان الرسول:

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: بيْنا أنا رديف النبى ﷺ ليس بينى وبينه إلا اخرةُ الرجل فقال: **«يا معاذ»** قلت لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ قلت لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال: **« يا معاذ» قلت لبيك رسول الله وسعديك قال: «هل تدرى ما حق الله على عباده»** قلت الله ورسوله أعلم قال: **« حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا»** ثم سار ساعة ثم قال: **« يا معاذ بن جبل» قلت:** لبيك رسول الله وسعديك فقال: **« هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوه» قلت:** الله ورسوله أعلم قال: **«حق العباد على الله أن لا يعذبهم»**[1].

وعليك أن تتأمل الموعظة المقصودة هنا.. وهى بيان حق الله على عباده.. وحقهم عليه تعالى.

وكان من الممكن أن يلقيها على سمعه فى لحظة وينتهى الموقف.. لكنه ﷺ يشق لها فى النفس مجرى عميقاً ـ لتستمر ثم لتستقر.. فليس المهم أن تكون العظة بليغة.. وأهم من ذلك إعداد القلوب لاستيعابها.. وصقل الإرادة لتنشط فى تطبيقها.

فلينظر الدعاة إلى هذا الحديث ليتعلموا كيف تكون إثارة الانتباه، وكيف يتم إعداد المخاطب ويهيئ ذهنه لتلقى الحقائق..

كان ذلك بأسلوب النداء. الذى بدأ هادئاً مترفقاً: **«معاذ»** بحذف حرف النداء.. ويجيب معاذ متلهفاً: **«لبيك وسعديك»** ولكن النبى ﷺ يسكت عنه ساعة.. أى لحظات يزداد فيها شوق معاذ لمعرفة ما يلقيه إليه ﷺ. ويجىء النداء الثانى من الرسول ﷺ: **«يا معاذ»**.. استحضاراً لعقله الذى شغله الفكر فصار بعيداً!..ويجيب معاذ بما أجاب به من قبل.. ولكن النبى ﷺ لا يجيبه فى المرة الثانية. وإنما يسكت عنه ساعة أخرى، وبهذا أصبح معاذ كله آذاناً سامعة وقلبا حاضراً وذهناً متوقداً يريد أن يعلم وأن يعى ويحفظ ويتفقه فى دينه ويتدبر.. وهنا

---

(١) رواه البخارى صحيح البخارى بشرح الكرمانى ـ كتاب اللباس ـ باب حدثنا هدبة بن خالد. جـ٢١. صـ١٤٢. ١٤٣. ط. البهية المصرية ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.

يأتيه النداء النبوى الثالث: «يا معاذ بن جبل» . .

فجمع له فى المرة الثالثة بين حرف النداء . . ونسبته إلى أبيه . . ليعلم أن الأمر خطير حقيق بأن يستجمع له كل مشاعره.

وبعد التشويق والإثارة . . يأتى التعليم عن طريق الحوار: **«هل تدرى ما حق الله على عباده»**.

فلم يفض إليه ﷺ بالحقيقة التى يريد تعليمها إليه مباشرة وإنما سأله ليرى ما لديه فيها . . وليعمق مكانها فى القلب قبل الإلقاء بها.

وهكذا كان ﷺ فى تعليمه وتربيته لأصحابه . . يبشرهم ولا ينفرهم . . ويخاطب كلا على قدر طاقته . . ليعلمنا أن الداعية الموفق كالطبيب يعطى لكل مرض علاجه ولا يعطى علاجاً واحداً لكل داء!

فليرجع الدعاة إلى مواقفه ﷺ فى دعوته . . ليروا فيها كيف تكون الخطبة . . والحديث . . والمجلس . . والفتوى . . والقصة . . والمحاورة . . والرسالة . . وبإيجاز، كيف يدعون إلى ربهم، بالحكمة والموعظة الحسنة «فينجحون فى مهمتهم . . ويهدى الله بهم . . وينفع بدعوتهم»[1].

وكان ﷺ يقدم للموعظة بسؤال . . أو قسم . . أو مفاجأة . . أو مثل . .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون ما المفلس»** قالوا المفلس فينا من لا درهم ولا متاع فقال: **« إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار»**[2].

أى أنه ﷺ يفتح بالتساؤل منافذ الإدراك كلها لتتلقى الموعظة بكل وعيها.

وفى خطبة الوداع . . أشار عليه الصلاة والسلام إلى أهمية الاستماع إليه

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد. مجلة المسجد.

(٢) رواه مسلم. صحيح مسلم مشكول: كتاب البر والصلة. باب تحريم الظلم. جـ٨. صـ١٨. ط. محمد على صبيح وأولاده.

اليوم.. فلعله لا يلقاهم بعد اليوم بهذا الموقف!

ولا شك أن المستمع حينئذ ينصت بكل طاقته إلى خطبة قد تكون الأخيرة.. ثم يسأل الحاضرين بعد ذلك:

أى يوم هذا... أى شهر هذا... أى بلد هذا.

ويجيبه الصحابة رضوان الله عليهم إجابة ليشتركوا بها معه فى تقرير حرمة هذه جميعاً.. فإذا قرر المستمع أمرا.. أمكن للخطيب أن يبنى عليه الموضوع وهو حرمة الأموال والدماء والأعراض.

ومعنى ذلك أيضاً أن الخطيب لا يفرض آراءه على المستمعين فرضاً.. ولكنه بالسؤال كأنما يستأذنهم فى الكلام.. ويفسح لهم الطريق ليكون لهم رأى.. ومعناه أخيرا.. إحساس المستمع بأن الخطيب يحترمه.. فتتولد الثقة المتبادلة. وبالتالى يصل المتحدث إلى ما يريد..

بعكس ما إذا حاول الخطيب أن يفرض رأيه ويعلو بفكرته فيما يشبه التسلط. وعندئذ لا يكسب مودة المستمع.. وتنقطع بينهما حبال المودة.. فلا تتم الاستمالة وتفشل التجربة..

يقول بعض الباحثين: إن المستمعين يكرهون أن يتحدث إليهم الخطيب من عل. كما لو كان أسمى منهم علماً وجاهاً... كما أنهم يكرهون المداهنة والملق.

وهم يدركون أن لهم حقوقاً وقدرات وآراء يجب أن تحظى بالاحترام.

فإذا وقف الخطيب منهم موقفه الذى يأملونه. امتلك أسماعهم وحرك رغبتهم فى الوصول إلى الصدق والحقيقة. طالما هم يدركون أمانته وصداقته[1].

عن أبى شريح أن النبى ﷺ قال: «**والله لا يؤمن والله لا يؤمن**» قيل ومن يا رسول الله قال: «**الذى لا يأمن جاره بوائقه**»[2].

وإذ يقسم رسول الله ﷺ فإن من شأن هذا القسم أن يهز المستمع هزا ليقطع

(١) الخطابة للدكتور درويش: ٣٦.

(٢) رواه البخارى. صحيح البخارى بشرح الكرمانى. كتاب الأدب. باب الوصاة بالجار جـ٢١ صـ١٧٣. ط. البهية المصرية ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.

صلته بكل ما يشغله ليكتشف هذا الذى يقسم الرسول على خسارته.. فإذا علموا بعد ذلك أن المقصود: من لا يأمن جاره بوائقه.

استقرت الموعظة فى النفس. وظلت بها ذكرى لا تغيب.

وطالما استعان ﷺ بالحركة تنبيهاً وتشويقاً...فقد يحدث بحديث وهو متكئ.. فإذا وصل الأمر إلى قضية لها خطرها تراه ﷺ وقد اعتدل بعد أن كان متكئاً.. ليحشد كل عناصر الانتباه والتشويق ليستقبل الأمر الخطير بما يساويه من وعى وتقبل.

عن المغيرة عن النبى ﷺ..قال: **«إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومَنْعَ وهات ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»**[1].

وكان متكئا فجلس. فقال: **«ألا وقول الزور. وشهادة الزور»**. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت.

ونذكر هنا حديث: **«يتبع الميت ثلاثة»**..

وهنا ينبعث الشوق من مرقده.. فإذا قال عقب ذلك: **«فيرجع اثنان.. ويبقى واحد..»**

تطور الشوق إلى لهفة.. فإذا قال: يتبعه كذا.. ثم يتخلف كذا.. تمكنت الفكرة تماما.

*****

(١) رواه البخارى. المرجع السابق. جـ٢١ باب عقوق الوالدين من الكبائر صـ١٥١.

كيف يعرض الخطيب فكرته

«١»

استمعت إليه وهو يستهل خطبته بتحديد موضوعها وهو التقوى التى أكد أهميتها.. ثم بدأ يسرد الآيات سردا:

قوله تعالى فى أول سوررة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾.

وأول سورة الحج: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾.

ثم قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [الأحزاب ـ ٧٠].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُم﴾[الحديد ٢٨].

وقلت للخطيب: أين أنت من هذه الآيات.. التى كان ينبغى عليك تصنيفها.. تصنيفا.. يضيف إلى معلومات المستمع ما يدعوه إلى التعلق بك.. تعلقا تمتد جذوره فى نفسه كلما أضفت إليه جديدا..

لقد كان المتوقع أن تعرض الآيات هكذا:

يأمر الله تعالى الناس.. والناس جميعا بالتقوى.. فهى روح الحياة.. حياة البشر.. وذلك قوله تعالى.. فى سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾.

اتقوه.. لأنه خلقكم من نفس واحده.. واتقوه.. خوفا من هول الآخره: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيم﴾.

وإذا يأمر الله تعالى الناس جميعا بالتقوى.. فإن المؤمنين أولى بها..

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾.

وإذ يباشر المؤمنون التقوى.. فإن الإيمان ينبغى أن يصعد بهم إلى ذروتها..

وذلك قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

ولكم بعد ذلك أيها المؤمنون أن تحصلوا على جائزة التقوى:

﴿يصلح لكم أعمالكم..﴾ ثم.. **﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾**.

﴿ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم..﴾.

ومن تمام التوفيق أن يكون للخطيب ثقافة لغوية تعينه على توضيح المعانى..

ففى التعليق على قوله تعالى: **﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾**. مثلا يمكن أن تقول:

كفل البعير: كساء.

يوضع على ظهر البعير. فيحدث الآتى:

أ - يستر كاهله من أمام.

ب - وعجزه من الخلف.

جـ - ثم يمنع الراكب من السقوط.

والرحمة بالمتقى.. والموعود بها فى الآية الكريمة:

أ - كفل يعينه على مواصلة الطاعة.

ب - بقدر ما يبتعد به عن المعاصى..

جـ - ومن شأن ذلك أن يحميه من السقوط فى غضب الله تعالى.

(٢)

سياسة التعميم:

بعض المتحدثين يأمرك بالتقوى.. ويسرد لك النصوص المرغبة فيها والمرهبة من إهمالها.. وهذا عمل مشكور مأجور..

لكنك إذا استطعت أيها الخطيب أن تتقدم خطوة أخرى ثم لم تفعل.. فإن نصيبك من الشكر والأجر يبقى ضئيلا.

إن ثلاثة أرباع الذين يستمعون إليك على ثقة بأنهم متقون بل وعلى قمة التقوى.. فالتقوى فى تقديرهم: صلاة.. وصيام.. وحج.. وتسبيح.. وتحميد وإنهم لكذلك. عابدون: ومن ثم فهم يسمعون إليك كأنك تخاطب ناساً غيرهم!

فأنت إذن مطالب بأن تنتقل من التقوى كأمر عام إلى تفصيل مدلولها الحقيقى..

والذى لا يتم إلا إذا حققت هذه العبادات آثارها على أرض الواقع.

فالمتقون عابدون.. وهذه مرحلة أولى..ثم هم يستثمرون هذه العبادة لصالح الجماعة إنفاقا فى السراء[1] والضراء.. وكظما للغيظ.. وعفوا وودا يدعم علائق الأخوة ويشيع الرحمة بين الناس ثم حملا للسلاح دفاعا عن الحق.. وبهذا المقياس تضع المستمعين أمام المفهوم الحقيقى للتقوى ليعودوا إلى أهليهم بإحساس يؤرقهم.. ويدفعهم إلى مزيد من العمل على طريق طويل..

والصلاة:

عن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة. فقال يا جارية ائتينى بوضوء لعلى أصل فاستريح فرآنا أنكرنا ذاك عليه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**»[2] رواه الإمام أحمد.

وكثيرون هم الذين يتحدثون عن الصلاة.. ويحاولون إقناعك بفضائلها..

---

(١) وهو معنى قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿**وسارعوا**﴾..

(٢) الفتح الربانى بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ كتاب الصلاة ـ باب ما جاء فى فضل الصلاة مطلقا. جـ٢ صـ٢٠٧ط. فى سند هذا الحديث سالم بن أبى الجعد من ثقات التابعين، لكنه يدلس ويرسل.

قال أحمد: لم يسمع من ثوبان ولم يلقه. قلت: حديثه عن النعمان بن بشير. وعن جابر فى الصحيحين. وحديثه فى البخارى عن عبد الله بن عمرو. وعن ابن عمر. وحديثه عن على فى سنن النسائى وأبى داود. ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للحافظ الذهبى تحقيق على محمد البيجاوى جـ٢ صـ١٠٩ط. عيسى البابى الحلبى. الأولى سنة ١٣٨٢هـ. ١٩٦٣م. وعبد الله بن محمد بن الحنفية ثقة وقد ذكره ابن الحذاء الأندلسى فى رجال الموطأ فى باب من نسب إليه شىء من الجرح. فقال: كان صاحب الشيعة فاوصى إلى محمد بن على بن عبدا الله بن عباس.

لكنهم لا يأخذون بيدك وصولا إلى هذا الإقناع.

فبضاعتهم منقولة من الكتب.. وما أيسر الجهد إذن. لكن ما أضيع الوقت والطاقة.. إن جمهورك يصدقك فى كل ما تقول لكنه يتلفت يميناً وشمالاً بحثاً عن دلالات النصوص المسرودة.. وكيف ـ على سبيل المثال ـ تحقق الصلاة سعة الرزق.. وكيف تحقق التغيير المطلوب فى حياة المسلم.. والذى لا يراه المستمع واقعاً فى سيرة المصلين من حوله؟

إن المصلى أحياناً يكون كتاجر يعرف ثمن كل شىء.. لكنه لا يعرف قيمة الشىء!

وواجبنا أن نفتح بصيرته على قيمة الصلاة وآثارها والتى لا يراها... لأن الناس لم ينهضوا بإقامتها كما أراد الحق سبحانه لقد كان ﷺ يقول لبلال إذا حان وقت الصلاة: أرحنا بها!

ويربط القرآن بين الصلاة وبين الرزق.. ثم يحض المسلم عليها ليفر بها من الهم والغم... فكيف نقنع المستمع بذلك كله.. تلك هى القضية!.

تماماً كما نقول للناس أن الإيمان يعطيك الأمان.. والقوة.. وفقدانه يسلبك النعمة.. وفى نفس الوقت يتساءل: وكيف؟ بينما الخطيب لا يجيب!

والجواب منه على مرمى حجر كما يقولون:

١ـ إن الصلاة ذكر.. ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾.

٢ـ ﴿**ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً**﴾.

٣ـ وإذن فهناك صلة وثقى بين الصلاة وسلام النفس.. والوضع الاقتصادى للفرد والأمة أيضاً.

٤ـ إنك بالصلاة بين يدى القوى القادر:

(أ) فلا خوف هناك فى حضرته سبحانه.

(ب) تنشط الإرادة المتحررة من عقدة الخوف.. لتعمل..

(جـ) ويستيقظ العقل ليفهم ويقارن ويختار.. ويرى الحق حقاً والباطل

باطلا.

(د) تتضح رؤية الواقع بكل تفصيلاته.

(هـ) كل أولئك يجعلك تخوض التجربة بنجاح.. مادامت أجهزتك النفسية والجسمية بكامل استعدادتها.. وحتى إذا خسرت.. فهى الخسارة الضئيلة الهزيلة.

(و) وحتى لحظة الخسارة لا يذهب الحزن بنفسك حسرات مادمت تؤمن بهذا الإله القادر الذى منحك الإيمان به قدرة على الرضا.. والتسليم..

الخطبة والدرس:

بعض الخطب تتحول إلى درس للفقه وبيان للأحكام..

هل البسملة جزء من فاتحة الكتاب. أم لا؟

هل فاتحة الكتابة مكية أم مدنية؟

وليس هذا غرض الخطباء الذين يدعون الناس إلى ما فى السورة من أخلاق ينبغى الاتصاف بها.. وإثارة الوجدان ليعشقها.. ويعمل بمقتضاها بعد أن تكون الأحكام معروفة.. ابتداء..

والخطبة بهذا المعنى تحتاج إلى خطبة!!

فالمطلوب فى مثل هذا الموقف: دعوة الناس إلى العمل لينالوا من رحمة الله المذكورة فى السورة. استعداداً للوقوف بين يديه سبحانه فى يوم: الملك فيه لله وحده.. ثم يدلهم على طريق الوصول وهو: ﴿**إياك نعبد**﴾.

وهذا هو واجبكم.. فقدموه أولا.. لتنالوا حقكم عنده سبحانه: ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾.

وقد نقد أبو الفرج بن الجوزى[1] الفقهاء الذين جعلوا الفقه أحكاما تساق إلى العقل المجرد.. دون حساب للوجدان وفاعليته..

(إنهم جعلوا النظر جل اشتغالهم. ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن. وسماع الحديث. وسيرة الرسول ﷺ.

(١) تلبيس إبليس.

ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير.

وهى محتاجة إلى التذكار والمواعظ. لتنهض لطلب الآخرة).

وإذا كان هذا شأن الفقهاء وصناعتهم استنباط الأحكام.. فجدير بالخطباء ألا يدخلوا فى أحوال غيرهم.. وأن يخاطبوا القلوب بما يوقظ فيها أثمن ما تملكه من مشاعر.

تحديد المفاهيم:

بلسان الأدباء نقول:

بعض المتحدثين يعطيك كوبا فارغاً...وقد يعطيك كوباً من شراب ردىء يصيبك بالخمول.. فإذا أنت نادم على لحظات أعرت فيها انتباهك لصوت كان من الممكن أن يكون لك.. لا عليك..

وبعض المتحدثين يسقيك شراباً تحس به أنك ممتلئ بتجربة إنسانية حية.. فيها ذوب القلب الإنسانى..

إن روحك من قبله كانت حبيسة خلف الضلوع.. فإذا بهذا الخطيب يستنبت لك فيها أجنحة.. تشق جدار الجسد.. لتنطلق.. وتطير بك فوق القمم البعيدة!

استمعت إلى خطبة فى موضوع الحسد.. فكيف كان العرض؟

المعلومات من الوفرة بمكان.. والنذير المدمدم يدق أدمغة الناس تهويلا لأمر الحسد.. وما هو الحسد المتوعد عليه؟

ذلك ما لم يوضحه الخطيب؟ وكيف نتخلص منه؟ وهل الغيرة المحمودة داخلة فى الموضوع؟

أسئلة تبحث عن جواب.. ولا جواب:

ويخيل إلى أن ذلك الحديث المطلق بلا تحديد أو تقييد يوقع المستمعين جميعاً فى الحرج. لاسيما والخطيب يركز على تحاسد الأقارب.. الذين هم كالعقارب.. أو كما قال!

والمسألة فى حاجة إلى عرض جديد.. يجلى الحقيقة.. ولا يضع الناس

جميعاً فى قفص الاتهام . .

ويمكن أن تعرض القضية هكذا:

١ـ مائدة الكون حافلة بالنعم . . وميسرة لكل الناس . .

٢ـ قد ينال غيرك حظاً أوفر من حظك . .

٣ـ ولكن . . عليك أن تسأل نفسك: كيف وصل إلى ما لم تصل إليه؟

وهل منعك أحد أن تكون مثله؟ هل منعك هو بالذات؟

٤ـ وإذا لم يكن قد منعك . . فلماذا تحسده؟

٥ـ إن الاشتغال بكراهية المحسود فضلا عن أثره فى إرهاق قلبك وتحطيم أعصابك . . يضيع عليك فرصة العمل لتمضى من ورائه إلى مثل ما وصل إليه أو تزيد . . وواجبك أن ترصد وقتك المضيع فى دوامة الحقد . . لتنفقه فى عمل نافع .

٦ـ إن الإسلام يرحب بالتنافس الشريف بين الأفراد ومن ثم الحسد بمعنى الغبطة . . بمعنى أن تكون مثل الغير مسموح لك!

فكن منافساً شريفاً . . بدل أن نعلنها حرباً فى الخفاء تعرقل بها طموح غيرك . . ولا تقدم أنت البديل!

٧ـ ثم . . ألا تنظر إلى نفسك نظرة أعمق؟

ربما كانت النعمة المحسودة لا تساوى نعمة لديك . . أنستك الغفلة الإحساس بها . . . عينك الباصرة . . ساعدك القوى . . نومك الهادئ أولادك الطيبون عملك الميسر . . . كل أولئك قد يكون أربى فى الميزان مما يدل به الآخرون . .

٨ـ أما تحاسد الأقارب . فليس هناك قريب أولى باللوم من قريبه!

وقبل أن يشعل الخطيب فى قلبك نار الانتقام من قريبك الذى تظنه يحسدك . . لابد أن تكون لكما معا ـ الخطيب وأنت ـ وقفة:

فقد يكون الحسد مفاعلة من الجانبين . . من أجل ذلك فاللوم يقبل القسمة على اثنين! . . . وبالتالى . . فلتكن الخطبة فرصة يصلح فيها كل إنسان قلبه . . لنمضى معا على طريق الأخوة . . فى تعاون على البر والتقوى لا على الإثم

والعدوان.

التحذير من الظلم:

يشن المتحدث هجوماً عنيفاً على الظلم والظالمين.. وفى نفس الوقت يلقى فى روع المستمع صورة الظالم المتسلط.. الآكل أموال الناس بالباطل.. المستبيح أعراض الناس.. ويحس أكثر المستمعين أنك تعنى أشخاصاً بالذات تنطبق عليهم هذه الأوصاف!

والأمر إذن فى حاجة إلى تفصيل يتحرر به المراد:

فأعلى صور الظلم أن يظلم الإنسان نفسه بمعصية الله تعالى.. وهو نفسه المؤدى إلى ارتكاب الظلم الفاحش مع الآخرين..

فكل مسلم معرض - إن لم يكن فعلا - لهذا النوع من الانحراف.. فيجب أولا أن نحرك انتباهه ليأخذ مكانه فى موقع المسؤولية عن معصيته التى هى لون من الظلم وإن بدت له هينة.. على أن الناس - قبل أن يسمعوا الهجوم على الظلم - فى حاجة إلى تربية تفتح أنظارهم على مواقع أقدامهم حتى لا يضلوا السبيل..

وما تغنى الآيات والنذر عن قوم باطنهم خواء من الضمير.. فلنوقظ فى كيانهم ذلك الضمير الغافى ليعين المرشد على بلوغ أمله.. فى محاولة يرى فيها مصارع الغابرين من قبله.. لعله يذكر أو يخشى..

أى أن الهجوم العنيف إجراء أخير بعد أن تقول التربية كلمتها..

ولنبدأ بمعركتنا داخل النفس الإنسانية أولا:

لقد كانت الأصنام تطل بعيونها الجامدة حول البيت.. ولم يرد الرسول ﷺ - أول الأمر.. تحطيمها.. ولو أراد لأمر.. ولو أمر لحطمت.. ولكنه عالج أصل الداء فى قلوب عليها أقفالها..

وزامل النفس فى رحلتها المباركة عبر التوحيد.. حتى تكسب المناعة ضد المعصية القديمة.. فمن آمن فبها.. وإلا فإن الهجوم حينئذ يكون مناسباً.. مستهدفاً به أنفسا لا تخاف إلا بعيونها كما يقولون.

إن واجب الداعي لا يقتصر على إبلاغ الناس حكم الله تعالى فى موضوع. . ولكنه مكلف قبل ذلك بأن يصوغ حياته لتتجاوب مع هذا الحكم. . ولا يتم له ذلك إلا إذا أخذ فى اعتباره أشعار القلب بهذه الأحكام. . لتتحول فيه إلى عقيدة تحمله على فعل الخير. .

(إن حفظ معانى الإسلام فقط دون أن تمس هذه المعانى القلب ودون أن ينصبغ بها السلوك. لا يفيد فى التقويم ولا فى صلاح المسلم.

إن من يحفظ مناهج الرياضة فى تقوية الجسد. ويذكرها إذا سئل عنها. أو يرددها بنفسه دون أن يطبقها فعلا فى نفسه لا يكتسب صحة جيدة. ولا جسما قويا. . .وكذلك من يعرف الإسلام ويحفظ معانيه. دون أن يربى نفسه عليها.

وفضلا عن ذلك فإن من يتعلم ولا يعمل بما تعلم عرضة للانزلاق عند أول فتنة أو امتحان)[1].

إن حشر الذهن بالمعلومات لا ينشئ الخلق الأصيل. . كما أن تشديد النكير - فى غير مناسبة - ربما صدم بعض الكيانات الهشة. . التى تحاول الدخول فى ساحة الرضوان. . وقد تذهلها النذر. . ويربكها المصير المظلم. . فترجع إلى حيث كانت. . وواجبنا أن نأخذ بيدها. . والزمن جزء من العلاج.

. . والغرور:

إن المتكبر المغرور معزول عن الواقع. . محروم من الإدراك السليم لحقائق الأشياء كما هى. . وإذن. . فحين نصب جام غضبنا على أم رأسه فإننا نساعده من حيث لا نحتسب ليزداد طغيانا واقتناعاً بموقفه.

إنه فى حاجة إلى مناقشة هادئة من فوق المنبر. . وعلى مرأى ومسمع من الحاضرين:

لماذا أنت مغرور؟ لأنك تتقلب فى نعمة المال والولد والصحة؟

فهل أنت الذى خلقت هذه النعم؟ أم هى فيض من الحق تعالى عليك؟

وإذا كان الأمر كذلك. فإن واجبك أن تشكر واهبها بالتواضع. . وأين الذين

(١) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة: ٤٢٧.

نعموا قبلك بأمثالها هل دامت لهم؟

وإذا كان هناك وقفة متشددة مع العالم المتكبر بعلمه.. لأن الظن أن يكون آخر المتكبرين المغرورين.. فبالحكمة والمنطق المتزن أيضاً:

إذا كان الكبر من الرجل العادى بغيضاً.. فهو أبغض ما يكون من العالم: لماذا؟

١ـ لأن زيادة العلم تكشف للعالم أنه لم يعلم شيئاً ذا بال وأن ما جهل أكثر مما علم..

٢ـ ومن شأن العلم أن ينشئ فيك خلق التواضع.. فإذا بقيت مع العلم متكبرا فابحث لك عن قلب آخر.. ومن المفيد أن نستوعب فى هذا المجال تجارب غيرنا مهما كان دينهم أو جنسهم.

فالشاعر «إيليا أبو ماضى» يشن الغارة على صديقه الذى استكبر عليه. وتنكر للصداقة يوما.. فأدبر وتولى..

وها هو ذا يسدد ضرباته للأسس التى يمكن أن يكون قد أقام عليها كبرياءه.. فانهارت جميعاً ليبدو عارياً من كل فضل قال:

نسى الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيها وعربد
وكسى الخز جسمه فتباهى.. وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخى: لا تمل بوجهك عنى ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
النجوم التى تراها أراها حين تخفى وعندما تتوقد
قمر واحد يطل علينا.. وعلى الكوخ والبناء الموطد
أجميل وما أنت أبهى من الوردة ذات الشذى ولا أنت أجود
أم قوى؟ إذا مر الليل إذ يغشاك والنوم عن جفونك يرتد
وامنع الشيب أن يلم بفوديك ومر تلبث النضارة فى الخد
أيها الطين: لست أسمى وأنقى من تراب تدوس أو تتوسد
سدت أم لم تسد فما أنت إلا حيوان مسير مستعبد

وهذا الذى نقدمه ما هو إلا أمثلة نوضح بها بعض المعالم.. لمن شاء أن يتخذ إلى منصة الخطابة سبيلا.

وإلا.. فالساحة حافلة - والحمد لله - بأساتذة يصنعون الأجيال على أعينهم.. وعلى تقوى من الله ورضوان.. وما نحن فى موكب هؤلاء المعلمين المربين إلا أعوان على الخير.. وإذا فاتنا التوفيق أحياناً.. فإن النية الخالصة - بعون الله - لا تنقصنا وهى حجتنا المؤكدة رغبتنا فى الإصلاح.. ليأخذ المرشدون مكانهم المرموق بين دعاة الإصلاح.

[من البصر.. إلى البصيرة]:

تثبت التجربة اليومية قدرة أناس على الحديث.. والحديث بطلاقة وبلا تلعثم.. ولكن.. إذا كان الحديث فوق «مصطبة» أو تحت شجرة!

أما أن يتم من فوق المنبر.. فدون ذلك هموم ثقال: إن الناس هم الناس.. والأفكار هى الأفكار.. بيد أنه سرعان ما تتجمد المعانى فلا تنطلق.. وتخور الأعصاب فلا تقوى على حمل جثة تتصبب عرقاً من هول الموقف!!

وعندما ألتقى بواحد من هؤلاء أنصحه أن يبدأ التجربة بقصة.. معززة بآية أو حديث أو موقف تاريخى.

فالكلام المرتب المنمق.. والذى يعالج القضايا كمقالة فى صحيفة أو مجلة سرعان ما يفر منك إذا ارتجلت..

وهذه مرحلة تالية.. مسبوقة بالاطلاع الواسع الذى يمدك بسيل من المعلومات يسعفك بالقول السهل الميسر.. أما فى البداية فالقصة أنسب لك وللمستمع:

أما أنها أوفق بك: فلأن عناصرها وأشخاصها واضحة فى ذهنك.. وأنت منها مرتكز على مادة يصعب نسيانها.

وإذا غلبك النسيان على بعض مراحلها.. فسوف تبقى لك بقية!

والمستمع يتابع من خلال حديثك أشخاص القصة كأنه يراهم.. فيلاحقهم بخياله.. فيتحرك وجدانه.. وتستيقظ فيه غريزة حب الاستطلاع.. فيفتح لك

سمعه وقلبه.. فتصب فيها ما تشاء.. حتى تبلغ القرار..

وحتى إذا لم تحسن العرض فإن ما قدمته من جوانب القصة شافع لك.. وإنه ليعدك لمستقبل تكون أقدر فيه على صناعة الكلام.

وقد ينجح الإنسان فتحمله قدماه لحظات ليقول كلمته ثم يمضى.. ولا تخونه أعصابه هذه المرة.. ولكن تخونه معلوماته التى لا تسعفه بالمطلوب فى موقف معين.

فما هو السبيل إلى مستوى أرفع؟

إذا كان سعة الاطلاع ضرورة فإن هناك واجباً لا يقل خطراً عن ذلك. هو تجاوز النظر بالبصر.. إلى تأمل البصيرة النافذة إلى ما وراء السطور:

أى أن المادة العلمية المتاحة لك.. والحاضرة فى ذهنك لا تكون قد وفيتها حقها إذا ألقيتها إلقاء..

بل لابد من تأمل دقائقها.. ومواقفها فى محاولة لاستنباط تفصيلات لا يفطن لها القارئ العادى.

وأنا أعلم أن بعض الفاقهين من المتحدثين يغمضون أعينهم بعد الإحاطة بجوانب الموضوع المراد.. يغمضونها فى سبحات فكرية وعاطفية تستكشف.. وترتب وتستنبط ويمكن لمن أراد أن يؤدى واجبه كاملا أن يسير على نفس الطريق.

إن القراءة المتعجلة تقف بك عند القشرة البادية.. بينما تظل البصيرة محجوبة عن أثمن ما فى الآية أو الحديث من أسرار تغرى بالبحث والنظر.

أمثلة:

قد تكون الرابطة غير مفهومة بين العمل ونتيجته أو جزائه فتبدو الطاعة للوهلة الأولى محدودة.. لكن جزاءها غير محدود..

ومثل ذلك يقال فى جانب المعصية أيضاً.. فالمرأة تدخل النار فى هرة.. حبستها ولم تطعمها.. ورجل يدخل الجنة.. فى كلب سقاه.

والصخرة تتحرك من فوق الغار.. ويخرج الثلاثة بما قدموا من عمل.. من

هدى مسلماً إلى طريق.. كان مثل عتق رقبة.. ومن دافع عن عرضه فى غيبته كان حقاً على الله أن يعتقه من النار.

الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب.. لماذا؟

وفى حديث الصحابى الذى أخبر عنه ﷺ بأنه من أهل الجنة.. مما دفع بعض الصحابة إلى افتعال خصومة بينه وبين أبيه ليقف على حقيقة الطاعة التى رشحته للجنة.

فى مثل هذا الموقف يركز الخطباء على الجنة ونعيمها.. ثم يثيرون المشاعر المشوقة إلى الجنة دون تركيز على دور ذلك الشاب الذى أسره الموقف.. ودبر الحيلة الذكية وما يدل عليه من همة الشباب وكيف هى مشغولة بالجنة. لا باللعب مثلا.. ومثل ذلك موقف الجارية التى انكسر فى يدها الإبريق بين يدى على رضى الله عنه:

ترانا نركز على حسن خلقه رضى الله عنه ـ وهذا أمر وارد بطبيعة الحال ـ لكننا ننسى موقف الجارية التى يقيمها الله حجة علينا وعلى بنات اليوم.. لقد كانت تحفظ القرآن.. بل وتفهمه.. بل وتحسن الاستشهاد به على نحو عز نظيره.

وفى قضية الثلاثة أصحاب الغار مثلا يمكن كشف اللثام عن أهمية الطاعات التى كانت سبباً فى فرج الله القريب.. وهو ما تضرع به الشباب إلى الله تعالى.. وكيف يمكن أن توجه النصيحة إلى الأمة وإلى الأفراد فى أزماتها الاقتصادية الخانقة مثلا لتسير على نفس الدرب.. وتتخلق بالعفة وبر الوالدين.. وتحقيق العدل.. حتى يأتيها نصر الله والفتح..

كما أتى أخوة لهم داخل الغار.. فكشف الله الغمة. وقد يشتمل الحديث الشريف على حقائق كبيرة تحرمنا النظرة العجلى لى من كشفها.

إن فى الحديث أسماء.. والأسماء لرجال أو أطفال أو نساء ولكل واحد من هؤلاء دور.. وكل ذلك تمت صياغته على أو فى أسلوب بمطالب النفس.. ومهمتنا أن نتريث لنتابع فى يقظة هذه الأدوار ثم نجليها للناس..

وعلى سبيل المثال:

عن أنس قال أتى على رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان قال: فسلم علينا فبعثنى إلى حاجة فأبطأت على أمى فلما جئت قالت ماحبسك قلت: بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة. قالت: ما حاجته. قلت: إنها سرٌ. قالت لا تحدثَنَّ بسر رسول الله ﷺ أحدا.[1]. رواه مسلم.

ما دلالة تسليم الكبير على الصغير؟

ولماذا أنس بالذات يرسله فى حاجته؟

لقد جلس ﷺ فى الطريق ينتظره.. فهل هناك من بأس فى ذلك؟

ولماذا تناقشه أمه الحساب على تأخيره؟.

ألا يدل ذلك على أن للبيت نظاماً ينبغى أن يحترم؟

ما دلالة الموقف العظيم لأنس رضى الله عنه حين رفض أن يبوح بسر رسول الله.. ألا يكون أشد كتمانا به عن رفاقه بينما لا يزال صبياً غض العود؟

وأين من أنس اليوم رجال يبوحون بأسرار أوطانهم؟

ما الذى صنع هذا الجيل؟

إنه الإسلام.. فاتبعوه!

وهذه التساؤلات داخلة فى إمكان كل خطيب راغب فى التزود لرحلته.. مقبل عليها بكل إمكاناته..

وهو مثال يدعوك إلى وقفات مماثلة أمام تراثنا الذى لا يعطيك كنوزه حتى تعطيه عقلك.. وذاكرتك وكل منافذ المعرفة لديك.

وبعد:

فهذه نصائح أبديها: ﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء﴾ـ وقد أكون هنا: الناقد.. والمنقود!!.

---

(١) صحيح مسلم ـ مشكول. كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أنس بن مالك جـ٧ صـ١٦٠. ط. محمد على صبيح.

فكل متحدث يؤخذ منه.. ويرد عليه.. وكل بنى آدم خطاء.. وخير الخطائين التوابون.. السائرون على طريق الإصلاح في محاولات مستمرة لتسير بالموهبة إلى الأمثل..

وربما كان من بين هذه السلبيات ما وقعت وأقع فيه فعلا.. ولا أكشف العيب إلا بعد الممارسة.. وإذن.. فأنا أحياناً أهدى عيوبى.. لتكون درساً يحول بين غيرى وبين ما وقعت فيه..

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع مجيب.

*****

الإيجـــــــاز

الإيجاز فطرة العربى:

ذلك بأن دوام التجوال جعله يختصر فى ممتلكاته حتى يسهل تنقله.. وقد انعكس هذا الاختصار.. أو هذا الإيجاز المادى على المعانى.. فاهتم بها مؤثرا أن تكون موجزة.

وقد أشار ابن جنى إلى هذه الخصيصة فى كتابه «الخصائص» حين قال: إن آيات القرآن الكريم حين تخاطب اليهود فإنها تطيل...لكنها توجز فى مخاطبة العربى.. ذلك بأن اليهود أهل كتاب وربما كان لشبهاتهم صدى فى قلوب الأغرار.. فكان الإطناب سبيلا إلى الإلحاح فى الحديث إليهم.. وعنهم وقد أعلن العربى عن هذه الفطرة.. فطرة الإيجاز.

بلا مواربة على لسان ذلك الرجل الذى جاء إلى النبى ﷺ وقال له: أوصنى.. وأوجز[1].

وعلى ما فى هذا الشرط من جفاء.. لو حدث اليوم لكان مالا تحمد عقباه.. إلا أنه يظل دليلا على تمكن حب الإيجاز فى جبلة العربى..

فمع أن هذا الرجل وأمثاله يقول الحصى.. والرسول إنما يقول الياقوت.. إلا أن شرط الإيجاز كان لازما!!

وبقى الدرس وهو:

أهمية التركيز.. ورفض الإطالة فى الحس العربى..

هذا الحس الذى نكتشف عمقه فى موقف رجل دعا فقال: اللهم ارحمنا وارزقنا. وعافنا!

فقيل له زدنا فقال: أعوذ بالله من الإسهاب!! وصدق الرجل:

فماذا بقى للإنسان من توفر نعم: الرحمة. والرزق. والصحة!

(١) رواه الحاكم والبيهقى.

ومن دلائل حب العربى للإيجاز ذلك النقد الذى توجه به عربى لإياس بن معاوية إذ قال له: لا عيب فيك إلا أنك معجب بكلامك؟!

فقال: أو أعجبكم كلامى؟!

قالوا: نعم.

قال: فأنا أحق أن أعجب به!

فلما قيل له: لا عيب فيك إلا أنك تسهب.

فقال: أقول حقا أم باطلا؟

قالوا: تقول حقا!

فقال: الزيادة فى الخير خير!

وإذا بدأ أن إياسا بذكائه كسب القضية.. فقد بقيت للإطالة ظروفها الخاصة والضرورية.

قيل لعمر بن العلاء: لم كانت العرب تطيل؟ قال: ليُسمع منها... ولم كانت توجز؟ قال: ليحفظ عنها... فلكل مقام مقال..

ولكن مع جواز الإطالة.. لسبب.. يبقى الإيجاز هو الأصل.

وتلك سمة العربية المشتقة من كتابها المجيد.

قال بطارقة الروم لعمر رضى الله عنه لما سمعوا قوله تعالى: ﴿**ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه..**﴾ الآية.

قالوا: لقد جُمع فى هذه الآية ما أنزل الله على عيسى من أمور الدنيا والآخرة.

ولكن ناسا يخبطون.. ويتجاوزون.. ومنهم الحجاج. خطب يوما فأطال.. فقال له رجل: الصلاة!.. فإن الوقت لا ينتظرك!

فأمر الحجاج بحبسه!

وأتاه أهل الرجل زاعمين أنه مجنون! وسألوه أن يخلى سبيله!

فقال الحجاج: إن أقرب بالجنون خليته!

فقيل للرجل فى ذلك فقال: معاذ الله! لا أزعم أن الله ابتلانى.. وقد عافانى.

فلما بلغ ذلك الحجاج.. عفا عنه: لصدقه وشجاعته فى الحق.

موقف:

كان ابن السماك يتحدث وجارية له تسمع. فقال لها: ما رأيك؟ قالت: كلامك حسن. لولا أنك تكثر ترداده.

فقال: أردده ليفهم من لم يفهم!

فقالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه. يكون قد ملّه من فهمه!!

إنها فتاة: عربية.. مسلمة.. وأديبة ذواقة فى نفس الوقت. تعلم من أسرار النفس ما لم يعلمه سيدها...وتسمح لها شجاعتها الأدبية.. أن تراجع سيدها.. ثم تكسب القضية..

فلم يكن هناك صراع بين الأجيال كالذى يحدث اليوم..وإنما هو التكامل.. الذى يثرى اللغة العربية.. إنها.. تلميذة أدبية.. ومع الأدب.. شجاعة أدبية.

ما أحوجنا إليها الآن.. فرارا من صراع «الموضة». والشهادة.. وما رمتنا به الحضارة من ماديات.. حجبت بريق هذه الفطرة السليمة..

وإذا كانوا يقولون: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»

فقد كان منطق هذه الفتاة دليلا على سعة الأفق.. الذى يستوعب المواقف من كل زواياها.. ومن ثم تجىء العبارة موجزة بريئة من حشو الكلام.. كلام من لم ير الموقف بكل أبعاده.. ومن ثم يبدئ ويعيد.. خائضا فيما يفيد وما لا يفيد!

ومازلت أذكر موقفا لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: فقد أصدر قرارا بعزل واحد من القضاة.. اشتهر بالعدل.

ولما تساءل القاضى عن سر عزله قال له الخليفة: لأنى وجدت كلامك أكثر من كلام الخصمين؟!

إن الإيجاز فضلا عن صعوبته.. إلا أنه أخصر الطرق التى تصل بالمعانى إلى مستقرها.. وقبل أن يرد. إحساس المستمع بالإطالة.. فإن الإيجاز يصل بالمعنى إلى القلب وهو يقظان.. مشوق.

*****

خير اللغات

وبهذا الإيجاز.. صارت العربية خير اللغات...لأن الإيجاز هو التعبير بالألفاظ القليلة عن المعانى الكثيرة وخير الكلام ما قل ودل...بينما غيرها من اللغات يطنب صاحبها.. ثم لا يُفهم..

وقد يعمد إلى الإشارة.. بيده.. أو يهب واقفا ليصور معنى «الطول» مثلا.

أما إيجاز اللغة العربية فيعنى:

أ ـ توفير الطاقة.

ب ـ والوقت.

ثم الوصول إلى المعنى.. فى أقل وقت.. وبأقل جهد.

بينما الإطناب فى اللغات الأخرى قد ينيم المستمع. فلا يبقى له نشاط يستقبل به المعنى الذى يجىء بعد الإطناب بطيئا مُملاً.

بالإضافة إلى أن تكثير المعانى للفظ الواحد ضرورى ليتسع كتاب الله تعالى لكل مراد الله تعالى.

مثال: يقول تعالى: **﴿ويتلوه شاهد﴾**.

يراد بالشاهد:

١ـ جبريل.

٢ـ أو الإنجيل.

٣ـ أو القرآن نفسه.

واللفظ يتحمل كل هذه المعانى.

[مناقشة عشاق الإسهاب].

قد يطيل الخطيب إطالة تفرض الملل على المستمعين. . .ولكنا نقف معه فى حوار سريع يضع النقاط على الحروف:

أنت أيها الخطيب. . قوى. . لكن غيرك ضعيف. .

صحيح. . ولكن غيرك مريض. . .ليس لك ارتباطات. . وغيرك مشغول بحاجته. .

أنت داخل المسجد فى الجو البارد. . بينما غيرك حبسه الزحام خارج المسجد. . وقد تزاهم بعينك يتصببون عرقا. . وعليك أن ترحمهم. .

وإذا كانت معلوماتك غزيرة. . فاحتفظ بالفائض منها لدرس بعد الصلاة. . يتلقاه عنك المستعدون لهذا التلقى. .

*****

[الإيجاز على ألسنة البلغاء]

كان عبد الله بن مسعود يقول:

حدِّث الناس ما حدجوك بأسماعهم [وجهوها نحوك] ولحظوك بأبصارهم. فإذا رأيت منهم فتورا فأمسك.

قال بعض الحكماء: كلام المرء بيان فضله. وترجمان عقله. فأقصره على الجميل. واقتصر منه على القليل.

وقال آخر: الحصر خير من الهذر: لأن الحصر يضعف الحجة. والهذر يتلف المحجة.

قال الهيثم بن صالح لابنه: يا بنى إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب.

وقال أبو عثمان الجاحظ: للكلام غاية. ولنشاط السامعين نهاية. وما فضل عن مقدار الاحتمال. ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر.

قال جعفر بن يحيى: إذا كان الإيجاز كافيا. كان الإكثار عيا. وإذا كان الإكثار واجبا كان التقصير عجزا.

قال حكيم: إذا تم العقل نقص الكلام.

قال أبو عباد: للمحدث على جليسة السامع حديثه: أن يجمع له باله. ويصغى إلى حديثه. ويكتم عليه سره. ويبسط له عذره. وقال: ينبغى للمحدث إذا أنكر عين السامع أن يستفهمه عن معنى حديثه.

فإن وجده قد أخلص له الاستماع أتم له الحديث. وإن كان لاهيا عنه حرمه حسن الإقبال عليه. ونفع المؤانسة له. . . وعرفه بسوء الاستماع والتقصير فى حق المتحدث.

وقال: نشاط المحدث على قدر فهم المستمع.

[صور من الإيجاز]

دعت أعرابية فقالت: اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك. . فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك.

وفى الحج.. حيث تفيض العبرات.. وتجد النفس راحتها فى الإسهاب فى الدعاء شوقا إلى الغفران.. إلا أن العربى ما يزال محتفظا بحبه للإيجاز:

قيل إن أعرابية حجت.. فلما صارت بالموقف فى عرفات قالت: أسألك الصحبة يا كريم الصحبة.. وأسألك سترك الذى لا تزيله الرياح ولا تخرقه الرماح. وما أجمل هذا الدعاء الذى جمع فأوعى.. اللهم إنا أطعناك فى أحب الأشياء إليك: وهو التوحيد... ولم نعصك فى أبغض الأشياء إليك.. وهو: الشرك.. فاغفر لنا ما بين ذلك!!

[قلب الأمير والكلمة النافذة]

قال الفتى للحجاج: مات أبى وأنا حمل...وماتت أمى وأنا رضيع...فكلفنى الغرباء. حتى ترعرعت...فوثب بعض أهلى على مالى. فاجتاحه وهو هارب منى.. ومن عدل الأمير.

فقال الحجاج: الله!!..مات أبوك وأنت حمل.. وماتت أمك وأنت رضيع. وكفلك الغرباء..

فلم يمنعك ذلك من أن تكون فصيح اللسان...الذى أنبأت به عن إرادتك؟!.. ثم قضى حاجته..

ولقد كان الإعجاب بالمنطق الموجز الخلاب.. وليد سليقة عربية أصيلة.. هى هى نفسها السليقة التى كانت تهب لتصحح المنطق.. وتسدد خطاه ليجىء على هوى تلك الطبيعة الأصيلة:

سمع الشاعر المطبوع من يقول:

قد يدرك المتأنى بعض حـاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل!

فقال: هذا مثبط.. فما زاد على أن ثبط الناس عن الحزم..

فهلا قال بعد ذلك:

وربما ضرّ بعض الناس حزمهمو ... وكان خيرا لهم لو أنهم عجلوا!

الخطبة.. طولا

عن واصل بن حيان قال قال أبو وائل خطبنا عمار فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت فلو كنت تنفست فقال إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة وإن من البيان لسحرا»** [1]رواه مسلم صحيح مسلم .

إذا كانت البذرة تحتاج إلى: صلاح الأرض.. وملاءمة الجو.. ووفرة الماء.. واستمرار الرعاية.. مع أنها تحمل بذاتها خصائص النمو.. فإن الدعوة فى حاجة إلى مثل ذلك:

فمع أن الإسلام صالح بمبادئه.. التى تحمل تأثيراً ذاتياً.. لكن نفس المدعو على الطرف المقابل.. لا تستعد للإنبات فى كل وقت.. وتحت أى ظروف.. بل لابد من ملاءمة الجو.. وتهيؤ الظروف.. وصلاحيتها للتأثر والاستجابة.. وكما أن اختيار الموضوع يشكل جانبا مهما فى عملية التربية.. فإن زمن الخطبة يأخذ نفس الأهمية من حيث صلة الاثنين بطبيعة الإنسان النافرة من التعقيد.. والجانحة إلى الفرار من ملالة الجاد من الأمور.. هروباً إلى لهو الحياة ولعبها.. الأمر الذى يفرض تناسب الموضوع. وقصر الخطبة رعاية لهذه الطبيعة.. وإمساكاً للنفس قبل أن يرهقها الملال.. وضغط الموعظة.. فلا تفيد..

وقد تكون الجمعة فى مسجد مطار أو موقف قاطرات مثلا.. وإذن فإن شغل البال بهموم السفر يجعل من قصر الخطبة بل والصلاة أمراً لازماً..

وإذا كان ولابد من طول.. فليكن من حظ الصلاة.. لا الخطبة. كما يقرر الحديث الشريف.

إن الخطبة تمهيد يعد الذهن والقلب معاً للمثول المستغرق بين يدى الله تعالى.. بالصلاة.. التى هى حضور بين يدى الله تعالى وامتداد ذلك اللقاء ضرورى لصقل الروح وترقيق المشاعر.. بهذه المناجاة الحية.. الشخصية.. والتى

(١) كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة جـ٣ صـ١٢. ط. محمد على صبيح.

لا تتم بمجرد الكلام المسترسل الطويل المكرور!.

وإذا كان الشارع الحكيم قد تجاوز فى السفر عن نصف الصلاة.. إفساحاً للمجال أمام الإنسان.. وتقديراً لمهمة المسافر الغريب.. فان تقدير الوقت فى حالة السفر بقصر الخطبة أمر واجب.

وإذا كانت البراعة فى وصف الواقع أمرا ضرورياً.. يتكفل به الحديث.. فإن تغيير واقع الإنسان وواقع الحياة أكثر ضرورة.. ولا يتم ذلك إلا بطول المثول بين يديه سبحانه.. فى لحظات تقف فيها النفس عارية.. واجفة.. أمام ربها.. الذى يقبل التوبة عن عباده.

إن فترة الوجود فى المسجد تختلف اختلافاً كلياً.. عن كل مكان:

فالناس ـ فى رحابه ـ فيهم الضعيف.. والمريض.. وذو الحاجة.. وحتى الأقوياء منهم والأصحاء والفارغون من هم الحاجة.. ما هو موقفهم.. وما الذى يطرأ عليهم مما يفرض على الخطيب أخذه فى اعتباره. لتجىء الخطبة قصيرة معبرة؟.

١ ـ سيترك المصلون أعمالهم.. تراودهم أحلام الكسب.

٢ ـ ثم إنهم يستمرون جلوساً.

٣ ـ صامتين.. أو ذاكرين.

٤ ـ محتفظين بالطهارة.

٥ ـ أخطاؤهم محسوبة عليهم..

إلى غير ذلك من القيود المفروضة والآداب الشرعية القاضية بالنظر إليها بعين الاعتبار..

وإذا كانت هناك رغبة متبادلة فى حديث طويل.. فليكن بعد الصلاة.. وبعد أن يزايل المسجد أصحاب الأعذار والحاجات.. ولا يبقى إلا المستأنسون للحديث.

وقد يكون من واجب الخطيب قراءة النشرة الجوية!!

فإن شدة الحر.. وشدة البرد أيضاً.. عوائق ترهق الذهن إلى حد يفقد القدرة

على التركيز والاستيعاب!.

ومن ثم.. فرعاية الأحوال الجوية أمر وارد.. يتصل بالخطبة طولا وقصراً..

من هدى الرسول:

(كان لرسول الله ﷺ الخطب الطوال فى المواسم الكبار ولم يطل التماساً للطول. ولا رغبة فى إظهار القدرة علىّ الكثير.

ولكن المعانى إذا كثرت. والوجوه إذا افتنت كثر عدد اللفظ. فأكثر أحوال النبى الإقلال من الكلام. ولكن ذلك ليس عن عجز. بل كراهة للتكلف. وإظهار القدرة على الكلام.

وقد كان ذلك شأن كثيرين من بلغاء العرب. ولا يزال شأن كثيرين من صناع الكلام.

قال الجاحظ: والذى تجود به القريحة. وتعطيه النفس سهواً رهوا مع قلة لفظه وعدد هجائه أحمد أمراً. وأحسن موقعاً من القلوب وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج.

قال: والدليل الواضح. والشاهد القاطع قول النبى ﷺ:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب فبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى»**[1] رواه البخارى.

عن أبى ثعلبة الخشنى قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أحبكم إلى وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى فى الآخرة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»**.[2] رواه أحمد.

---

(١) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب قول النبى ﷺ نصرت بالرغب جـ١٣. صـ٣. ٤. ط المصرية الأولى ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م.

(٢) قال الهيثمى ورجاله رجال الصحيح إلا أن الزهرى لم يدرك أبا الدرداء وقال السخاوى حديث منقطع.
الفتح الربانى بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل. كتاب الأخلاق الحسنة ـ باب الترغيب فى محاسن الأخلاق. جـ١٩. صـ٧٦. ط. الأولى سنة ١٣٧٥هـ.

عن جابر بن سمرة قال كنت أصلى مع رسول الله ﷺ صلاته قصدا وخطبته قصدا[1]. رواه امسلم.

عن جابر بن عبدالله قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبَّحكم ومسَّاكم ويقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول: «**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتُها وكل بدعة ضلالة**»ثم يقول: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلى وعلى**» رواه مسلم[2].

ويقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**». ويقرن بين أصبعيه: السبابه والوسطى.

ويقول: «**أما بعد:فان خير الحديث كتاب الله. وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها. وكل بدعة ضلالة**».

ثم يقول: «**أنا أولى من كل مؤمن بنفسه: من ترك ما لافلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فالى وعلى**»[3].

جوامع الكلم:

وجوامع الكلم: عبارات موجزة حكيمة. تتضمن كل عبارة منها معانى كثيرة. مع الوفاء بالمعنى الذى تضمنته... والإيجاز أبرز سمات البلاغة العربية. وبه امتازت العربية عن غيرها من اللغات.

وقد سئل بعض البلغاء عن البلاغة فقال: البلاغة الإيجاز وقد كان النبى ﷺ يعجب بالإيجاز. ومن ذلك أنه سمع أعرابياً يدعو ويقول: اللهم هب لى حقك. وأرض عنى خلقك... فقال النبى: «**هذا هو البلاغة**».

ولا شك أن الذى أعجب النبى ﷺ هو أن هذا الأعرابى جمع فى هاتين الكلمتين كل ما يطلبه الإنسان للسعادتين: الأخروية والدنيوية:

فالله سبحانه إذا وهب لعبد حقه. غفر له كل ذنوبه. وستر عليه كل عيوبه.

---

(١) صحيح مسلم بشرح كتاب الجمعة باب خطبته ﷺ فى الجمعة جـ٦. صـ١٥٣. ط. الكتبى.
(٢، ٣) المرجع السابق.

ورضى عنه.

عن حكيم بن حزام قال سألت النبى ﷺ. فأعطانى. ثم سألته فأعطانى، ثم سألته فأعطانى، ثم قال: «**إن هذا المال**»وربما قال سفيان قال لى حكيم. «**إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى**»[1]. رواه البخارى.

عن على رضى الله عنه: قال: قال ﷺ: «**أربعة من كنز الجنة: إخفاء الصدقة وكتمان المصيبة. وصلة الرحم، وقول لا حول ولاقوة إلا بالله**»[2] رواه الخطيب فى الجامع. ورمز له السيوطى بالضعف.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ: «**مَطْلُ الغنى ظلم فإذا أتبع أحدكم على ملىء فَلْيَتّبع**»[3]. رواه الأربعة.

عن أنس رضى الله عنه. قال قال ﷺ: «**دع ما يريبك إلى مالا يريبك**»[4] صحيح.

عن أنس رضى الله عنه. قال: قال ﷺ: «**احترسوا من الناس بسوء الظن**»[5]. رواه الطبرانى فى الأوسط ورمز له السيوطى بالضعف.

عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر**»[6] رواه مسلم.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ: «**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن: يكف عليه ضيعته. ويحوطه من ورائه**»[7] رواه البخارى فى الأدب.

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر العسقلانى ـ كتاب الرقاق باب ـ قول النبى ﷺ: «إن هذا المال خضرة حلوة» جـ١٤. صـ٣٦. ط. مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٧٨هـ ١٩٥٩م.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى جـ١. صـ٤٧٢. ط. الأولى. سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٥. صـ٥٢٣. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

(٤) فيض القدير. شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى جـ٣ صـ٥٢٨. ط، الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ١ صـ١٨١. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب عرض مقعد الميت عليه واثبات عذاب القبر. جـ٧. صـ٢٠٢، ٢٠٣. ط. حجازى بالقاهرة.

(٧) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامه المناوى. جـ٦. صـ٢٥٢. ط. الأولى ١٣٥٦ هـ ١٩٣٨م.

وهنا تبدو أهمية التركيز.. وكذلك كان البلغاء يقولون..

إن البلاغة كما يقولون. هى: إجاعة اللفظ وإشباع المعنى.. أو البلوغ إلى المعنى ولما يطل سفر الكلام.. أو قليل يفهم.. وكثير لا يسأم.

وإذن فإن التركيز الوافى أجمع لعناصر البلاغة من الأطناب الممل.. والنجاح فى هذا المجال راجع إلى حسن معرفة الخطيب بنفسية الجمهور ومزاجه..

ونقرأ «للمبرد» فى وصف الخطيب الناجح:

.طبيب بداء فنون الكلام   لم يعى يوما ولم يهذر
فان هو أطنب فى خطبة   قضى للمطيل على المنذر
وإن هو أواجز فى خطبة   قضى للمقل على المكثر

أى أنه فى إطنابه وإيجازه يستجيب للظروف ولمزاج المستمع فيصل بالكلمة إلى قرار النفوس.. ومعنى ذلك أن له قدرة على الكلام. وتصريف القول.. وأين هذا من خطيب:

مليء ببهر والتفات وسعله   ومسحة عثنون وفتل الأصابع

قال حكيم: إذا تم العقل نقص الكلام...والإقلال من الكلام يعنى: كثرة الصواب.

وقد كنت أقول لطلاب الدعوة: إذا طالت خطبتك.. كثرت أخطاؤك.. وكلما أوجزت فى كلامك.. قلت نسبة الخطأ فيه.. ونجوت من عتاب السامعين.

وإذا كان للكلام غاية.. فمتى تحققت.. فالزائد فضول يزرى بالعقول:

قال أبو عثمان الجاحظ: (للكلام غاية. ولنشاط السامعين نهاية. وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال. فذلك الفاضل هو الهذر).

والوقوع فى الهذر أخطر من الحصر: لأن الحصر يضعف الحجة. والهذر يتلف المحجة.

روى أن أعرابيا تكلم عند رسول الله ﷺ وأطال الكلام. فقال له النبى: «كم

دون لسان من حجاب؟»

فقال الأعرابى: شفتاى. وأسنانى.

فقال له: «فإن الله عز وجل يكره الانبعاق[1] فى الكلام. فنضر الله وجه امرئ أوجز فى كلامه. فاقتصر على حاجته».

وإن الاسترسال فى الحديث حيث لا داعى له إزراء بعقول السامعين. وسرقة لطاقاتهم وأوقاتهم.. وإذا كان الكلام بيانا لفضل الإنسان. وترجمان عقله فلم لا يقصره على الجميل.. القليل..

إنه حينئذ أبقى فى الذهن.. وأدعى لحسن الذكر.. وإذا كان الإيجاز كافيا.. كان الإكثار عيا.

وإذا كان الإكثار واجبا كان التقصير عجزا.

والأمر متروك لتقدير الخطيب المحكوم بالموقف وملابساته.

نماذج من الإيجاز:

كتب الإمام محمد عبده إلى صديق له يقول: إليك خطابى مطولا. فليس عندى وقت للإيجاز!!؟

وكأنه يقول له: إليك خطابى فى عشرين صفحة مثلا. فليس عندى وقت لتحريره فى صفحة واحدة؟!

ذلك بأن التركيز فن من فنون القول لا يقدر عليه إلا الخواص:

ومن السهل عليك أن ترسل قلمك على سجيته ليخط عشرات الصفحات...ومن الصعوبة بمكان أن تركز ذلك كله فى كلمات معدودات.

ومن هنا قيل: البلاغة الإيجاز.

قال رجل لسويد بن منجوف وقد أطال الخطبة بكلام افتتحه للصلح بين قوم من العرب: أتيت مرعى غير مرعاك. أفلا أدلك عليه؟

---

(١) الانبعاق فى الكلام. الاسترسال فيه والاندفاع.

قال: نعم. قال: قل: أما بعد: فإن فى الصلح بقاء الأحوال والآجال وحفظ الأموال. والسلام.!

فلما سمع القوم هذا الكلام تعانقوا.

روى الجاحظ عن يزيد بن إبان الرقاشى:

(ليتنا لم نخلق.. وليتنا إذ خلقنا. لم نعص...وليتنا إذ عصينا. لم نمت...وليتنا إذ متنا.. لم نبعث...وليتنا إذا بعثنا.. لم نحاسب..وليتنا إذ حوسبنا.. لم نعذب...وليتنا إذ عذبنا.. لم نخلد).

وخطب الحسن البصرى يوما فقال:

(يا ابن آدم: طأ الأرض بقدمك. فإنها عما قليل قبرك.

واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك.

فرحم الله رجلا نظر فتفكر.. وتفكر فاعتبر.. واعتبر فأبصر.. وأبصر فصبر).

ومع ذلك ما زال هناك إصرار من بعض الخطباء على إطالة الخطبة.. متخذاً من هذا الطول دليلا على تمكنه من القول!

وقد يحبس الناس بخطبته فى المسجد ليصلوا العصر بوضوء الجمعة!

فهل يحقق هذا الخطيب أهدافه؟

بالطبع: لا.. ولو أتى إليه الناس على شرطه هذا.. فلابد أن يحتويهم الملل يوما.. ثم لا يكون لحديثه تلك الجاذبية المعهودة المؤثرة. بالإضافة إلى أنه تعطيل لمصالح الناس.. ومانع من الانتشار فى الأرض ابتغاء فضل الله كما أشارت إلى ذلك آية من سورة الجمعة حيث يقول الله تعالى:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وكيف ينتشر فى الأرض بعد أن عاد إلى بيته من صلاة الجمعة فتناول طعام

غذائه ليستقبل الليل.. والنوم؟!

وأين هذا من كلمة موجزة توقظ الإحساس. ولا ينساها الناس مهما طال بها الزمان.

خطب سعيد بن سويد بحمص. فحمد الله.... وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: إن للاسلام حائطا منيعاً. وبابا وثيقاً: فحائط الإسلام: الحق. وبابه: العدل. ولا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان. وليست شدة السلطان قتلا بالسيف. ولا ضرباً بالسوط. ولكن قضاء بالحق. وأخذ بالعدل. وأستغفر الله لى ولكم.

الخطبة - فى رأى المتخصصين:

وأستغفر الله لى ولكم.

جمع قدامه بن جعفر خصائص الخطابة فقال[1]:

فمن أوصاف الخطابة:

أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد. وتوشح بالقرآن. وبالسائر من الأمثال. فإن ذلك مما يزين الخطب عند سامعيها. وتعظم به الفائدة فيها. ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله فى أولها: البتراء. وكل خطبة لا توشح بالقرآن والأمثال: الشوهاء.

ولا يتمثل فى الخطب الطوال التى يقام بها فى المحافل بشىء من الشعر. ومن أحب أن يستعمل ذلك فى الخطب القصار. والمواعظ والرسائل فليفعل.

إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة. فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر فى كتاب إليه...ولا بأس بذلك فى غيرها من الرسائل.

وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفا بمواقع القول وأوقاته. واحتمال المخاطبين له...فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الإطالة. فيقصر عن بلوغ المراد..

وألا يستعمل الإطالة فى موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة...فإن الإيجاز ينبغى أن يستعمل فى مخاطبة الخاصة. وذوى الأفهام

(١) نقد النثر ٩٥ للدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادى.

الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره. . .وفى المواعظ والسنن والوصايا التى يراد حفظها ونقلها. .

وأما الإطالة: ففى مخاطبة العوام. ومن ليس من ذوى الأفهام. ومن لا يكتفى من القول بيسيره. ولا يتفتق ذهنه إلا بتكريره. وإيضاح تفسيره.

ولهذا استعمل الله عز وجل فى مواضع من كتابه تكرير القصص. وتصريف القول ليفهم من بعد فهمه. ويعلم من قصر علمه.

واستعمل فى موضع آخر الإيجاز والاختصار لذوى العقول والأبصار].

*****

الحديث فى الظروف المناسبة

إن تقدير ظروف الناس سبيل إلى عودتهم للاستماع إليك. . والانتفاع بك. . وتجاهل هذه الحقيقة يترك آثاره على الدعوة ذاتها. . زهدا فيها. . وفرارا منها. .

وقد كنت فى ليبيا مرشدا[1] . وكان من تعليمات مراقب الإرشاد الدينى أن ينهض المرشد عقب الانتهاء من صلاة المغرب وقبل صلاة السنة. . ليبدأ الحديث قبل أن يتفلت الناس!!

أى أننا يجب أن نترك السنة. . لندخل فى المندوب أو المباح؟!

لكننى ـ وربما كنت الوحيد حينئذ الملتزم بهذا ـ كنت أتعمد دائماً وبحضور المراقب شخصياً أن أصلى السنة. . متعمدا. . وأتعمد أيضاً إطالتها!!

لماذا؟. . .ليخرج أصحاب الحاجات. . وأصحاب الأعذار. . ولا يبقى لى إلا الراغبون!!

فالمفروض أن بال المستمع خال بعد صلاة المغرب. .

خال من مشاغل العيش. . وفى وقته متسع للاستماع. . فإذا آثر الخروج مع هذا ولم يكن صاحب حاجة أو علة. . فمعنى ذلك أن مزاجه غير مستعد للتلقى. . وإذن. . فأنا فى غنى عن اعتقاله بالقوة ليمثل بين يدى!

(١) فى الستينات.

فليذهب.. وإلى فرصة أخرى يكون فيها حاضر المزاج.. ولأبق مع الباقين الراغبين فى الموعظة فعلا.. وذلك المسلك يحقق:

أولا: ممارسة الدعوة من مواطن العزة.. بعيداً عن الابتذال والتملق.

ثانياً: ضمان فاعلية الموعظة فى أرض متأهبة للإنبات بل وطالبة له بجلوسها بعد الصلاة..

ثالثاً: تبقى صورة المرشد فى أذهان الخارجين من المسجد مأنوسة.. من حيث قدر ظروفهم.. ولم يورطهم فى إحراج هم فى غنى عنه.. لا سيما أولئك الذين هم أصلا على شىء من الرغبة فى الاستماع إلى حديث الدين.. لكن ظروفهم لا تسعفهم أحيانا..

لقد اهتدى بعض الأذكياء من قراء كتاب الله تعالى إلى معرفة طبيعة النفس الإنسانية فلا يعطون المستمعين كل ما يشتهون.. أو فوق ما يشتهون بيد أنهم ينتهون من القراءة فى قمة استمتاع الجمهور بأصواتهم.. لتظل الصورة مهيبة.. مرغوبة.. تستثير الأشواق الكامنة!

وعلينا أن نتعلم منهم!...فلا نفرغ المواعظ إفراغاً فوق رؤوس يكبلها الحياء بين أيدينا!

ولا نطلق الحديث شلالا يجرى.. فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً..

بالإضافة إلى الزهد المؤكد فى مرشد يتجاهل طبيعة الإنسان التى تمل.. وتزهد حتى فى طعام تحبه لو توفر بين يديها... فلنكن أطباء.. قبل أن نكون خطباء!

(عن أبى وائل قال: كان عبد الله يذكر الناس فى كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم. وإنى أتخولكم بالموعظة كما كان النبى ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا)[1] رواه البخارى.

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى للحافظ العسقلانى ـ كتاب العلم ـ باب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة كيلا ينفروا جـ١ . صـ١٧٣ . ط. مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩م.

ومن هدى الرسول ﷺ هنا ما رواه البخارى عن عكرمة عن ابن عباس عن الشعبى رضى الله عنه قال: قالت عائشة رضى الله عنها لابن أبى السائب قاص أهل المدينة ثلاثاً لتبايعنى عليهن أو لأناجزنك، فقال ما هن؟ بل أنا أبايعك يا أم المؤمنين. قالت. اجتنب السجع من الدعاء فإن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا لا يفعلون ذلك، وقال إسماعيل مرة فقالت إنى عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه وهم لا يفعلون ذاك، وقص على الناس فى كل جمعة، فإن أبيت فثنتين، فإن أبيت فثلاثا، فلا تمل الناس هذا الكتاب ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى حديث من حديثهم فتقطع عليهم حديثهم ولكن اتركهم. فإذا جرءوك عليه وأمروك به فحدثهم[1].

وتأملنا لهذا التوجيه الكريم يقف بنا على ما يأتى:

كانت تذكرة ابن مسعود كل خميس التزاما بأمره ﷺ.. ومع وجود الرغبة الملحة من قبل المستمعين ليستمر تذكيره.. إلا أنه رضى الله عنه لم يجب الرجل إلى طلبه استناداً إلى أمره عليه الصلاة والسلام.. هذا الأمر المعلل بكراهة السآمة والملال.. لو تكرر اللقاء..

ومهما بلغ إلحاح الناس فإن لقاءات الواعظ لا تتخطى الثلاث بحال.. كل أسبوع.. لنفس الجمهور!

ويجىء ذلك التوجيه السديد استجابة للنفس التى تمل ويعتورها السأم إذا أصبحت الحياة موعظة تفرض نفسها فرضاً!

إن مشاغل الحياة كثيرة. ومزاج الإنسان لا يواتيه كل حين ليتقبل الموعظة وإن كانت حسنة.. وقد تفرض عليهم الظروف أن يخوضوا فى حديث حول قضية جديدة.. وحينئذ فكل مشاعرهم تدور حولها.. باحثة عن حل لها.. ومن ثم.. فتجاهل هذه المشاعر.. وتجاوز هذه القضية ثم فرض الموعظة. يشكل:

أولا: تجاهلا لمشاعر الناس..

ثانياً: لا تجد الموعظة من وسائل الإقناع ما يبلغ بها قرار قلوب مشغولة بما هو

---

(١) حديث صحيح ـ الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد ـ كتاب الأذكار والدعوات ـ باب كراهية النهى عن قول الداعى: اللهم اغفر لى إن شئت جـ١٤. صـ٢٧٥، ٢٧٦. ط. الأولى سنة ١٣٥٨م.

أهم منها..

كل ذلك يقف بالخطيب موقف الابتذال.. الذى ينعكس على شخصيته.. فتهتز فى تقديرهم.. ولا يكون له الأثر المرجو.. والنتيجة:

يصبح الواعظ شخصية غير مرغوب فيها.. وتخرج الدعوة فى شخصه منهزمة فى معركة لم تتوفر لها عدة الهجوم..

ولا ينبغى أن تبدأ الحديث إلا إذا صارت رغبة القوم فى حديثك أمرا صريحاً.. ولا يكفى الاستنتاج هنا.. فربما كانت الرغبة فردية.. لا تجيش بها صدور الجميع.. وسوف توقع الباقى - ممن لم تتوفر لهم رغبة لسماعك - فى الحرج:

فإما أن يتركوا المجلس تحت ضغط ظروف لم تقدرها.. وإما أن يتابعوك على مضض.. وأحلى الأمرين.. مر!!

وأمر منه أن موعظتك لن تبلغ هدفها حتى مع الذين رغبوا إليك.. لأن جو الضيق البادى على وجوه القوم.. من شأنه أن يخفف من حدة الحماس اللازم والذى يشكل جسراً تعبره الموعظة إلى قلوب المستمعين.

فإذا أمروك أيضاً فلا تحدثهم إلا بعد التأكد من أن ذلك الأمر انعكاس لرغبة حقيقية تجعل من حديثك شيئاً مأنوساً.. وعندئذ تقف بموعظتك موقف العزة.. وتتفتح لك القلوب.. القلوب التى تتعلق بك.. وتبحث عنك فى كل مكان.. سائرة إليك حيثما كنت.. لأنك تقدم إليها الغذاء المناسب لها.. فى الوقت الذى تطلبه. وبالقدر الذى يسمح لها بالإفادة منه..

وقد تكون للداعية مهمة أخرى عند انشغال القوم بحديث غير ما يريد.. مهمة لا تقل خطراً عن أختها..

فمن المناسب - وبطريق غير مباشر - أن تشارك القوم حديثهم فربما كانت لك وجهة نظر إسلامية تعالج بها فكرة معينة.. حتى ولو كان الحديث هامشياً.. وربما كان حديثك حينئذ مفيداً من حيث لا يحس الآخرون بروح الجدية التى تبعث على الملال أحياناً..

فإذا لم تسعفك الظروف بإبداء رأى الإسلام فيما سمعت من القوم.. فيمكن أن يؤجل ذلك ليكون موضوع خطبة مقبلة.. تضع فيها النقاط على الحروف بأسلوب يحتفظ بالأسماء فلا يبوح بها... ليصبح العلاج عاما يحقق الفائدة بلا حرج.

العلاقة بين المتكلم والسامع:

إذن.. فللمحدث على جليسه ـ كما قال أبو عياد:

أن يجمع له باله...ويصغى إلى حديثه...ويكتم عليه سره... ويبسط له عذره.

وينبغى للمحدث إذا رأى فى عين السامع فتورا أو إعراضا أن يستفهمه عن معنى حديثه:

فإن وجده قد أخلص له الحديث... أتم له الحديث.

وإن كان لاهيا عنه. حرمه حسن الإقبال عليه...ونفع المؤانسة له...وعرفه بسوء الاستماع. والتقصير فى حق المتحدث.

إن نشاط المستمع ينعكس على المتحدث بركة وانطلاقاً..

وقد قيل: نشاط المحدث. على قدر فهم المستمع.

قال أبو الفتح البستى:

إذا أحسست فى لفظى فتورا ... وحفظى والبلاغة والبيان

فلا ترتب بفهمى إن رقصى ... على مقدار إيقاع الزمان

الإلقــاء:

إن حسن الأداء. وروعة الإلقاء موهبة تجسد الأفكار. وتبرز المعانى.. لتأخذ وضعها المستقر فى الوجدان.. فى الوقت الذى يضيع الأداء الردىء فرصة التجاوب المطلوب.

[ذكر أبو هلال العسكرى فى الصناعتين:

قال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام. ولا عرف حدوده. إلا عمرو بن العاص:

كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام. وأعطى حق المقام. وغاص فى استخراج المعنى بألطف مخرج. حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً يحول بينه وبين تبيعته من الألفاظ.

قال معاوية لعمرو بن سعيد: يا أشدق[1]: قم عند قروم العرب. فسل لسانك. وجل فى ميادين البلاغة. وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال. فإنى شهدت رسول الله ﷺ أملى على على بن أبى طالب رضى الله عنه كتابا.. وكان يتفقد مقاطع الكلام. ولما أقام أبو جعفر صالحا خطيبا بحضرة شبيب. قال يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم أبين بيانا. ولا أربط جنانا.. ولا أفصح لسانا.. ولا أبل ريقا.. ولا أحسن طريقاً.. إلا أن الجواد عسير.. لم يرض.. فحملته القوة على تعسف الآكام وخطبها. وترك الطريق اللا حب. وأيم الله لو عرف فى خطبته مقاطع الكلام.. لكان أفصح من نطق بلسان][2].

فانظر كيف بلغ الحديث القمة فى باب البيان.. إلا أن الإلقاء الغشوم المتسرع.. أضاع فرصة الانتفاع.. ونثر حبات العقد نثرا.. أضاع رصيدا من المعانى والأساليب.. كان يمكن ـ بالإلقاء الجيد ـ أن تبلغ حد الكمال.

من توجيهات ـ بشر بن المعتمر:

يروى الجاحظ فى البيان والتبيين:

مر بشر بن المعتمر على إبراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة... فوقف بشر. فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد. أو ليكون رجلا من النظارة.

فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا. وأطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم بصحيفة من تنميقه وكان فيها: خذ من نفسك ساعة نشاطك. وفراغ بالك.

(١) الشدق بالكسر والفتح. ورجل أشدق واسع الشدقين.

(٢) الخطابة: ١٣٤.

وإجابتك إياك. فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا. وأشرف حسبا. وأحسن فى الأسماع. وأحلى فى الصدور. وأسلم من فاحش الخطأ.. وأجلب لكل عين وغرة: من لفظ شريف. ومعنى بديع.

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول.. بالكد والمطاولة والمجاهدة. وبالتكلف والمعاودة.

ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون كلامك مقبولا قصدا. وخفيفاً على اللسان سهلا. وكما خرج من ينبوعه. ونجم من معدنه. وإياك والتوعر: قال فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد. والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك...ويشين ألفاظك.

ومن أراد معنى كريما.. فليلتمس له لفظاً كريما.. فإن حق المعنى الشريف. اللفظ الشريف. ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما. أو يهجنهما. وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما. وترتهن نفسك بملابستهما. وقضاء حقهما.

وكن فى ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث:

أن يكون لفظك رشيقاً عذبا. وفخما سهلا. ويكون معناك ظاهرا مكشوفا. وقريبا معروفا... أما عند الخاصة. إن كنت للخاصة قصدت. واما عند العامة إن كنت عند العامة أردت.

والمعنى لا يشرف بأن يكون من معانى الخاصة. وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معانى العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب. وإحراز المنفعة.. مع موافقة الحال. وما يجب لكل مقام من المقال...وكذلك اللفظ العامى والخاصى..فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك. وبلاغة قلمك. ولطف مداخلك. واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معانى الخاصة.. وتكسوهما الألفاظ المتوسطة التى لا تلطف على الدهماء. ولا تجفو على الأكفاء.. فأنت البليغ التام. فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك. ولا تعتريك. ولا تسمح لك عند أول نظرك. وفى أول تكلفك. وتجد اللفظة لم تقع موقعها. ولم تصل إلى قرارها.. وإلى حقها من

أماكنها المقسومة لها.. والقافية لم تحل فى مركزها. وفى نصابها. ولم تتصل بشكلها. وكانت قلقة فى مكانها. نافرة فى موضعها.. فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن. والنزول فى غير أوطانها..

فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون. ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور. لم يعبك بترك ذلك أحد. وإن أنت تكلفتهما. ولم تكن حاذقاً مطبوعاً. ولا محكما لسانك. بصيرا بما عليك أو بما لك.. عابك من أنت أقل عيبا منه. ورأى من هو دونك أنه فوقك. فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة. ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة. وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة. فلا تعجل ولا تضجر. ودعه بياض يومك. أو سواد ليلك.

وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك. فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاه. إن كانت هناك طبيعة. وأجريت على الصناعة على عرق.

فإن تمنع عليك بعد ذلك. من غير حادث شغل عرض. ومن غير طول إهمال.

فالمنزلة الثالثة: أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهر الصناعات إليك. وأخفها عليك. فإنك لم تشته ولم تنزع إليه.. إلا وبينكما نسب. والشىء لا يحن إلا إلى ما يشاكله.

وإن كانت المشاكل. قد تكون فى طبقات. لأن النفوس لا تجود بمكنونها. إلا مع الرغبة. ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة. كما تجود به المحبة والشهوة. فهكذا هذا[1].

*****

جمال الأسلوب

(لا يكفى أن يعرف المرء ما ينبغى أن يقال.. بل يجب أن يقوله.. كما ينبغى)[2].

---

(١) الخطابة: ١٣٥، ١٣٦.

(٢) الخطابة د. درويش: ٤٣.

وإذا كان الخطيب يتخذ سبيله إلى قلب المستمع وعقله فلابد أن تصح وجهته ليحدث الأثر المرجو: وذلك باللفظ الجميل.. والأسلوب الرائق.. والصوت المعبر.. والإلقاء الذى يعين على إبراز المعانى..

وإذا كان يتعامل مع عين المستمع بالإشارة والوقفة.. والملامح.. فإنه يتعامل مع الأذن بالأسلوب الجميل.

وقد وعت أجهزة الأعلام هذا الدرس جيداً.. حين قدرت فى المستمع غرائزه الراغبة فى الجمال والتأثر به.. فامتلكت زمامه. ومن واجب الدعاة إلى الله أن يعوا الدرس أيضاً:

(وإذا كان فى الأعلام المعاصر ما يبث الباطل ويزينه. ويخدع الناس به. كما يزين الشيطان لأوليائه أعمالهم ويجملها.. فلماذا لا نثبت الحق.. ونجمله.. ونرغب الناس فيه؟.

ومن الأعلام المعاصر ما يجعل من غرائز الإنسان وحاجاته ومشاغله وطموحاته مدخلا إلى قلبه.. كى يفتحه على ما يريد تبليغه.. فى الميادين السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية حتى يضمن التأثير والتفاعل والاستجابة.

ولم لا يكون أعلامنا على هذا النحو فيشارك الناس مشاغلهم واهتماماتهم ويتعاطف مع مشكلاتهم. وينطلق من واقع حياتهم.. ويخاطبهم من خلال غرائز الأبوة والأمومة... وتأكيد الذات.. والمحافظة على الصحة.

إنه إذا صح اختيار المدخل والوسيلة صح الاتصال الأعلامى المؤثر والمثمر)[1].

وقد بلغ التزيين مداه فيما نسمع من أغان اصطلح على ترسيخ معانيها فى النفوس: مؤلف ذكى.. إلى جانب ملحن خبير بمواقع الكلمات.. بالإضافة إلى الجو الموسيقى المؤثر.. الواصل بهذه الأغانى إلى أعماق النفوس.. مما يضاعف مسئولية الدعاة ليقدموا غذاءهم للناس عذباً مقبولا.

(إن صناعة البيان أشرف صناعة تحلى بها جيد النوع الإنسانى لاستمدادها من

(١) من بحث للدكتور التهامى فقرة.

العقل وحركات النفوس. ودلائل الوجود...فالعقل الذى امتاز به الإنسان. وإن كان له دخل فى كل شىء. إلا أن صلته بالبيان أقوى الصلات...فقد تحيا الصناعة البارعة فى متوسط العقول...أما البيان الجيد. فلا يحيا إلا فى رقى العقول.

فأبوابه واسعة. وفروعه متشعبة. يستمد من الغيب أكثر مما يستمد من الشهادة.

وإن كان حملة الدين الإسلامى فى هذا الزمان ـ ولا سيما كبارهم ـ يستنكرون فضلها. ويرمون صاحبها بالجهل. ويسمونها شقشقة اللسان...ولا يستحون إذا نطقوا بهذا الخزى ورمى صناعة نبيهم. وفيها سر كتابهم. وفخار أئمتهم الذين دونوا فنونهم. وعليها وحدها حياة دينهم الذى غص فى هذا الزمان بهم...حتى أصبح الدين الإسلامى من وراء غيهم وفسادهم فى نظر الأعداء أضيق وأشر الأديان.

أى عقل بصير لا يعشق جمال البيان. ولا يمتطى جواده. وبه كمال الإنسان؟ تستدل به العقول على الله...ويرفع الحجب عن وجه الحق...ويكشف الحقيقة إذا أحاطت بها عوامل الباطل...وبه تنتشر الحكمة. ويقام العدل...وبالبيان يبلغ المتكلم من مخاطبه ما أراد.

وهل هناك سعادة للإنسان وراء تلك السعادة؟ ألا إن من جهل شيئاً عاداه. ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين)[1].

و (من الثابت أن الزينة من الجمال. وأن كثيراً من المقاصد والمطالب إذا قدمت إلينا مغلفة بزيناتها. كنا أكثر قبولا لها. وانسجاماً معها... لأن جمال الزينة قد جذبنا إليها. وأقنع عواطفنا وانفعالاتنا بقبولها. لنحظى بلذة الاستمتاع بالجمال. فتتحقق من وراء ذلك المقاصد الأساسية...وهذه الحقيقة تشمل الأفكار...فإذا قدمت بعض الأفكار المقصودة. وما اشتملت عليه من مطالب اعتقاد أو عمل... ممتزجة أو مقرونة بزينات جميلة فكرية أو لفظية كانت النفوس أكثر انجذاباً إليها. وقبولا لها. ثم تمسكاً بها. أو عملا بما طلب فيها.

---
(١)الدعوة والدعاة: ١٤٠ ، ١٤١.

إن شأن الأفكار كشأن المآكل والمشارب والأدوية. وسائر المطالب والحاجات: فمنها ما هو حلو بطبعه. ومنها ما هو حامض. ومنها ما هو مر. ومنها ما هو لين ومنها ما هو قاس. ومنها ما هو ناعم. ومنها ما هو خشن.. وكما أن الحسيات الجسدية يحتاج كثير منها إلى ما يجمله ويحسنه ويزينه للنفوس حتى تستسيغه.. كذلك الأفكار التى نريد تقديمها إلى الآخرين.

قد يحتاج كثير منها إلى ما يجمله ويحسنه. ويجمله للنفوس حتى تستسيغه.

وهذا التجميل والتزيين والتحسين هو من عناصر الأدب الرفيع لا محالة)[1].

يقول بعض العلماء:

(الألفاظ تقع فى السمع..فكلما اختلفت كانت أحلى..والمعانى تقع فى النفس. فكلما اتحدت كانت أحلى.

فالألفاظ يستميلها السمع. والسمع حس...ومن شأن الحس التبدد فى نفسه..والتبديد بنفسه...والمعانى تستفيدها النفس..ومن شأن التوحد بها..والتوحيد لها.

ولهذا تبقى الصورة عند النفس قنية وملكه. وتبطل عند الحس بطلاناً. وتمحى إمحاء...والحس تابع للطبيعة. والنفس متقبلة للعقل)[2].

[مقياس الجمال]

يعود جمال الأسلوب إلى عنصرين:

إعمال الروية. وإحكام النسج..حتى لا تبدو الصنعة. ولا يبدو التكلف.

يقول بشار بن برد: حينما سئل عن السر فى إحسانه فقال:

«لأنى لم أقبل كل ما تورده على قريحتى، ويناجينى به طبعى، ويبعثه فكرى، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبهات، فسرت إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سيرها، وانتقيت حرها، وكشفت عن

---

(١) عبد الرحمن الميدانى ـ مبادئ فى الأدب والدعوة: ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) أبو حيان التوحيدى ـ المقابسات.

حقائقها، واحترزت من متكلفها. والله ما ملك قيادى قط الإعجاب بشىء مما آتى به». انتهى كلام بشار.

ويقول الأديب الفرنسى فى كتابه «حديقة أبيقور»:

«إن كل ما لا يستمد قيمته من ذاته، وإنما يستمدها من جدة صياغته، ومن ذوق فنى خاص، يموت بسرعة ويندثر. وما «المودة» الفنية إلا كيفية «الموادات» لا دوام لها ولا بقاء. أرأيت تلك الأساليب المتكلفة التى لا تبغى من وراء تكلفها إلا الجدة؟ إن مثلها كمثل ما تخرجه محلات الخياطة الكبيرة من أثواب فيها الجدة؟ غير أنها تنتهى بانتهاء المواسم. والفن الرومانى، حينما تدهور، زين رءوس تماثيل الامبراطورات بمثل ما كانت تزين به رءوس السيدات إذ ذاك من زينة وقتية، فلا تلبث هذه التماثيل حتى تصير نابية عن الذوق مستهجنة ويضطر الفنان إلى التغيير والتبديل، فليس التمثال جمة مرمرية مستعارة. فإذا ما سرنا فى الأسلوب على ذلك النسق من الزينة الوقتية فلا مناص من التغيير فيه والتبديل كل عام. وإذا ما أجلنا الظرف فى عصرنا الحاضر، عصر السرعة فإننا نجد أن المدارس الأدبية لا تدوم إلا قليلا من السنين، بل إنها أحياناً، لا تلبث إلا شهورا. إنى لأعرف كتاباً لا يزالون فى مقتبل العمر ومع ذلك فانى أشعر بأن أسلوبهم قد أتى عليه الدهر. إن السر فى ذلك لا ريب، هو الأثر الذى أحدثه هذا التقدم العجيب الباهر فى الصناعات والآلات.

أجل... إنه هذا التقدم الذى يدفع بالجماعات فى سرعة تشهدها. لقد كنا نستطيع، فى عهد السكك الحديدية، أن نحيا طويلا على أسلوب مزخرف. أما وقد اخترع التليفون، فإن الأدب، وهو دائماً يتبع البيئة، قد أخذ فى تجديد أساليبه بسرعة تدعو إلى اليأس. لهذا فإننا نرى ما يراه الأستاذ «لودفيك هلفى» من أن الأسلوب البسيط هو وحده الذى يعبر السنين محتفظاً بقيمته» نعم إنه يعبر السنين ولا نزعم أنه يعبر القرون، فإن ذلك من المبالغة بمكان.

«على أن المشكلة إنما هى تحديد الأسلوب البسيط. ويجب أن نعترف أن ذلك ليس بالأمر اليسير. إن الطبيعة، كما نعرفها وكما هى فى البيئات الصالحة للحياة، لا تعرض علينا قط شيئاً بسيطاً. وليس للفن أن يتطلع إلى بساطة نأت عنها

الطبيعة. ومع ذلك فإننا جد متفاهمين حينما نقول عن أسلوب ما إنه بسيط، وعن أسلوب آخر أن البساطة لا تجد إليه من سبيل».

«وما دام الأمر كذلك فإنه لا يوجد فى الواقع من الأساليب ما يمكن أن يقال عنه: إنه حقيقة، بسيط، وإنما يوجد منها ما يبدو أنه بسيط، وهذا الأخير هو الذى كتب له الثبات بل الثبات الفنى».

«بقى علينا أن نبحث عن السر عن الظاهرة الموفقة: ظاهرة البساطة. إن الأساليب، لا شك، مدينة بها، لا إلى قلة العناصر المختلفة فإنها تزخر بها، بل إلى أن هذه العناصر تكون وحدة صهرت أجزاؤها صهراً بلغ من قوته أن صيرها نسقاً سوياً لا يميز الإنسان ما فيه من أجزاء. وما مثل الأسلوب البليغ إلا كمثل هذا الشعاع من النور الذى ينساب من نافذتى وأنا أكتب. إنه يدين بضوئه الصافى إلى الاتحاد الوثيق بين الأطياف السبع المكونة له. وما الأسلوب البسيط إلا كالنور الأبيض إنه معقد التركيب سوى أن شيئاً من ذلك لا يبدو عليه. ليس هنا إلا صورة خيالية أردت بها تقريب الموضوع، وإنى لجد عليم بقيمة مثل تلك الصور إذا لم تصنعها يد شاعر صناع. بيد أنى قصدت أن أبين أن البساطة الجميلة المنشودة فى الأساليب ليست إلا مظهراً يخفى ما تحته من حقيقة، وإنها تنتج فقط عن التنسيق الموفق والاقتصاد البالغ فى الأجزاء التى يتكون منها الموضوع».

ولقد كان «شيشرون» خطيب الرومان معلماً بارزاً من معالم الخطابة.. ومثالا حياً لما تقدم.

وكان الشعب الرومانى ـ كما قيل بحق ـ متعلقاً بشفتى «شيشرون» يقوده من دار القضاء إلى السوق. ومن السوق إلى دار القضاء. وكأنما كان يخرج من فيه سلاسل ذهبية. ترتمى على السامعين فتربطهم بها.

ولا بأس أن تسدل البلاغة على الحقيقة ستراً من الألفاظ البراقة.

إن جمال الأسلوب ليكسب قوة آسرة تخدر حاسة النقد عند المستمع المفتون به.. فينجذب إليه ولو بالاكراه!.

وليس ذلك عيباً فيه.

وفى هذا يقول بعضهم: هل نعيب الماء. لأنه يغرق؟...أو النار.. لأنها تحرق؟..وهل نذم الدواء لأن جوهره سام، مع أن فيه الشفاء؟!.

إن على الحق أن يتخذ من الجمال سلاحاً فى مواجهة الباطل الخداع. وللأسلوب الجميل الأخاذ قدرة على التأثير.. بما تحمله الكلمات من سحر. وما تكن من سلطان.

*****

سحر الكلمات

قال بعض البلغاء: إن الألفاظ من المعانى بمنزلة الثياب من الأبدان.. والقبيح يزول عنه بعض القبح..

كما أن الحسن ينتقص حسنه برثاثة ثيابه.. وعدم بهجة ملبوسه...والقبيح يزداد قبحا إلى قبحه.

وقد قال أبو هلال العسكرى فى الصناعتين: ليس الشأن فى ايراد المعانى. لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى...والقروى والبدوى.

وإنما هو: فى وجود اللفظ وصفاته. وحسنه وبهائه. ونزاهته ونقائه...وكثرة طلاوته ومائه...مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف..

من الألفاظ ما هو فخم كأنه يجر ذيول الأرجوان أنفة وتيها...ومنها ما هو ذو قعقعة كالجنود الزاحفة فى الصفيح...ومنها ما هو كالسيف ذى حدين.

ومنها ما هو كالنقاب الصفيق: يلقيه الشعر على بعض العواطف ليستر من حدتها...ويخفف من شدتها... ومنها ماله وميض البرق...ومنها ما له ابتسامة السماء فى ليالى الشتاء ومنها ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد.

ومنه ما يجرى كالنبع الصافى. وهو المعد للرضا والغفران ومنه ما يضىء كالشهب. وهو كلام التعظيم.

كذلك من الألفاظ ما ليس له طابع خاص. فيؤتى به لتقوية الجملة. ودعم المعنى. فهو يلائم كل حال.

إنها الأدوات المعدة لبناء الخطبة. وتتطلب مهندساً بارعاً. لا يقف فقط عند حد انتقاء الألفاظ.

قال الجاحظ: انظر إلى قوله تعالى: **﴿وقيل يا أرض ابلعى ماءك..﴾**.

وما اشتملت عليه هذه الآية من الحسن والطلاوة. والرونق الذى لا يقدر البشر على الإتيان بمثله. ولا يستطع أفصح الناس مضاهاته... على أن ألفاظها المفردة دائرة على الألسنة.. فقوة التركيب. وحسن السبك. هو الذى ظهر فيه الإعجاز.

من ذكريات الماضى:

كان ذلك فى حفل عام:

وقف المحاضر العائد من أوربا يتكلم.. وبدأ حديثه بتحفظ مفاده: أنه ليس خطيباً يثير الحماس.. ولكنه باحث علمى.. ينسق المقدمات ليصل بها إلى نتيجة ترضى العقل.. فى هدوء.. وبلا ضجيج!

وكان فى الحفل خطباء ينتظرون دورهم فى الحديث.. وكأنما يقدم الباحث اعتذاراً إذا لم يتجاوب معه الجمهور على نحو ما يحدث عندما يعتلى المنصة خطيب يفجر الموقف بعد سكون!.

وقلت: لا بأس أن يضع الباحث الحقائق.. ويصوغ النظريات.. لكن الحقائق بذور تحتاج إلى تربة.. والتربة فى حاجة إلى تقليب.. تحت أشعة الشمس.. وفى مسرى الهواء.. حتى تأخذ البذور سبيلها إلى النمو والإثمار.. وذلك دور الأسلوب الجميل.. على لسان خطيب يستثير أعمق ما فى النفس من مشاعر.. ويوقظ الإرادة الخامدة.. حتى تنتفض وتقوم بدورها فى نقل الحقائق العلمية.. من الكتاب.. إلى واقع الحياة!

ولولا هذه المشاعر الحية.. لبقيت النظريات أفكاراً خرساء جامدة.. إنها هى التى تجعل للحقائق قيمة.. فالباحث.. والخطيب كلاهما شريك فى صنع الموقف..

يقول الشيخ محمد الغزالى:

(والمعنى الرائع لا يكفى. فلابد من كساء حسن له. والقرآن معجزة أدبية. أخرست المتحدين على كر العصور. فكيف - بالله - يتعرض لخطابة الناس باسم الإسلام رجل ضعيف البصر بمعانى الكتاب الكريم. أو بصير ببعضها. ولكنه محروم من نعمة الأدب. وحلاوة الآداء؟)[1].

إن جمال الأسلوب لازم. كما أن كمال المعنى مطلوب أيضاً... فباجتماعهما يتم للكلام نصيبه من التأثير.. وإلا فالمعنى الجيد وحده.. والأسلوب المنمق بلا معنى.. لا يؤدى إلى تأثير يحمل على الاستجابة.. وإن الأمر كما قيل بحق:

[الأسلوب الغنى يتكون من الصورة والفكرة. كما يتكون الماء من الهيدروجين والأوكسجين... وكما استحال فى فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه.. فقد استحال فى فن الإنسان أن يتكون الأسلوب من إحدى جزئيه[2]].

إن الدين والأدب.. كلاهما لازم للداعية.. وألزم للخطيب الذى يتحدث أساساً إلى القلب الشاعر الحساس.. فى محاولة لبث الحياة فيه.. ليمنح الحقائق أشواقه..

سر التأثير:

ولو رحنا نبحث عن سر تأثير الخطباء لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن من أسرار التأثير العميق هو ذلك اللفظ المختار وفق طبيعة الإنسان.. الذى تصبح الألفاظ فى سمعه كائنات حية تثير فى كيانه مختلف الرؤى والصور.. فلا يملك الفكاك من آسارها:

و (يعتقد جوستاف لوبون أن شطرا كبيراً من تأثير قواد الجماعات... خطباء وكتابا.. يعود إلى الألفاظ التى يثيرون بها. صورا وآمالا فى نفوس الجماعات.. وإن كانت فى ذاتها معانيها مبهمة. غير محدودة ولا مضبوطة.

فهو يقول: لبعض الألفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل. ولا يؤثر فيه الدليل.. ألفاظ وجمل ينطق بها المتكلم خاشعاً أمام الجماعات. فلا تكاد تخرج

(١) مع الله: ٣٠٨.

(٢) النهضة الإسلامية - د. محمد البيومى.

من فيه. حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين. وتعنو الوجوه له احتراما.

وكثيرون يعتقدون أن فيها قوه إلـهية. ألفاظ وجمل تثير فى النفوس صورا لا كيف لها.. وإذا كانت هذه الألفاظ التى تثير صورا مبهمة. غير معروفة بالتعيين.. لها ذلك الأمر.. فكيف يكون الشأن للمعنى المحكم قد كسى باللفظ الجميل. وألقى فى أسلوب منسجم. وعبارات تثير فى النفس أخيلة وأمانى وأحلاما؟[1].

إن الأمر - والحلة هذه - يصبح لونا من السحر الذى يستميل القلوب..

عن ابن عمر رضى الله عنهما. قال: قال ﷺ: **«إن من البيان لسحرا»**[2] حديث صحيح.

أى أن بعض البيان سحر؛ لأن صاحبه يوضح الشىء المشكل. ويكشف عن حقيقته حسن بيانه. فيستميل القلوب. كما تستمال بالسحر.

وقال بعضهم: لما كان فى البيان من إبداع التركيب. وغرابة التأليف ما يجذب السامع ويخرجه إلى حد يكاد يشغله عن غيره شبه بالسحر الحقيقى. وقيل هو السحر الحلال.

ومن أسرار التعبير ما يحكيه ابن الأثير. حين لفت الأنظار إلى ما للألفاظ من قوة فى التأثير تصل أحياناً إلى أن تتصور كأشخاص.. ترى وتحس.. وكيف تصبح نافذة إلى أعماق الإنسان:

قال ابن الأثير:

[اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر.. والألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار. والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق. ولطافة مزاج.

ولذا ترى ألفاظ أبى تمام: كأنها رجال قد ركبوا خيولهم. واستلأموا سلاحهم. وتأهبوا للطراد.

---

(١) الخطابة: ١٢١.

(٢) فيض القدير. شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٢صـ٥٢٤. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

وترى ألفاظ البحترى: كأنها نساء حسان. عليهن غلائل مصبغات. وقد تحلين بأصناف الحلى.

ثم يشن ابن الأثير حملة شعواء على هؤلاء الذين لا يعون هذه الأهمية التفاتا فيسوون بين الجيد والرديء من القول.. جاهلين ما للألفاظ من جواهر نفيسة..

وقد يخلطون الصالح بالطالح استهانة بتأثير الكلمة المختارة المنتقاه.. فيغرقون المستمع فى طوفان من القول.. لا يبلغ من قلوبهم مكان الإقناع والإذعان. وبذلك يبتعدون بهم فلا يقطفون الثمار التى كانت دانية على رؤوسهم لو أنهم أحسنوا الاختيار.

يقول ابن الأثير: فى المثل السائر:

ومن بلغ فى جهله إلى أن لا يفرق بين لفظ الغصن ولفظ العسلوج ـ ومعناهما واحد ـ وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل.. فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب. ولا يجاب بجواب.. بل يترك وشأنه..

وما مثاله فى هذا المقام إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد. شوهاء الخلق.. ذات عين محمرة. وشفة غليظة كأنها كلوة.. وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل. وطرف كحيل. ومبسم كأنما نظم من اقاح....

ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام:

فإن هذه حاسة. وهذه حاسة. ومن له أدنى تأمل يعلم أن للألفاظ فى الأذن نغمة لذيذة. كنغمة أوتار.. وصوتا منكراً كصوت حمار.. وأن لها فى الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل. ومرارة كمرارة الحنظل. وهى على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم.

إن العناية بجمال اللفظ إنما هى أساساً من أجل المعانى.. من حيث كانت الألفاظ مدخلا إلى النفس.. تهيئاً لتقبل الفكرة.. ثم إيجاد الوضع النفسى الباعث على العمل..

يقول الكتور عثمان أمين[1]:

من ذا الذى يستطيع أن ينكر ما لاعجاز القرآن بلفظه ومعانيه من قوة على استنهاض العزائم. والسعى إلى بلوغ المطالب؟

قال ابن جنى فى كتابه «الخصائص» فى باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى:

«فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها. وحموا حواشيها وهذبوها. وصقلوا غروبتها وأرهفوها.. فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ. بل هى عندنا خدمة منهم للمعانى. وتنويه وتشريف»

ثم قال: فكأنما العرب إنما تحلىّ ألفاظها وتدبجها وتوشيها وتزخرفها عناية بالمعانى التى وراءها. وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها».

عن ابن عباس رضى الله عنهما. قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان سحرا، وإن من الشعر حكما**»[2] رواه أحمد وأبو داود.

فإذا كان رسول الله ﷺ يعتقد فى ألفاظ هؤلاء القوم التى جعلت مصائد وأشراكاً للقلوب. وسببا وسلماً إلى تحصيل المطلوب. عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعانى. والمخدوم أشرف من الخادم والأخبار فى التلطف بعذوبة الألفاظ إلى قضاء الحوائج أكثر من أن يؤتى عليها..

ويكفى اللغة العربية شرفاً أنها الطريق إلى فهم أسرار القرآن الكريم.. وإذن فمدارستها.. والتعمق فيها. واختيار أوفق الأساليب وأليقها بطبيعة الإنسان. جمالا.. وإشراقًا.. يأخذ أهمية هذه الغاية:

قال أبو منصور الثعالبى فى كتابه «فقه اللغة العربية»[3].

(من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً ﷺ. ومن أحب الرسول العربى.. أحب العرب...ومن أحب العرب.. أحب العربية.. ومن أحب

---

(١) من محاضرة له عن فلسفة اللغة العربية.

(٢) قال المناوى الجملة الثانية فى البخارى، «**إن من الشعر لحكمة**».

(٣) المقدمة.

العربية عنى بها وثابر عليها. . وصرف همته إليها.

ومن هداه الله للإسلام. وشرح صدره للإيمان. . وآتاه حسن سريرة فيه. اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل. والعرب خير الأمم. والعربية خير اللغات والألسنة. والإقبال على تفهمها من الديانة.

إذ هى أداة العلم. ومفتاح التفقه فى الدين. وسبب إصلاح المعاش والمعاد. ولو لم يكن فى الإحاطة بخصائصها. والوقوف على مجاريها ومصارفها. . والتبحر فى جلائلها ودقائقها إلا قوة اليقين فى معرفة إعجاز القرآن. وزيادة البصيرة فى إثبات النبوة. . التى هى عمدة الإيمان. . لكفى بها فضلا يحسن فيهما أثره. ويطيب فى الدارين ثمره.

*****

أنواع الخطابة

قسم اليونان الخطابة بحسب الزمن. فكانت ثلاثة أقسام:

١ ـ ما يختص بالماضى. وهى: الخطب القضائية. وغايتها الدفاع عن النفس. أو عن متهم.

٢ ـ ما يتعلق بالحاضر وهى: خطب المدح. أو الذم. وخطب التعزية وغيرها مما يتصل بالواقع الماثل.

٣ ـ ما يتصل بالاستعداد للمستقبل وهى: التى تحمل السامع على الحرب. أو السلم. أو استحالة الجمهور لمبدأ من المبادئ.

ومع تقدم الحياة تشعبت هذه الأقسام الثلاثة إلى فنون أكثر تفصيلا وهى: الخطابة السياسية. والقضائية والعسكرية. والدينية.

ولا تعنينا التفصيلات بقدر ما يعنينا إبراز ما يتسم به كل فن من سمات تشخصه وتحدد معالمه البارزة.

الخطابة السياسية:

الخطابة السياسية مظهر من مظاهر حرية الأمة واستقلالها. . فكلما كانت أوفر

حرية وأعمق استقلالا . . كلما انطلق لسانها يعبر عن مكنون الضمائر والمشاعر . . وكان الخطيب حادى الأمة عن طريق الإصلاح: يقوم معوجها. ويصلح ما فسد من أمورها. وتلك مهمة الأدب: تحريك الأمة للعمل . . على حداء الأمل.

أما الأمة المستعبدة . . فإن لسانها المكبل بالقيود لا يتحرك - إن تحرك - إلا فى نطاق ما رسم له المستبد المتسلط . . ومن ثم لا يكون هناك نقد ولا نقاد . . وتسير الأمة من سيئ إلى أسوأ.

ومن خصائص الخطيب السياسى:

(أ) أن يكون بصيراً بأسرار الناس. خبيراً بميولهم . . ولا تكفى البلاغة للسيطرة عليه.

(ب) الإلمام بأسرار الدولة واتجاهاتها الداخلية والخارجية.

(جـ) حدة الخاطر. وسرعة البديهة.

وإنها لمهمة صعبة أن تحرك أمة إلى ما تريد لها . . ومن ثم فلابد لكى تكون خطيباً سياسياً من توفر هذه الضمانات. إلى جانب احترازه من الغضب لأنه آفة العقل . . والتنزه عن الكلمات الجارحة ليحتفظ بولاء جمهوره.

الخطابة القضائية:

الفصل فى الخصومات على وجه الحق أمر عسير. وحل معضلات القضايا. ومعرفة الحق من الباطل. وتحرى العدالة الحقيقية أمور فوق قدرة البشر[1] .

عن أم سلمة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**»[2] رواه البخارى.

وإذا كانت قصارى الخطيب السياسى نقل المستمع من رأى إلى رأى . . فإن

---

(١) الخطاب الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) فتح البارى بشرح البخارى، للحافظ ابن حجر العسقلانى كتاب الاحكام. باب من حكم فى المسجد. جـ١٦. صـ٢٧٨. ط. البابى الحلبى. سنة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩م.

الخطيب القضائى يبدو أخطر بما يملك من سحر البيان القادر على إلباس الباطل ثوب الحق.. وإضاعة حقوق الناس.. وما يترتب على ذلك من تباغض وشحناء تذهب بريح الأمة. فتطمع فيها أعداءها. مما يفرض على الخطيب القضائى أن يكون صاحى الضمير مستشعراً خطر النتائج المترتبة على خطبته.

قال بعض القضاة: (لا تقولوا: إن الحقيقة تدافع عن نفسها... فإن ذلك يكون صدقاً لو خلت النفوس مما يشينها.

ولكن الناس بحكم الطبع والعادة ليسوا أصفياء. أتقياء الروح. لذلك كان حتماً علينا أن نفعل كما يفعل الذين يدخلون الحديد النار ليلين. فتصهر أفئدة المصغين لنا فى حرارة البلاغة حتى تقبل الحقائق التى نبديها لهم).

وذلك ما حذر منه ﷺ كاشفاً عن سوء مغبة من اتخذ الخطابة ركوباً إلى تحقيق مآربه.

[الخطابة العسكرية]

غاية الخطابة العسكرية: تهوين الموت.. بالتحريض على خوض الغمرات.

وهى تعتمد على: إثارة الحماسة وتهوين أمر الدنيا إذا خلت من المبادئ.

ولا يتم الخطيب العسكرى كمالا.. إلا إذا كان على خط النار مع الذين يخطب فيهم.

ويلاحظ فى الخطب العسكرية تفردها بالإيجاز.. البعيد عن التجميل والتزويق كالخطب الأخرى.. لأن وقت المعارك لا يسمح بهذا التزويق.

الخطابة الدينية:

وهى أوفى الأنواع بمطالب الناس.. والخطيب الدينى فى قومه رائد لا يكذب أهله.. وهو معهم فى صباحهم ومسائهم.. فى السراء والضراء.. فى المنشط والمكره.. لا يفترق عنهم بحال.. ولابد أن يكون خبيراً بالنفوس.. بصيراً بسنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى ـ كما أسلفنا.

إلى جانب أسلوب مؤثر: يعزى به الحزين...ويقوى الجبان. ويؤمل اليائس..

وسوف نقدم فيما يلى نماذج لهذه الأنواع..

الباب الرابع

(١) التمهيد

إذا كان الساحر يستميل قلوب الناظرين بسحره.. فإن الفصيح الذَّرِب اللسان يستميل قلوب السامعين. ببيانه.. [فالأنفس تكون إليه تائقة[1]. والأعين إليه رامقة

ولذا كانت فصاحة اللسان أجمل ما يزين الإنسان وقد قيل فى ذلك: ما رأيت لباسا على رجل أحسن من فصاحة...وإن الرجل ليتكلم فيُعرِب.. فكأن عليه الخز الأدكن... وإن الرجل ليتكلم فيلحن فكأن عليه أسمالا ـ أى ثيابا بالية.

وقد نوّه الشعر العربى بما يملك الإنسان من خلق وأدب هو أثقل فى ميزانه من رياش الدنيا:

أيها الطالب فخرا بالنسب ... إنما الناس لأم ولأبْ

هل تراهم خلقوا من فضة ... أو حديد أو نحاس أو ذهب

أو ترى فضلهم فى خلقهم ... هل سوى لحم وعظم وعصب

إنما الفضل بحلم راجح ... وبأخلاق كرام وأدب

ذاك من فاخر فى الناس به ... فاق من فاخر منهم وغلب

وسيلة البيان

لكن صناعة البيان. وسليقة الفصاحة.. لا تهبط على الإنسان من المحل الأرفع.. وإنما لها من الوسائل ما يعين الطالب على التمكن من ناصيتها.. ومنها: تعلم النحو.

أهمية النحو

قال العلماء: [مثل الذى يطلب الحديث ولا يعرف النحو.. مثل الدابة: عليها المخلاة ليس فيها شىء].

(١) من التوقان وهو الاشتياق.

وإذن فالنحو سبيل إلى فقه الحديث الشريف. . .والوسيلة دائما تأخذ شرف الغاية. .

ولك أن تتصور ما يمكن أن يحدث من خلل. . إذا غابت ملكة العربية فى نفس طالب العلم: وذلك ما يشير إليه قول الأصمعى: [إن أخوف ما أخاف على طالب العلم. . إذا لم يعرف النحو أن يدخل فيما قال ﷺ: «**من كذب على معتمدا فليتبوأ مقعده من النار**». . لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لحانا. ولم يلحن فى حديثه. .فمهما رويت عنه. ولحنت فيه كذبت عليه].

ولقد حكى فقال: سمعت عمى يقول: تعلموا النحو. .فإن بنى إسرائيل كفروا بكلمة واحدة: كانت مشدّدة فخففوها:

قال الله «يا عيسى إنى ولَّدتك. . فقرأوا يا عيسى إلى وَلَدْتك. . مخففة. . فكفروا].

وإذ يهبط اللّحان هكذا إلى الدرك الأسفل من النار. . فإن العارف فى بالنحو. . ليعلو. . صاعدا فى السماء. .

وقد قالوا فى ذلك: [إن أحببت أن يصغر فى عينك الكبير. . ويكبر فى عينك الصغير. . فتعلم النحو:

والنحو يصلح من لسان الأمكن	والمـــرء تكرمـــه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجـــلها	فأجـلها منها: مُقيم الألسن!

جهود الأمة:

ولقد اهتم علماؤنا بما يصون لغة القرآن عن التحريف. . ضمانا لحسن التعامل مع آى القرآن الكريم. . . وبدت مظاهر هذا الاهتمام بما كان بين «زياد» والى البصرة. وأبى الأسود الدؤلى:

فقد أهاب زياد بأبى الأسود أن يصنع علامات الشكل لصحة القراءة. . . ولكن أبا الأسود أبطأ فى إنجاز ما طلب منه. . .لكن «زيادا» لم يستسلم وظل متشبثا بالفكرة وفاء منه للغته. . لغة القرآن. . . وذلك أنه أوعز إلى رجل. . أن

يجلس فى طريق أبي الأسود. . وأسمع أبا الاسوء هذه الآية : ﴿أن الله برىء من المشركين ورسوله﴾.

ولكن الرجل قرأه بكسر اللام فى «رسوله».

ففزع أبو ذر وقال: «عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله».

ثم رجع من فوره إلى زياد. . ونفّذ الفكرة. فأنقذ الأمة.

وساعد بإنجازه على صيانة اللغة لتبقى خالصة دائما. . ونما الإحساس بأهميتها إلى الحد الذى كانت العرب تعتبر من يلحن فى اللغة. . كأنما يطعن فى كرامته.

صعوبة المهمة :

وعلى أهمية اللغة. . فإن استيعاب قواعدها من الصعوبة بمكان.

ومهما خاض الإنسان فى بحرها وسبح. . فلن يصل إلى الشاطئ البعيد. .

إن أمر اللغة كما قال بعضهم:

[إن طالبها كالقائم على ظهر الحوت. . لا يميل إلى جانب. إلا ميل به إلى جانب. . . ولا يدرى متى يغوص الحوت. . فيدعه فى اليم غريقا.

مات السيوطى وهو لا يعرف حد «نعم» و«بئس» و«أن» المفتوحة. . والحكاية.

وأن الخليل لم يكن يحسن النداء. . . وأن «سيبويه» لم يكن يدرى حد التعجب. .

وأن رجلا قال «لابن خالويه»: أريد أن تعلمنى من النحو والعربية ما أقيم به لسانى:

فقال له: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو. . ما تعلمت ما أقيم به لسانى].

وحتى ملك النحاة

وملك النجاة «الحسن بن صافى» أنفق عمره فى النحو. . . ولكن استشكل عليه عشر مسائل سماها: «المسائل العشر. . المتعبات إلى يوم الحشر». . . ثم وصى أن توضع معه فى قبره. . ليحلها فيه»؟!!

وقد أردنا بهذه النقول تحريض الهمم الراكدة.. لتشمر عن ساعد الجد فى رحلة طويلة.. مضنية.. ولكن عائدها وفير.. حين تمكن الطالب من التعمق فى لغة القرآن.. ليحسن التكيف مع هذا القرآن.

ومما يعين على استيعاب اللغة.. دراسة النصوص التى يرقى بها الذوق.. ويصح النطق.. ويستقيم اللسان.

وذلك ما نحاوله فيما يلى:

أهمية دراسة النصوص :

عندما نتخير بعض الخطب أو النصوص فى محاولات لتحليلها وإلقاء الضوء عليها. فإنما نستهدف بذلك أمورا منها:

١ـ معايشة فترة عزيزة فى تاريخنا الإسلامى عن طريق ما تسفر عنه الخطبة من حقائق الإسلام.

٢ـ تقدم إلينا هذه النصوص ثروة من المعانى والقواعد تضاف إلى ما لدى الطالب من رصيد المعرفة.

٣ـ يحصل بها الباحث ثروة أخرى من الألفاظ والتراكيب تجعله أكثر قدرة على تصريف القول.

٤ـ تعين اللسان على النطق الصحيح.

من أدب الإسلام:

إن من أدب الإسلام فى مجال التربية.. ضرورة انتقال الداخلين الجدد فى الإسلام إلى دار الإسلام ليعيشوا فيها.. ويتفاعلوا معها.. ومن شأن هذه المعايشة تحقيق أمرين:

١ـ انتقال الخبرات الجديدة لتكون حركة مباركة بين صفوف المجتمع.. الإسلامى فقد يكون فيهم الصانع.. والزارع.. والقارئ.

٢ـ مزايلة البيئة السابقة بكل ما لها من تأثير وانطباعات تؤثر حتماً فى الإنسان.. لاسيما ذلك الذى عاش فيها وله فى ربوعها ذكريات.. ومشاهد تمثل

قطعة من تاريخه.. بل من حياته.. ليعيش من جديد بين رفقة الخير التى تعينه على أمر الله تعالى.. وتقوى بواعث الفضيلة فيه.. ويستقيم فى رحابها لسانه. ويصفو بيانه..

وهو نفسه المعنى الملحوظ فيما يتعلق بتنمية استعدادات البيان عند المؤهل له.. عن طريق مثل هذه النصوص التى نقدمها بين يديك.

فمعاشرة الأدباء والعلماء.. ومخالطة ذوى الخبرة والرأى السديد.. كل أولئك تارك آثاره ولا شك فى عقل الإنسان وقلبه.. بقدر ما تؤدى معاشرة الجهلاء إلى سوء التقدير ورداءة التعبير.. على نحو يطمس البصيرة.. ويكسر من طلاقة اللسان فلا يكاد يبين!

*****

نماذج من خطبه ﷺ

يقول ابن قتيبة[١]:

تتبعت خطب رسول الله ﷺ فوجدت أوائل أكثرها:

«عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: علمنا خطبة الحاجة «**الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يقرأ ثلاث آيات: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ ثم** تذكر حاجتك»[٢] رواه أحمد حديث صحيح.

ووجدت فى بعضها: «**أوصيكم عباد الله بتقوى الله. وأحثكم على طاعته**».

ووجدت كل خطبة مفتاحها: الحمد إلا خطبة العيد. فإن مفتاحها التكبير. وتكبير الإمام قبل أن ينزل أربع عشرة تكبيرة.

ونحن مدعوون إلى مأدبة رسول الله ﷺ. ثم إلى مأدبة صحابته الكرام.. فى بعض ما أثر عنهم من جوامع الكلم.. وما خلفوا من عظات هى قبس من النبوة.. واننا لواجدون بعون الله فيما تركوا دروساً هى مشاعل على طريق الراغبين فى الدعوة إلى الله.. وصولا إلى قلوب تجد فى هذه الدعوة شفاءها.. وهداها.

كان ﷺ خطيباً لا يبارى، يقصد إلى الحقيقة، فيضعها بين سمع الناس

---

(١) عيون الأخبار: ٢ ـ ٢٣١.

(٢) الفتح الربانى. بترتيب مسند الإمام احمد مع مختصر شرح بلوغ الأمانى للشيخ احمد عبد الرحمن البنا ـ كتاب النكاح ـ باب استحباب الخطبة للنكاح. جـ١٦. صـ١٦٥. ط: الأولى: سنة ١٣٧١هـ.

وبصرهم، لا يحاول أن يستبى القلوب بزخرف القول، يكره التفاصح والتنطع، بين العبارة، واضح المعنى، وله خطب طوال لا حشو فيها ولا تقصير، وقصارى القول أن كلامه هو الكلام الموجز الشامل.

عن أبى سعيد الخدرى قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس حفظها منا من حفظهما ونسيها منا من نسى، فحمد الله. قال عفان، وقال حماد وأكثر حفظى أنه قال بما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم قال: **«أما بعد فإن الدنيا خضرة حُلوة، إن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى منهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ألا إن الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم. ألا ترون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالأرض الأرض، ألا إن خير الرجال من كان بطىء الغضب سريع الرضا، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطىء الرضا، فإذا كان الرجل بطىء الغضب بطىء الفىء، وسريع الغضب وسريع الفىء فإنها بها، ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب، وشر التجار من كان سيئ القضاء سيئ الطلب، فإذا كان الرجل حسن القضاء سيئ الطلب. أو كان سيئ القضاء حسن الطلب فإنها بها. ألا إن لكلٍ غادر لواءا يوم القيامة بقدر غدرته. ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة، ألا لا يمنعنّ رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه. ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، فلما كان عند مغيربان الشمس قال ألا إن مثل ما بقى من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه»**[1] رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى.

ونصح الناس فى أمور شتى، وحذرهم ما يحقرون من أعمالهم، وما يستهينون به من الآثام.

---

(١) فى إسناده على بن زيد بن جدعان «قال فى الخلاصة» قال احمد وابو زرعة ليس بالقوى. وقال ابن خزيمة سيئ الحفظ. وقال شعبة: اختلط، وقال الترمذى: صدوق إلا أنه ربما رفع الشىء الذى يوقفه غيره.، الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام احمد مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى للشيخ/احمد عبد الرحمن البنا. أبواب خطبه ﷺ باب خطبة فى الأدب والمواعظ. والأخلاق والتحذير من الدنيا والنساء. جـ٢١. صـ٢٦٧، ٢٦٩. ط. الأولى سنة ١٣٧٧هـ.

قال ﷺ: «أيها الناس اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. السنة اثنا عشر شهرا. منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات:

ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أى شهر هذا؟ أليس ذا الحجة؟» قالوا: بلى.

عن أبى حرّة الرقاشى عن عمه قال كنت آخذا التشريق أذود عنه الناس: فقال: «يا أيها الناس أتدرون فى أى شهر أنتم وفى أى يوم أنتم وفى أى بلد أنتم» قالوا فى يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يوم تلقونه. ثم اسمعوا منى تعيشوا ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا إنه لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفسه منه، ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هذه إلى يوم القيامة وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل. ألا وإن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع وإن الله عز وجل قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» ثم قرأ ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكنه فى التحريش بينكم فاتقوا الله عز وجل فى النساء فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا وإن لهن عليكم ولكم عليهن حقا. أن لا يوطئن فرشكم أحدا غيركم. ولا يأذنَّ فى بيوتكم لأحد تكرهونه فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح». قال حميد قلت للحسن ما المبرح؟ قال المؤثر «ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وبسط يديه فقال ألا هل بلغت ألا هل بلغت؟ ثم قال ليبلغ الشاهد الغائب فإنه رب مبلَّغ أسعد من سامع»: قال

حميد قال الحسن حين بلغ هذه الكلمة قد والله بلغوا أقواما كانوا أسعد به[1] رواه أحمد .

«وأن كل ربا موضوع (أى مهدر) ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب (عم النبى) موضوع كله.

أما بعد: أيها الناس، فإن الشيطان قد يس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا.

ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله.

أما بعد: أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحد غيركم تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

أيها الناس: استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان[2] لا يملكن لأنفسهن شيئاً، فاعقلوا ـ أيها الناس ـ قولى، فإنى بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا: كتاب الله وسنة رسوله.

أيها الناس: اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا ما لا أعطاه عن طيب نفس منه. فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟

---

(١) وروى أبو داود بعضه وروى البزار نحوه بمعناه عن ابن عمر من وجه آخر. وفى إسناده على بن زيد بن جدعان مختلف فيه. بعضهم وثقه، وبعضهم ضعفه. ورواه أئمة الحديث فى كتبهم مقطعا فى أبواب متفرقة من طرق صحيحة كالبخارى وغيره. «الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى. أبواب خطبه. باب خطبته ﷺ أوسط أيام التشريق جـ٢١. صـ٢٧٩ـ ٢٨١. ط.: الأولى سنة ١٣٧٧هـ».

(٢) جمع عانية، اى أسيرات، شبهن بالأسيرات لضعفهن.

فأجاب الناس من كل صوب: نعم. فقال: اللهم أشهد، ونزل عن ناقته.

هذه الخطبة جمعت أصولاً قد تبدو الآن معترفا بها، مجمعا عليها.. ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربى وقت إلقائها، بل حالة المجتمع الإنسانى، يعرفون أنها كانت أساساً جديداً لأكبر انقلاب اجتماعى منذ ظهوره ﷺ، ويلحظون إحاطتها على قصرها بالداء والدواء، وأن فيها أسس الحضارة التى جعلت من العرب الضلال أمة تسوس المشرق والمغرب قروناً كثيرة.

وها هى ذى الأيام تمر فتبلى كل جديد، وفصاحة محمد ﷺ وبلاغته لا تزال نضرة عذبة، يبتهج بها المتطلع إلى الأدب والعلم، ويجد فيها الأديب ريا وشفاء)[١].

وصدق الرافعى حين يقول: (يجىء النبى فتجىء الحقيقة الإلهية معه. فى مثل بلاغة الفن البيانى. لتكون أقوى أثرا. وأيسر فهما. وأبدع تمثيلا... وليس عليها خلاف من الحس، وهذا هو الأسلوب الذى جعل إنسانا واحداً فى الناس جميعاً. كما تكون البلاغة فى لغة بأكملها)[٢].

الخطبة.. فى سطور:

١- وجه الرسول ﷺ خطبة الوداع من فوق ناقته.. أى من فوق منبر عال.. حتى تراه العيون.. فترتبط به.. وتندمج معه. يعلمهم الحكمة من قمته العالية كأستاذ مهيمن.. يأخذ سمت الإمام الممسك بالزمام.. مما يجعل للكلمة قيمتها وأثرها.. بقدر ما يقف بالجمهور موقف التلميذ.. المتلقى من عل.. ولو أنه غاب فى الزحام.. لما بلغت كلماته ذلك المدى الواسع.. ولما حقق ذلك الأثر الخطير..

٢- ولقد حرص الرسول الكريم على افتتاح خطبته الجامعة بمقدمة وجيزة هى: **(سمعوا قولى. فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا).**

ومن شأن هذه المقدمة أن تجمع انتباه الناس ليتمركز حول ما سوف يقوله ﷺ.

---

(١) مع الله للشيخ محمد الغزالى: ٤٣٨- ٤٤١.

(٢) الرافعى: وحى القلم ٢- ٤.

إنها قد تكون الخطبة الأخيرة.. وقد يكون لقاء الوداع.. وإذن فسوف يصغى الناس بكل طاقة السمع فيهم.. ولولا هذا.. لولا أنه لفت الأنظار إلى معنى الرحيل من هذه الدنيا.. لكان من الممكن أن تقل نسبة الانتباه.. اعتماداً على فرصة أخرى يستمعون فيها إليه ﷺ.. أما والفلك على وشك الرحيل.. فإن منافذ الحس كلها تتفتح الآن لتتلقى الدرس الأخير

٣- ثم إنه لا يستدعى المؤمنين فحسب.. لكنه يستدعى الناس جميعاً: **«يا أيها الناس»**.

فما تحويه الخطبة من قواعد.. إنما هى أسس حياة الإنسان حيثما كان ذلك الإنسان.. وتتأكد بذلك عالمية الدين القاضية بالتمسك بآدابه.. بقدر ما ترفض استيراد المبادئ من هنا.. وهناك.. من أناس هم أساساً مدعوون مثلنا ليقيموا حياتهم على هذه المبادئ الشاملة الكاملة.

٤- ويسأل ﷺ: **«أى شهر هذا؟ أى بلد هذا؟ أى يوم هذا؟»**.

وبهذه الأسئلة يستخرج الأجوبة من لدن المستمعين وعلى أساس الأجوبة يشتركون مع الخطيب فى تقرير حقائق متفق عليها.. تؤكد حرمة الشهر.. والبلد.. واليوم..

وبالتالى ينتقل الخطيب وفى صحبته الجمهور إلى الحقيقة المراد تقريرها وهى: حرمة دم الإنسان وماله وعرضه.. والتى لا يفرضها المتحدث فرضا..

بيد أنها نتيجة اشتراك - المتحدث والمستمع - فى الوصول إليها بعد اشتراكهما فى وضع أساسها من خلال الأسئلة التى طرحت أولا.. والتى انتهت بإجابات مهدت السبيل إلى تقرير حرمة الإنسان.

٥- وإذا كان الخطيب هنا يعلنها حرباً شعواء على القيم الزائفة، لتأسيس القواعد من جديد على تقوى من الله ورضوان.. حين يفعل ذلك.. فإنه فى نفس اللحظة يعلن أنه: أول المسلمين.. إن ربا عمه العباس.. موضوع كله.. ولا حق له فى الزيادة. وأن دم ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب.. ابن عم النبى موضوع أيضاً... ولا ثأر بعد اليوم!

وإذن . . فلا يدعو المسلم هنا إلى ثورة إصلاحية بزخرف القول بينما هو فى واد آخر . . تخالف أفعاله أقواله . .

وإنما يبدأ بنفسه وأهله . . وبهذا الالتزام الصارم يمهد السبيل كى تصل دعواه إلى قلوب تهفو إليه . وتثق به .

٦- عندما يغير الشيطان خطته فلا يوجه حربا مباشرة إلى صميم العقيدة التى رسخت ولا فائدة من زعزعتها . . فإنه ينتقل بالمعركة إلى جهة أخرى . . عن طريق أمور تبدو تافهة يسيرة . . لكنها مع الأيام تشكل صدأ . . يتراكم حول العقيدة . . فيجمدها . . ولا يجعلها تمارس سلطتها فى التوجيه . . وواجب الدعاة أن يلاحقوه فى كل مجال . . وألا يركزوا فقط على القضايا الكبيرة فى حياة الناس . . ثم يتركوا صغار الأمور لينعكس أثرها مع الزمن على خلق الإنسان . .

٧ - إذا كان للمرأة حقوق تطالب بها . . فإن عليها واجبات لابد أن تحترمها أولا . . لتكون أهلا لهذه الحقوق . . أما إرادة الحصول على حقوق المرأة المسلمة كما كانت عليه فى العصر الأول . . دون نظر إلى هذه الواجبات . . فظلم بين . .

٨ - الإسلام الذى يبيح - للضرورة القصوى - ضرب المرأة فإنه يلفت النظر إلى تجنب الوجه . . لتبقى المرأة جميلة! ! . . جميلة فى عين زوجها كى يراجع نفسه فيحتفظ بها!

٩ - حصن الأمان عند كل اختلاف هو : القرآن والسنة . .

١٠ - كل هذه المبادئ . . وغيرها . . يخاطب الرسول بها الإنسانية جمعاء حتى النطف فى أرحام الأمهات . .

وقد وضع أمانة تبليغها فى أعناقنا بقوله : «**ألا فليبلغ الشاهد الغائب**».

فإذا كانت بعض النفوس تمسك الماء . . لكنها لا تنبت الكلأ . . فإن هناك قلوبا تمسك ذلك الماء . . وتنبت من كل زوج بهيج . ورب مبلغ أوعى من سامع . . فلنبلغ ما سمعناه . . لتظل كلمة التوحيد باقية فى أعقابنا .

١١ ـ ومسك الختام.. ذلك الإصرار منه ﷺ على أنه بلغ الرسالة.. ثم إرادة الاستيثاق من أمته: ألا هل بلغت..؟.

ثم ذلك التجاوب الرائع من قلوب هائمة به: (نشهد أنك بلغت. وأديت.. ونصحت..)[١].

وتوافى أسعد اللحظات فى حياة الدعاة.. الذين يجاهدون فى الله حق جهاده.. ثم لا تسعفهم الحياة بالثمرات قريبة دانية.. ويواصلون الأمر والنهى فى بيئة تتنكر لهم.. بل وتتمرد عليهم.. وقد يزحف اليأس عبر قلوبهم.. على ما يقول سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٢].

ولكن مثل هذه اللحظات الحاسمة فى حياته ﷺ تصبح بين أيدى الدعاة أملا يدفعهم إلى مزيد من العمل رجاء الوصول إلى مثل ما وصل إليه من نصر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾[٣]

هذه اللحظة التى يشعر رسول الله ﷺ أنه أخرج مسؤولية الدعوة وتبليغها عن عنقه، فها هو الإسلام قد انتشر، وها هى ذى ضلالات الجاهلية والشرك قد تبددت، وها هى زى أحكام الشريعة الإلهية قد بلغت، وها هو ذا الوحى ينزل عليه ﷺ بقول الله تعالى مخاطباً البشر كلهم: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾** ولكنه ﷺ يريد أن يطمئن إلى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يسألون.. فأعقب توصياته هذه لهم بأن نادى فيهم قائلا: «إنكم ستسألون عنى، ما أنتم قائلون؟»

وارتفعت الأصوات من حوله تصرخ: نشهد أنك قد بلغت. وأديت. ونصحت. وحينئذ اطمأن الرسول العظيم ﷺ!...

لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التى سيلقى بها وجه ربه عز

---

(١) كما ورد فى روايات أخرى.

(٢) البقرة: ٢١٤.

(٣) يوسف: ١١٠.

وجل.. ولقد اطمأن الحبيب الأعظم ﷺ إذ ذاك.

وشعشع الرضى فى عينيه، ونظر بهما إلى الأعلى مشيرا بسبابته إلى السماء ثم إلى الناس يقول: «**اللهم اشهد.. اللهم اشهد.. اللهم اشهد.**»

وما أعظمهما من سعادة؟!.. سعادة رسول الله ﷺ بشبابه الذى أبلاه وعمره الذى أمضاه. فى سبيل نشر شريعة ربه جل جلاله، وذلك حينما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذى قدم والعمر الذى بذل، أصواتا ترتفع وتعج بتوحيد الله، وجباها تعنو ساجدة لدين الله وقلوبا خفاقة تجيش بحب الله... ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر، وشتات السفر فى القفار، وعذاب السخرية والإيذاء. فى سبيل هذا الإيمان الذى شاده فوق أرض الله!.. فلتكتحل به عيناك يا سيدى سعادة وسروراً. وليبارك لك ربك فى وجيب قلبك اليوم حمدا ونشوة وحبورا.

ولا والله، ما كان ذلك شهادة تلك الآلاف المحتشدة من حولك فحسب، يا سيدى رسول الله. ولكنها شهادة المسلمين فى كل جيل وعصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تعلن بلسان حالها ومقالها. نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجزاك الله عنا خير ما جوزى نبى عن أمته.

ولكن مسؤولية الدعوة قد انتقلت من بعدك إلى أعناقنا وما أبعدنا اليوم عن القيام بحقها. وأن علينا أوزارا من التقاعس والتكاسل والركون إلى زهرة الحياة الدنيا، بينما يلتفت من حولك أصحابك البررة الكرام وإن فى أيديهم وعلى أبدانهم شهادة الدم الذى سفكوه. والجهد الذى بذلوه والدنيا التى حطموها تحت أقدامهم نصرة لشريعتك ودفاعا عن دعوتك وتأسياً بجهادك[1].

وبعد.... وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان.. وفى ضوء الأوضاع الدولية الراهنة تساءل الناس: ما مكانة الإنسان فى الحياة؟ ما هدفه؟ وما نوع علاقاته بالآخرين؟

ومع ارتقاء الشعور الإنسانى.. وتحت وطأة المظالم الواقعة تولدت فكرة

---

(١) د. محمد سعيد البوطى ـ فقه السيرة ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦.

غير أنها ما زالت هناك . . تتدحرج على السفح . . ويمسكها الحياء أن تتطلع إلى الحقوق كما قررها الإسلام فى خطبة الوداع!

إن الحقوق فى منطق المدنية الحديثة حقوق اعتبارية . . فما كان بالأمس حقاً مقرراً يمكن الغاؤه اليوم . .

ولا يكون الحق حقاً ما لم يعترف به دستور الدولة . . فإذا لم يعترف به فلا وجود له . . وإن كان فى ذاته حقاً! . . إنه حق عنصرى . . قومى . . أنانى . .

(فى فرنسا . . عندما ألحقوا ميثاق الحقوق الإنسانية بدستور ١٩٧١ قالوا: رغم أن المستعمرات والأراضى التى احتلتها فرنسا فى آسيا وأفريقيا هى جزء من أراضيها إلا أن هذا الدستور لا يطبق عليها).

فميثاق حقوق الإنسان . . للشعب الفرنسى فقط!!

ومن يطالب به من هذه المستعمرات يضرب . . وبوحشية تأباها الإنسانية!

(وفى ٣٠ نوفمبر ١٩٧٣ لما قررت الأمم المتحدة: أن التمييز العنصرى جريمة . . عارض هذا القرار: أمريكا وانجلترا والبرتغال وأفريقيا الجنوبية . .).

وفى روسيا (طلع فجرها الأحمر من وراء أكمة شاهقة لجثث البشر البالغ عددها نحو عشرين مليونا)[١].

إن الحقوق هناك ليست نابعة من الفطرة . . بل هى جزء من القانون العام للدولة . . يغير ويبدل . كلما أراد ذلك الهوى المتقلب . !

وليس هناك حل أكمل ولا أشمل إلا الإسلام . . والإنسانية مطالبة اليوم أن تجربه . . ولو مرة واحدة . . فإذا فعلت فسوف تتخلص فى نفس الوقت من عذابها . . وتضع أقدامها على طريق يسلمها فى النهاية إلى الأمن والقرار.

---

(١) راجع البعث ـ محرم ١٣٩٩.

خطبته فى الأنصار

أعطى رسول الله ﷺ مغانم حنين قريشا. ولم يعط الأنصار شيئاً. فحزنوا فى أنفسهم. وظنوا أنهم هانوا على رسول الله ﷺ حتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله قومه.

عن أبى سعيد الخدرى. قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شىء وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم لقى رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال يا رسول الله إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم ما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت. قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء، قال: **«فأين أنت من ذلك يا سعد؟»** قال يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومى وما أنا قال: **«فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة»** قال فخرج سعد فجمع الناس فى تلك الحظيرة. قال فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار. قال فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل. ثم قال: **«يا معشر الأنصار ما قالة[1] بلغتنى عنكم؟ وموجدة وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم»**، قالوا بلى لله ورسوله المن والفضل قال **«ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟»** قالوا وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل قال **«أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فأغنيناك، جدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة[2] من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولوسلك الناس شعبا وسلكت الأنصار**

---

(١) القالة : حديث الشر

(٢) اللعاعة : البقية اليسيرة

شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» قال فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا.[1] . رواه الإمام أحمد ورجال أحمد رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع يعنى بالحديث الصحيح.

*****

(١) الفتح الربانى. لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الاستاذ أحمد عبد الرحمن البنا. جـ٢١ صـ٢٧٣ - ٢٧٤ ط. الاولى ١٣٥٧هـ.

إلى الخلاص
من قاعدة الإخلاص

ماذا أنت صانع إزاء تصرف غير مفهوم.. من صديق لك أو جار...ظننته اعتدى على حقك المشروع؟

ربما لجأت إلى الصمت.. وأنت كظيم... أسفا على زمان ضلت الآراء فيه.. وقل الأوفياء... وقد تحاول تكوين حزب من زملائك تناوئ به صاحبك الذى ظلمك.. فى محاولة للرد عليه جزاء ما فعل.

ولكن الصمت لن يحل مشكلة زدتها أنت تعقيدا بسلبيتك التى لم تشعر بها صاحبك أنه أخطأ فى حقك.. ومن ثم.. سوف يمضى على سجيته يكرر نفس الخطأ الذى لم تعالنه به... وإذا قلبك منه فى نار تلظى. ثم إن الحزب الذى شكلته سيصعد المعركة بما يزيد نسبة العناد فى نفس صاحبك.. من حيث تسرعت وأعلنت عليه الحرب.. قبل أن تعرف منه تفسير الموقف بما قد يبرئ ساحته.

ما هو الحل أذن؟ الحل الأمثل: أن تتصل مباشرة بمن ظننته معتديا عليك.. تتصل به وعلى الفور... قبل أن ينتهزها الصائدون فى الماء العكر فرصة ليضربوا ضربتهم فى الوقت المناسب.... ولو أنك فعلت... فربما بدا لك من حسن نيته ما يعود بك... وبه.. إلى الصفاء القديم.

مثل من السنة المطهرة:

غنم المسلمون فى غزوة حنين مغانم كثيرة.. لم يغنموا مثلها من قبل. وقسم ﷺ الغنائم على نحو رآه يخدم الدعوة. والدولة.

فقد أعطى المهاجرين من قومه.. ولم يعط الأنصار شيئا.. فذهبت الظنون بشباب الأنصار كل مذهب.. إلى حد أنهم لم يستطيعوا إخفاء تأثرهم من هذه القسمة.. وقال بعضهم لبعض: لقى والله رسول الله قومه!!

وكأنما يريدون تلك المقولة الدائرة على ألسنتنا: من لقى أحبابه... نسى أصحابه!!..

ومع أن ثقة الأنصار فى عدله ﷺ وحكمته كاملة لكن التصرف حينئذ لم يكن مفهوما . . . ومما يزيد فى حدة التوتر أن الرسول ﷺ يعطى قريشا . . بينما يحرم شباب الأنصار الذين ما تزال سيوفهم تقطر من دمائهم؟

أمير الجماعة بين العاطفة والعاصفة :

استوعب «أمير الجماعة» «سعد بن عبادة» رضى الله عنه . . وهو الأنصارى . . استوعب ذلك الموقف بما فيه من ألم مكبوت . وحزن نبيل ربما استغله اليهود فى المدينة لحسابهم . . فتخلخل الصف المؤمن .

ذلك بأن أعداء الإسلام يرصدون كل حركة إسلامية . . . لينفثوا سمومهم . . ولكن فى الوقت المناسب . . وأى وقت أنسب للضربة القاصمة . . من وقت يتألم فيه الشباب وهم مستقبل الأمة وطاقاتها وأملها . . فى مواجهة الدولة على نحو قد تنقسم فيه الأمة على نفسها . . فى صدام يحقق أمانى الأعداء الذين أعطيناهم بالتسرع زمام المبادرة . . ليمضوا بنا فى طريق مظلم شائك؟ وحوادث الماضى تؤكد ذلك :

ألم يستغل الأعداء يوما قسوة الظروف فى غزوة تبوك . . وعندما تخلف ثلاثة من الصحابة عنها؟؟

لقد تدخل الماكرون فى محاولة لمساومة أحد هؤلاء المتخلفين ليدير ظهره للرسول الله ﷺ بعد أن ضيق الخناق عليه وعلى زميليه .

واليوم . . يعيد التاريخ نفسه . . حين ينتهزها اليهود فرصة مواتية . . ومن ورائهم الوثنية المتربصة تصفق للخدعة الماكرة . . . ولكن رائد القوم . .وكان أعقلهم وأحكمهم . . يضع الخطة السريعة التى يتجاوز بها مرحلة الخطر . . وحتى يفوت على الأعداء أغراضهم .

لقد حمل هموم الشباب . . وذهب إلى رسول الله ﷺ وفوق رأسه علامة استفهام . . . آملا أن يجد تفسيرا لها يريح القلوب بقدر ما يرد رءوس الفتنة لتعود إلى جحورها . .

قال سعد ما معناه : يا رسول الله : إن هذا الحى من الأنصار حزينٌ . حين

أعطيت قبائل العرب ولم تعط هذا الحى من الأنصار شيئا.

الأمة مشغولة بقضايا الشباب:

وهكذا شغلت قضية من قضايا الشباب كل طوائف الأمة ممثلة فى قائدها وأهل الرأى فيها.. لقد تقبل الرسول ﷺ النقد الهادف مع أنه المؤيد بالوحى الأعلى.. وكان من الممكن أن يرفض حق الشباب فى النقد.. اعتمادا على أنه معصوم... لكنه - ﷺ - لم يفعل.. ولن يفعل.

لقد فتح عقله.. وقلبه.. لآلام الشباب وآمالهم... لماذا؟؟

أولا: فمن حق الشباب أن يسأل... ومن واجب القيادة أن تجيب.

ثانيا: لأن الشباب لم يحاولوا فرض رأيهم بقوة السلاح ولكن... بالحسنى..

لقد تمسك الشباب بحقهم فى النقد رغبة فى تحسين أوضاعهم.. لكنهم - وبنفس القوة - حرصوا على واجبهم فى الوصول إلى الحق بالطريق المشروع.

مشاورات تمهيدية:

وقبل أن يتخذ ﷺ قراره. كانت له مباحثات تمهيدية مع أهل الحل والعقد.. فاستطلع الرسول رأى «سعد بن عبادة» أولا فيما حدث، فقال: يا رسول الله ما أنا إلا واحد من قومى...

يريد أن يقول رضى الله عنه: أنا واحد منهم.. أشعر بشعور قومى... ولا أخرج عليهم.

مؤتمر الشباب ينتظر الحل:

وهكذا جمعت المحنة الشباب ورائدهم على رأى واحد... لكن ذلك الاتفاق لم يخول لهم شق عصا الطاعة.. ومناوأة الحاكم بحجة أنهم على الحق... وأحيانا تبتلى الأمة بقيادات بضاعتها الحماس.. الذى لا يمكنها من الرؤية الكاشفة.. ومن ثم يركبون الموجة الغاضبة.. بينما القائد هناك... مستعد للتفاهم.. مهيأ للحوار.. على أهبة الاستعداد لتلبية المطالب العادلة.. حقنا للدماء.. التى هى مرصودة أساسا لمواجهة أعداء الإسلام.. بدل أن تذهب بدداً

في معركة وهمية.

ضرورة التمهيد للقاء الحاكم:

وقد ينسج الانفعال الغاضب سحابة أمام العيون.. فلا ترى الحق.. وقد يمنعها الغيظ المكتوم.. فلا تحسن الحوار الهادف مع الحاكم.. وإذن.. فلابد من حكَم.. عاقل يمهد للقاء الحاسم بحكمته حتى تهدأ ثورة الأنفعال.. وصولا إلى جو هادئ يسمح بتلاقى الطرفين على كلمة سواء فى هدوء وتبصر.

وهذا ما حققه اللقاء التمهيدى بين سعد بن عبادة ـ رضى الله عنه ـ وبين رسول الله ﷺ.

مواصفات لجنة الوساطة:

من خلال تصرف سعد رضى الله عنه وموقعه فى المجتمع يتبين لنا مواصفات لجنة الصلح فى الإسلام:

أ ـ لابد أن يكون الحكَم كبير القلب... يتلقى شحنة الغضب بهذا القلب الوسيع المفتوح.

ب ـ أن يكون شخصية عامة.. لها بالطرفين صلة وثقى... وليس هو بالمتحيز إلى فئة على حساب أخرى.

جـ ـ أن تكون شخصيته قوية تسمح له بقول ما يعتقده حقا.. وعلى الملأ.. فلا يجامل أحدا على حساب هذا الحق.

د ـ ضرورة الالتزام بالحق إذا تبين.. من الطرفين على سواء.

حرص القائد على نجاح الاجتماع:

لم يتأثر القائد ﷺ من صراحة.. سعد.. رضى الله عنه.. فلا بأس أن يتعاطف الرجل مع قوم هم أهله وعشيرته.. ولا يمنع الإسلام مشاعر الولاء، التى تربط الإنسان بعشيرته شريطة الا يكون ذلك تعصبا ممقوتا، بل إن هذه الصراحة ذاتها كانت الخطوة الأولى على طريق الحل الصحيح... وقد أضاف إليها ﷺ ضمانة أخرى تساعد على الوصول إلى الحل المأمول.

فقد أمر «سعدا» أن يجمع قومه فى الحظيرة فى مواجهة مباشرة ثم دعا معهم بعض عقلاء المهاجرين. ومنع منهم آخرين.. وربما كان ذلك حماية للاجتماع من متحمسين لا يملكون إلا الحماس والإخلاص.. وقد يشعلون الموقف بحماسهم فلا يصل المؤتمر إلى قرار يحسن السكوت عليه.

وليت شعرى لو لم يوافق الشباب على اللقاء.... فهل كان من الممكن أن تهدأ العاصفة؟؟

عتاب المحبين:

لم يشك الرسول ﷺ لحظة واحدة فى صفاء قلوب شباب الأنصار ومشروعية ما هفت إليه أنفسهم من الغنائم التى جاءت على أسنة رماحهم..

ولم يأخذ عليهم حماسا له ما يسوغه من وجهة نظرهم... بل إنه ليقدر هذا الحماس قدرهُ من حيث كان هو الطاقة الدافعة على الجبهة العسكرية بالأمس.. فإذا عبر هذا الحماس عن نفسه اليوم.... فلا ضير... لكن الضير كل الضير أن يندفع الشباب فى مخططهم قبل أن يعرفوا الحقيقة من مصدرها الحقيقى. وهذا ما حدث عندما عاتبهم ﷺ.. وكان عتاب المحبين...

قال لهم ما معناه: ما هذا الذى قلتموه..؟ ما سر هذا الألم الدفين؟ لقد حفظتهم شيئا.. وغابت عنكم أشياء... حفظتم فقط موقفا واحدا ميزت فيه أناسا بالعطاء... ثم نسيتم أعظم عطاء جاءكم من ربكم ولو أنكم تذكرتموه.. ما كان هذا النقد الخفى؟

«ألم آتيكم ضلالا.. فهداكم الله؟ وفقراء.. فأغناكم الله.. وأعداء فألف الله بين قلوبكم».

مناقشة حجج الغاضبين:

كان هذا العتاب بين المحبين سبيلا إلى عودة كريمة.. جدد رفاق السلاح بها ذلك العهد القديم.. واعترفوا بنعمة الهداية والغنى.. والوحدة.. وعندما ينجح القائد فى إيجاد نقطة اتفاق يبدأ منها الحوار... يكون قد نجا بالأمة من خطر محدق.. ثم أشرف بها على معنى الإخاء بعيدا عن الأشلاء.. والدماء.

إلى جانب ما يحققه ذلك من تهدئة الخواطر وإعداد القلوب للحوار البناء. . . والإنصات إلى وجهة النظر الأخرى.

وهذا ما فعله ﷺ حين بدأ يحاورهم فيما يمكن أن يكونوا قد تذرعوا به من حجج تسوغ أسفهم على خطة توزيع الغنائم.

فقال لهم ﷺ:

«أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم.. أتيتنا مكذبا.. فصدقناك.

ومخذولا.... فنصرناك... وطريدا... فآويناك».

أجل. . فأنتم مصدقون. . لو واجهتمونى بهذا. . وإنه لحق.

ولكن: هل من الحكمة أن يكون هذا الموقف العارض سبباً فى نسيان هذه الآصرة التى تجمعنا. . والتى تسجل لكم هذا الشرف العظيم.

من أجل ماذا؟ من أجل قليل من عرض الدنيا خصصت به فريقا أتألف به قلوبهم. . . بينما وكلتكم أنتم لإيمانكم العميق الوثيق. .

والذى يحرسكم من الجزع. . يحرس نفسه بنفسه وليس هو بحاجة إلى حارس من الخارج كإيمان هؤلاء الآخذين.

فأى الفريقين غير مقاما؟

الذين عادوا بالدنيا. . أم أنتم الذين عدتم بالإيمان. . وهو أغلى من الحياة؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم.

«فوالذى نفس محمد بيده.. لولا الهجرة لكنت من الأنصار..

ولو سلك الناس شعبا ـ طريقا ـ وسلك الأنصار شعبا. لسلكت شعب الأنصار.. اللهم ارحم الأنصار.. وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

وعندئذ. . بلغت الموعظة سويداء القلوب. . . وخنقتهم العبرات حتى ابتلت منها لحاهم. . وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا.

مرحلة جديدة:

وهكذا اتضحت أبعاد الموقف.. فالتزم الشباب بالحق بعد ما تبين.. ولم يكن هذا الالتزام إلا بعد تنحية حظوظ النفوس ليكون الولاء للحق وحده..

وهكذا أيضا: حقنت دماء عزيزة كان من الممكن أن تسيل بددا.. بينما هى مدخرة للمعركة الدائمة بين الحق والباطل.. ثم غسلت دموع الندم ما حل بالقلوب من ألم كان كالضيف.. أو سحابة الصيف.

وكان من وراء ذلك كله:

أ ـ حكمته ﷺ.. ورحمته ورأفته بعصب الأمة وهم: الشباب.

ب ـ ثم حوص الشباب على الحل السلمى.. والجلوس إلى مائدة المفاوضات بدل السكوت.. والهجوم المنتهى حتما بهزيمة الفريقين.

جـ ـ وفوق ذلك كله تدبير العزيز العليم سبحانه وتعالى: والذى حمى الأمة من المواجهة الساخنة بين محمد المسلم وعمر المسلم وليكون محمد وعمر غدا. فى مواجهة عدوهما المشترك.. الشيطان.

د ـ وياليت قومى يفهمون موقفهم حين يتأملون ذلك الفتى من «حماس» وطبيعة المعركة التى يخوضها.. والعدو الذى يواجهه.. إن هذه المعركة لا يواجه فيها محمد المسلم «عمر المسلم»... ولكن محمدا وعمر يواجهان معا.. كوهين.. ورابين.. فهنيئا لهما بشهادة هم أحق بها وأهلها.

خطبته فى عشيرته الأقربين:

لما نزل قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾... أمر رسول الله ﷺ عليا كرم الله وجهه بصنع طعام

فلما انتهوا من الطعام تكلم رسول الله ﷺ فقال:

«يا بنى عبد المطلب: إنى والله ما أعلم شاباً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به.

إنى قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة. وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه.

فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر. على أن يكون أخى ووصى وخليفتى فيكم؟»[1].

فانظر كيف يحدثهم رسول الله ﷺ من موطن القوة:

فقد صنع لهم طعاماً تتهيأ به نفوسهم للاستماع.. وحتى إذا لم تحقق التجربة ثمرتها من الاستجابة. فإنها تكف عنه أذى الذين كفروا.

ولم يشأ ﷺ أن يجعل اللقاء حفلا خطابياً.. ربما لا يستجيبون له.. وإنما الأساس أنها وليمة.. فيها طعام وشراب. فإذا جاءت الموعظة فى ثناياها بلا قصد كان الإنصات أمراً محتملا.

وتأمل الخطبة لتجدها كلمات معدودات. لكنها جمعت أصول الخير كلها. ولم تخل من إغراء.. وتلويح. بالمنفعة الآجلة والعاجلة تجاوباً مع فطرة الإنسان.

وأمر آخر نلفت الأنظار إليه بقوة: لو أن الخطيب هنا هو المدعو إلى وليمة.. ما كان لكلامه قيمة!

ومما [ينبغى للداعية أن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد شريف لا استجداء فيه، ولا ذلة ولا مهانة.

إن الدعاة الصادقين الشرفاء يربأون بأنفسهم أن يعيشوا من صدقات الناس وأعطياتهم.

وأية كرامة تكون لهم فى نفوس قومهم بعد أن يهينوا أنفسهم بذل السؤال والاستجداء ولو لم يكن صريحاً مكشوفاً.

فإذا وجدنا من يدعى الدعوة والإرشاد وهو يستكثر من أموال الناس بشتى أنواع الحيل. فإننا نجزم بمهانة نفسه فى نفسه. فكيف فى نفوس قومه وجيرانه؟ ومن ارتضى لنفسه المهانة فكيف يستطيع أن يدعو إلى مكارم الأخلاق ويقف فى وجه الطغاة والمفسدين؟ ويحارب الشر والفساد. ويبعث فى الأمة روح الكرامة والشرف والاستقامة][2].

عن أنس بن مالك قال: لما قدم رسول الله ﷺ نزل فى علو المدينة فى حى

---

(١) الطبرى: ٢ ـ ٣٢٠.

(٢) د. مصطفى السباعى. السيرة النبوية: ٣٥.

يقال لهم بنو عمرو بن عوف فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم إنه أرسل إلى ملأ من بنى النجار قال فجاءوا متقلدين سيوفهم قال فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه وملأ بنى النجار حوله حتى ألقى بفناء أبى أيوب قال فكان يصلى حيث أدركته الصلاة ويصلى فى مرابض الغنم ثم أمر بالمسجد فأرسل إلى ملأ من بنى النجار فجاءوا فقال يا بنى النجار «**ثامنونى حائطكم هذا**»، فقالوا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله قال وكان فيه ما أقول لكم كانت فيه قبور المشركين وكان فيه حرث وكان فيه نخل فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت وبالحرث فسويت وبالنخل فقطع، قال فصفوا النخل إلى قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه حجارة قال وجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهو يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول «**اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة.**»

والذى قال: اشتراه منهم بعشرة دنانير هو من كلام محمد بن سعد فى الطبقات عن الواقدى أن النبى ﷺ اشتراه منهم بعشر دنانير دفعها عنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ حديث صحيح ـ رواه الإمام أحمد(١).

ومفروض على الخطباء الذين يبلغون رسالة المسجد أن يكونوا صورة له وأنهم لكذلك ودليلا عليه. عزة وإباء. ليتمكنوا من فوق منبره العالى أن يقولوا قولة الحق.. ولا يخشون فيها لومة لائم.

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال «**أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى**

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحم بن حنبل ـ للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا جـ٢١. صـ٥، ٦ ط. الأولى ١٣٧٧هـ.

الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف. والسلام على رسول الله ورحمه الله وبركاته»[1].

تعـليق:

افتتحت الخطبة بالتهديد الشديد بانفلات العمر فجأة بما يشبه التيار الكهربائى «ليصعقن».

ثم يترك الإنسان ماله للضياع. فحذار من التقصير.. حذار..

ثم يرفع الستار عن هذه المحاكمة المتوقعة من قبل الحق سبحانه وتعالى بهذه الأسئلة التى تلسع الإحساس وتضيق عليك الخناق.. بلا نصير ولا ولى.

وفى الوقت الذى تبدو فيه جهنم جزاء للمقصرين ومصيراً فإن الرسول ﷺ لا يترك المستمع للرهبة تسلمه إلى اليأس القاتل.

ولكنه يفتح له طريق الأمل.. ليقى وجهه ـ وهو أثمن درة فى كيانه ـ بماذا؟.

بكلمة طيبة؟ ومن منا لايملك الكلمة الطيبة؟.

ولو بشق تمرة.. وهل فى الكرة الأرضية على اتساعها من لا يملك نصف تمرة؟!

إذن.. فطريق الخلاص من هذا العذاب الكبير متاح بهذا القدر الضئيل! وإذن أيضاً.. فلا عذر لمقصر معاند يرى أمامه الطريق ثم يدير ظهره مدبراً مستكبراً.

بل الحسنة الصغيرة تضاعف إلى ما شاء الله من أضعاف.. أى أن الكلمة الطيبة.. ونصف التمرة.. وأمثالهما من صور البر لاتنجيك فقط من عذاب الله.. لكنها تصعد بك إلى أعلى.. والسلام على من اتبع الهدى.

*****

---

(١) رواه البيهقى ـ السيرة النبوية ـ لابن كثير ـ تحقيق الاستاذ/ مصطفى عبد الواحد. جـ٢. صـ٣٠١. ط. عيسى البابى الحلبى. سنة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

وفى سند هذا الحديث ابن إسحاق وقد سبق الكلام عنه.

من جوامع كلمه[1] ﷺ
مما فيه خير الدنيا والآخرة

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال الرسول ﷺ «**زُرْغِبًّا: تزدد حبا**»[2].

حديث حسن.

عن ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «**الحرب خدعة**»[3].

رواه البخارى.

عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «**المسلمون عند شروطهم ما وافق الحق**»[4]. سكت عنه الحاكم والذهبى.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يد الله مع الجماعة**» [5]حديث غريب.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تهادوا تحابوا**» قال الزين العراقى: وسنده جيد، وقال ابن حجر سنده حسن[6].

ترك الشر صدقة ـ ذكره فى المواهب من غير عزو لأحد[7].

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان**»[8].

رواه البخارى

---

(١) راجع الإعجاز والإيجاز لأبى منصور الثعالبى..

(٢) فيض القدير ـ للعلامة المناوى. جـ٤. صـ٦٢. ط. الأولى سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٨م.

(٣) صحيح البخارى بشرح الكرمانى. جـ١٣. صـ٣٣. ط. الأولى سنة ١٣٥٤ هـ١٩٣٥م. محمد عبداللطيف.

(٤) المستدرك ـ للحاكم ـ جـ٢. صـ٤٩. ط. النصر الحديثة ـ الرياض.

(٥) تحفة الأحوذى ـ للمباركفورى ـ ضبطه عبد الرحمن محمد عثمان. جـ٦. صـ٣٨٨ ـ ط. الفجالة.

(٦) فيض القدير ـ للمناوى. جـ٣. صـ٢٧١. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م مصطفى محمد.

(٧) كشف الخفاء ومزيل الإلباس ـ للعجلونى. جـ١. صـ ٣٦٠. ط. الفنون بحلب.

(٨) صحيح البخارى بشرح الكرمانى. جـ١ صـ ٨٢. ط عبد الرحمن محمد بالأزهر.

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله**»[١].

رواه البخارى

عن على مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال: «**خير الأمور أوسطها**» وفى لفظ «**أوساطها.**». وقال فى المقاصد رواه ابن السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد لكن بسند فيه مجهول عن على مرفوعا[٢].

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مطل الغنى ظلم**» رواه البخارى[٣].

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من حمل علينا السلاح فليس منا ومن غشنا فليس منا**» رواه مسلم[٤].

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله العمل على ما فرغ منه أو على أمر مُؤتَنَف؟ قال «**بل على أمر قد فرغ منه**»، قال قلت ففيم العمل يا رسول الله قال «**كل ميسر لما خلق له**» حديث ضعيف[٥].

وفى سند هذا الحديث عطاف بن خالد المخزومى عن نافع وأبى حازم. قال أحمد: ثقة. وقال يحيى: ليس به بأس. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالمتين عندهم غمزه مالك ـ وقال البخارى: لم يحمده مالك بن عدى حدثنا سعيد بن عفان والحسين بن أبى معشر، قالا. حدثنا مخلد حدثنا العطاف بن خالد عن

---

(١) صحيح البخارى بشرح الكرمانى جـ٧. صـ١٩٧. ط. الأولى سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤م محمد عبداللطيف.

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإباس ـ للشيخ/ محمد العجلونى ـ جـ١. صـ ٤٦٩ ـ ٤٧٠. ط. الفنون ـ بحلب.

(٣) صحيح البخارى بشرح الكرمانى. جـ١٠. صـ ٢٠٢. ط. الأولى سنة ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م محمد محمد عبد اللطيف.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى. جـ٢. صـ١٠٨. ط. حجازى بالقاهرة.

(٥) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد ومعه كتاب بلوغ الأمانى ـ للأستاذ/ أحمد عبد الرحمن البنا. جـ١. صـ١٣٥ ـ ١٣٦. ط. الأولى.

نافع عن ابن عمر ـ أن النبى ﷺ أفاد من خداش. قال ابن عدى: لم أسمعه إلا بهذا السند، وهو منكر. وقيل. إنه لقنه مخلد فإن هذا ليس فى كتابه عن عطاف. وحدثنا النسائى، حدثنا قتيبة، حدثنا العطاف، عن نافع، عن ابن عمر: كان النبى ﷺ يصلى على الخمرة انفرد به قتيبة، وقال أبو حاتم وغيره: ليس بذاك[1].

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الوحدة خير من جليس السوء»** [2] قال الذهبى لم يصح ولا صححه الحاكم.

روى أن عامر بن واثلة سمع عبد الله بن مسعود يقول: الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره فأتى رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له حذيفة بن أسيد الغفارى فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال وكيف يشقى رجل بغير عمل فقال له الرجل أتعجب من ذلك فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول **«إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يا رب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب رزقه فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص»**[3] «رواه مسلم».

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«انصر أخاك ظالما أو مظلوما»** قيل يا رسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال **«تمنعه من الظلم»** (وفى لفظ) **«تحجزه تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»**[4]. رواه أحمد «حديث صحيح».

روى القضاعى بسنده عن ابن عمر قال: **«انتظار الفرج بالصبر عبادة.»** قال الحافظ العراقى وسنده ضعيف وروى من أوجه أخرى كلها ضعيفة[5].

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«المرء على دين خليله**

---

(١) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ـ للذهبى جـ٣ صـ٦٩. ط. عيسى البابى الحلبى.

(٢) المستدرك ـ للحاكم. وفى ذيله تلخيص المستدرك. للذهبى ـ جـ٤ صـ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ط. النصر الحديثة الرياض.

(٣) صحيح مسلم. جـ٨. صـ ٤٥. ط. محمد على صبيح بالأزهر.

(٤) الفتح الربانى لترتيب مسند الأمام أحمد مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى ـ للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا جـ١٩ صـ ٦٨. ط. الأول سنة ١٣٧٥هـ

(٥) فيض القدير ـ شرح الجامع الصغير ـ للعلامة المناوى ـ جـ٣ صـ٥٢. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م مصطفى محمد

فلينظر أحدكم من يخالط» وقال مؤمل **«من تخالل.»**[1] حسنه الترمذى وقال النووى فى رياض الصالحين إسناده صحيح.

روى السيوطى بسنده أن رسول الله ﷺ قال: **«المؤمن يألف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»** «حديث حسن» رواه السيوطى[2].

روى السيوطى بسنده عن عبد الله بن عمير الليثى مرسلا أن النبى ﷺ قال: **«لا خير فى مال لا يرزأ منه وجسد لا ينال منه.»** [3]رواه السيوطى مرسلا.

عن عائشة رضى الله عنها قالت قال النبى ﷺ: **«أنزلوا الناس منازلهم»** «رواه مسلم»[4].

روى البيهقى بسنده عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»** (حديث صحيح)[5].

*****

من جوامع تشبيهاته وتمثيلاته ﷺ

عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»** رواه الإمام أحمد ـ (حديث صحيح)[6].

روى عن النبى ﷺ قوله: **«أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»**.

قال الألبانى: موضوع. رواه ابن عبد البر فى «جامع العلم» (٢ ـ ٩١) وابن حزم فى «الأحكام» (٦ ـ ٨٢) من طريق سلام بن سليم.

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل أصحابى مثل الملح**

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى ـ للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا جـ١٩. صـ١٥٢. ط. الأولى ١٣٧٥هـ.

(٢)جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير ـ للإمام السيوطى ـ جـ٦. صـ٦٧٣ ط. خطاب.

(٣) جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير ـ للسيوطى ـ جـ٧. صـ٣٥٢. ط. خطاب.

(٤) جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير ـ للسيوطى ـ جـ٢. صـ٢٠٤ط. خطاب.

(٥) فيض القدير ـ شرح الجامع الصغير ـ للعلامة المناوى ـ جـ١. صـ٢٤١. ٢٤٢. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م. مصطفى محمد.

(٦) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى ـ للاستاذ أحمد عبد الرحمن البنا ـ جـ١٩. صـ٦٨. ط. الأولى ١٣٧٥هـ.

فى الطعام: **لا يصلح الطعام إلا بالملح»** قال المناوى: رمز له المصنف بالحسن قال الهيثمى فيه إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف[1].

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره**» رواه الترمذى من حديث أنس وقال هذا حديث حسن غريب قال الحافظ فى الفتح بعد ذكر هذا الحديث وهو حديث حسن له طرق قد يرتقى بها إلى الصحة[2].

رواه الطبرانى بمعناه عن الحسن أنه سمع رجلا يدعو على الحجاج. فقال له لا تفعل إنكم من أنفسكم أتيتم إنا نخاف إن عزل الحجاج أو مات أن يتولى عليكم القردة والخنازير. فقد روى أن أعمالكم عما لكم. وكما تكونوا يولى عليكم. رواه الطبرانى: وسكت العجلونى عن هذه الرواية[3].

عن أنس بن مالك قال أتى النبى ﷺ رجل يستحمله فلم يجد عنده ما يحمل فدله على آخر فحمله فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: «**إن الدال على الخير كفاعله**». رواه الترمذى. وقال حديث غريب[4].

عن أنس بن مالك قال: قال النبى ﷺ «**إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار**». حديث ضعيف قال المناوى قال: الهيثمى وفيه الوليد ابن سلمة الطبرانى وهو كذاب[5].

*****

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ للعلامة المناوى ـ جـ٥. صـ ٥١٦. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م. مصطفى محمد.

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ـ للمباركفورى ـ ضبطه ـ عبد الرحمن محمد عثمان. جـ٨. ٢ـ١٧٠. ط. الفجالة الظاهر القاهرة.

(٣) كشف الخفاء ومزيل الإلباس ـ للشيخ ـ محمد العجلونى ـ جـ٢ صـ١٨٤. ط. الفنون ـ بحلب.

(٤) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ـ للمباركفورى ـ جـ٧. صـ٤٣٣، ط. الفجالة.

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ للعلامة المناوى ـ جـ٢. صـ ٥٠١، ٥٠٢. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م مصطفى محمد.

«المؤمن مرآة أخيه».

سبق تخريج هذا الحديث .

عن ابن عمر رضى الله عنهما. قال: قال ﷺ: **«من كنوز البر كتمان المصائب. والأمراض، والصدقة»**. رواه أبو نعيم فى الحلية[1].

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال ﷺ: **«داووا مرضاكم بالصدقة»** رواه أبو الشيخ فى الثواب، وسكت عنه السيوطى والمناوى[2].

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال ﷺ: **«حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة. وأعدوا للبلاء الدعاء»** حديث ضعيف.

قال ابن الجوزى. حديث لا يصح تفرد به موسى بن عمير. قال ابن عدى وعامة ما يرويه لا يتابع عليه أحد، وقال الهيثمى فيه موسى بن عمير الكوفى متروك وفى الميزان قال أبو حاتم ذاهب الحديث كذاب، وقال ابن عدى عامة ما يرويه لا يتابع عليه ثم ساق له أخبارا منها هذا[3].

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال ﷺ: **«صدقة السر تطفئ غضب الرب»** رواه الطبرانى فى الصغير، ورمز له السيوطى بالصحة.

قال المناوى. قال الهيثمى فيه من طريق الطبرانى أحرم بن حوشب وهو ضعيف[4].

عن الحجاج بن منهال قال: قال رسول الله ﷺ: «جدع الحلال أنف الغيرة».

[مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابورى الميدانى جـ١. صـ١٦٣. ط. الثانية سنة ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م السعادة.

---

(١) فيض القدير. شرح الجامع الصغير. للعلامة المناوى جـ. صـ ١٧. ط. الأولى سنة ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.
(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى جـ٣. صـ٥١٥. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.
(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى جـ٣ صـ٣٨٨. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.
(٤) فيض القدير. شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٤. صـ ١٩٣. ط. الأولى ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

في سند هذا الحديث. حجاج بن المنهال الأنماطي السلمي أبو محمد روى عن شعبة وحماد بن سلمة وهمام ويزيد بن إبراهيم سمعت أبي يقول ذلك، قال أبو محمد روى عنه أبي ومحمد بن يحيى النيسابوري ومحمد بن مسلم حدثنا عبدالرحمن أن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل فيما كتب إلي. قال سمعت أبي يقول: حجاج بن المنهال ثقة فاضل[1].

عن أنس رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**الحمى رائد الموت**» حديث حسن.

رواه أبو نعيم وابن السني في الطب بزيادة. «**وسجن الله في الأرض**»[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» حديث حسن[3].

عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**» رواه الطبراني[4].

عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ. «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**» حديث حسن.

رواه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه وابن السكن، وابن طاهر، وأعله الدارقطني بالإرسال[5].

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ **في بعض أسفاره وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو، فقال له رسول الله ﷺ، «يا أنجشه رويدك سوقا بالقوارير»** رواه مسلم[6].

---

(١) كتاب الجرح والتعديل للحافظ أبي محمد عب الرحمن بن أبي حاتم محمد بن أدريس المنذر التميمي الحنظلي الرازي. جـ٣. . ص١٦٧ ط. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان.

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. للعجلوني جـ١. صـ٤٣٩. ط. الفنون بحلب.

(٣) سنن الترمذي للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. جـ٣ صـ٣٨٥. ط. الفجالة الجديدة.

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للحافظ الهيثمي. جـ١٠. صـ ٢٦٨. ط. القدسي سنة ١٣٥٣هـ.

(٥) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني. جـ١. صـ١٨٨. ط. الفنون بحلب.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي. كتاب الفضائل. باب رحمته ﷺ بالنساء والرفق بهن. جـ١٥. صـ ٨٠. ط. حجازي.

عن قتادة رضى الله عنه قال: سمعت أنسا رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«هذا جبل يحبنا ونحبه»** [(١)]رواه البخارى.

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **«إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثونى ما هى، قال موقع الناس فى شجر البوادى»** قال عبد الله فوقع فى نفسى أنها النخلة، ثم قالوا حدثنا ما هى يا رسول الله، قال: **«هى النخلة»** [(٢)]روله البخارى.

وهى طريقة فذة فى إثارة الانتباه والوصول به إلى المطلوب بل وحفره فى الأعصاب.. ومثال لأهمية الدعوة والأخذ على يد الأشرار:

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»**[(٣)] رواه البخارى.

*****

(١) صحيح البخارى بشرح الكرمانى كتاب بدء الخلق باب أحد يحبنا ونحبه جـ١٦. صـ١٤، ١٥. ط. البهية المصرية سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٧.

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرمانى. كتاب العلم. باب طرح الإمام المسألة، جـ٢، صـ١٢، ١٣. ط. المطبوعات الإسلامية.

(٣) صحيح البخارى بشرح الكرمانى. كتاب الشركة باب هل يقرع فى القسمة. جـ١١. صـ٥٧، ٥٩. البهية المصرية سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.

من مطابقاته

عليه الصلاة والسلام

عن ابن مسعود موقوفا. قال: قال ﷺ: **«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»**[1] حديث صحيح فيض القدير.

(الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) هو من قول على بن أبى طالب، لكن عزاه الشعرانى فى الطبقات لسهل التسترى، ولفظه فى ترجمته: ومن كلامه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا ماتوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم انتهى[2].

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ كفى: **«بالسلامة داء»**[3] حديث ضعيف. فى سند هذا الحديث. عمران القطان، قال الذهبى ضعفه يحيى والنسائى، قال الديلمى، وفى الباب أنس.

«جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» قال فى المقاصد رواه أبو نعيم فى الحلية وابن حبان فى روضة العقلاء والخطيب وآخرون، أن الحسن بن عمارة بلغه أن الأعمش وقع فيه فبعث إليه بكسوة، فمدحه، فقيل للأعمش ذممته قم مدحته، فقال حدثنى خيثمة عن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا، قال البيهقى وهو المحفوظ، وقال ابن عدى وهو المعروف، ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية مرفوعا وموقوفا وهو باطل من الوجهين، وقول ابن عدى والبيهقى إن الموقوف معروف عن الأعمش يحتاج إلى تأويل، فإنهما ذكراه بسند فيه متهم بالكذب والوضع يجل الأعمش عن مثله[4].

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«أنظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**[5] حديث صحيح.

---

(١) شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٣. صـ ٣٨٩ ط. الأولى. سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى جـ٢. صـ٤٣٢. ط. مطبعة الفنون بحلب.

(٣) فيض القدير. شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٤ صـ٥٥١. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

(٤) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى. جـ١. صـ ٣٩٥. ط. الفنون بحلب.

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٣. صـ٥٩. ٦٠. ط. الأولى سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

ما يروى عنه ﷺ

فى التجنيس

عن أنس رضى الله عنه. أن النبى ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بشراركم**» قالوا بلى: قال «**شراركم من يتقى شره ولا يرجى خيره وخياركم من يرجى خيره ولا يتقى شره**» [(١)] رواه أبو يعلى وفيه مبارك بن حيكم وهو متروك.

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما. عن النبى ﷺ قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[(٢)] رواه البخارى.

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[(٣)] رواه البخارى.

عن أنس رضى الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال. «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**»[(٤)] رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط وفيه أبو هلال وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائى وغيره.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تدرون من المسلم**»، قالوا الله ورسوله أعلم. قال «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**». قال «**تدرون من المؤمن**» قالوا الله ورسوله أعلم، قال «**من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم، والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه**»[(٥)] رواه أحمد.

عن على رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**إن الله تعالى يبغض البخيل فى حياته، السخى عند موته**»[(٦)] رواه الخطيب فى كتاب البخلاء.

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمى. جـ٧. صـ٩٠. ط. القدسى سنة ١٣٥٣هـ.

(٢) صحيح البخارى يشرح الكرمانى. كتاب المظالم. باب الظلم ظلمات يوم القيامة جـ١١. صـ٢٠ ط. المصرية سنة ١٣٥٣هـ. ١٩٣٤م. الأولى.

(٣) صحيح البخارى بشرح الكرمانى كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده جـ١. صـ٨٨. ٨٩. ط. الأولى.

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للحافظ الهيثمى. باب لا إيمان لمن لا أمانة له جـ١. صـ٩٦. ط. القدسى ١٣٥٢هـ.

(٥) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ١. صـ١٠٩. ١١٠. ط. الأولى.

(٦) جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير جـ٢. صـ٣٤١. ط. خطاب.

من روائع
الخلفاء الراشدين

من حكم أبى بكر رضى الله عنه:

«صنائع المعروف تقى مصارع السوء»

«ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة».

من حكم عمر رضى الله عنه:

«من كتم سره. كان الخيار بيده».

«أعقل الناس أعذرهم للناس».

«لا تؤخر عمل يومك إلى غدك».

«أشقى الولاة من شقيت به رعيته».

«قل ما أدبر شىء فأقبل».

«من لم يعرف الشر يقع فيه».

«المروءة الظاهرة فى الثياب الطاهرة».

من حكم عثمان رضى الله عنه:

«ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن».

«يكفيك من الحاسد أن يغتم وقت سرورك».

«تاجروا الله بالصدقة تربحوا».

من حكم «على» رضى الله عنه:

«المرء مخبوء تحت لسانه».

«الناس من خوف الذل فى الذل».

«الناس أعداء ما جهلوا».

«رأى الشيخ خير من مشهد الغلام»[1].

«استغن عمن شئت تكن نظيره. واحتج إلى من شئت تكن أسيره. وأحسن إلى من شئت تكن أميره».

«لا ترجون إلا ربك. ولا تخافن إلا ذنبك».

«من أيقن بالخلف جاد بالعطية»[2].

«قصر ثيابك فإنها أنقى وأبقى»[3].

«الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم».

«بشر مال البخيل بحادث. أو وارث».

«الإحسان يقطع اللسان».

«من طلب ما لا يعنيه فاته ما يعنيه».

«إعادة الاعتذار تذكير بالذنب».

«إذا تم العقل نقص الكلام».

«لا تتكل على المنى فإنها بضائع الحمقى».

*****

وصية أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان

وصى أبو بكر رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان حين وجهه لفتح الشام. قال:

(إنى قد وليتك لأبلوك[4]. وأجربك. وأخرجك[5]. فإن أحسنت. رددتك إلى عملك. وزدتك. وإن أسأت عزلتك... فعليك بتقوى الله. فإنه يرى من

---

(١) المعنى: اطلب رأى الشيوخ الذين حنكتهم التجارب فتفاد. ولا تطلب ملازمة ذوى الأوجه الغراء فتصطاد.

(٢) يعنى: من انتظر مكافأة وبدلا على عطيته بادر إلى العطاء وما ذلك بالإحسان.

(٣) لا تتجاوز الحد ولكن معتدلا تنج من كل مكروه.

(٤) لامتحنك وأختبرك. (٥) خرجه: دربه وعلمه.

باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك.

وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له. وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله.. وقد وليتك عمل خالد[١].

فإياك وعُبِّيَّة[٢] الجاهلية. فإن الله يبغضها. ويبغض أهلها. وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم. وابدأهم بالخير. وعدهم إياه.

وإذا وعظتهم فأوجز. فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس... وصل الصلوات لأوقاتها. بإتمام ركوعها وسجودها. والتخشع فيها.

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم. وأقلل لبثهم. حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به. ولا تريثهم[٣] فيروا خللك. ويعلموا علمك... وأنزلهم ثروة[٤] عسكرك. وامنع من قِبَلك من محادثتهم. وكن أنت المتولى لكلامهم... ولا تجعل سرك لعلانيتك. فيختلط أمرك.

وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة. ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك... واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار. وتنكشف عندك الأستار. وأكثر حرسك. وبددهم[٥] فى عسكرك. وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك... فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه. وعاقبه فى غير إفراط.

وعقِّب[٦] بينهم بالليل. واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة. فإنها أيسر لقربها من النهار... ولا تخف من عقوبة المستحق. ولا تلجن[٧] فيها. ولا تسرع إليها. ولا تخذ لها مدقعا[٨] ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده. ولا تجسس

---

(١) خالد بن سعيد بن العاص. وكان أبو بكر سيره إلى الشام أولا ثم عزله.

(٢) العبية: الكبر والفخر. وفى الحديث أن الله قد وضع عنكم عبية الجاهلية يعنى الكبر.

(٣) من الريث وهو الإبطاء.. أى اقض حاجتهم بسرعة.

(٤) الثروة: الكثرة من الناس. (٥) فرقهم.

(٦) عقبه تعقيباً: أى جاء بعده وعقبه. (٧) لا تبالغ.

(٨) لا تخذ: من خذا يخذو كنصر. وخذى يخذى كمرض. إذا استرخى. والمدقع: الملصق بالدقعاء وهى الأرض. أو الهارب. والمعنى لا تضعف أمام تنفيذ العقوبة. وهو مقابل لقوله: ولا تسرع إليها.

عليهم فتفضحهم.

ولا تكشف الناس عن أسرارهم. واكتف بعلانيتهم.. ولا تجالس العباثين[1].. جالس أهل الصدق والوفاء... واصدق اللقاء... ولا تجبن فيجبن الناس... واجتنب الغلول[2]. فإنه يقرب الفقر. ويدفع النصر. وستجدون قوما حبسوا أنفسهم فى الصوامع. فدعهم وما حبسوا أنفسهم له).

التحـليل:

بدأ أبو بكر رضى الله عنه وصيته بتهيئة نفس «يزيد» لقبولها. وذلك بالترغيب والترهيب:

فإن أحسنت.. رددتك.. وزدتك.. وإن أسأت.. عزلتك.

وحين يجمع بين العنصرين فإنه يبدأ بالترغيب تأسياً بكتاب الله عز وجل.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[الحجر: ٤٩-٥٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[الإسراء: ٧].

واتباعاً أيضاً لسنة نبيه ﷺ الذى كان يجمع بين الترغيب والترهيب فيما مر بك من خطبه ﷺ - احتواء للإنسان. ودفعاً به إلى الالتزام.

وربما غلبت «يزيد» نفسه يوما فحدثته بأنه من بيت أصيل فاتخذ من الغرور مركباً.. ومن هنا يلفت الخليفة نظره إلى أن التقوى هى المقياس.. بين الناس..

ثم حذره من نزعة الجاهلية المقيتة.. مذكراً إياه بأنه يجىء خلفاً لخالد بن سعيد.. القائد المعزول.. وما يفرضه من حذر بالغ مخافة أن لا يملأ الفراغ.

وشرع أبو بكر يحدد صلته.. بجنده.. ثم صلته بعدوه بعد تحديد صلته بربه سبحانه عن طريق تقواه..

أما صلته بجنده: فعليه أن يحسن صحبتهم.. فاتحا أمامهم أبواب الأمل.. ساعياً فى تحقيق هذه الآمال ما استطاع إليها سبيلا. وإذا كان ولابد من الكلام

(١) من عبث كفرح. أى: لعب

(٢) الخيانة.

فليكن وجيزا . .

أولا : لأن كثير الكلام يزحم الذهن فلا يستطيع التركيز .

إن الظروف عسكرية . . فهى حاسمة . . فالوعظ الموجز : حاسم . . دافع للشهادة . . أما الكلام المسهب . فقد يطفئ شعلة الحماس بعد توقدها فى قلوب الجنود . . من طول ما استراحت بعد الاستماع إلى الحديث الطويل!! . . الكلمة اليوم للسنان . . وليست للسان .

وإذا كان ولابد من موعظة فكن قدوة حسنة لهم . . لينسجوا على منوالك . . وأصلح نفسك . . مهتما بالصلاة الكاملة . . وهى أعلى صور الالتزام . . وصلتها بالحياة العسكرية وثيقة . .

أما بالنسبة للعدو :

فإذا وصل رسله . . فتذكر أنهم صفوة مختارة من قبل الأعداء وكلت إليهم مهمة . . فاحذر من ذكائهم . . وأقلل مدة لبثهم فى عسكرك قبل أن يأخذوا فكرة عنه . . تنكشف بها زواياه .

وليكن دخولهم من ناحية يرون فيها عدتك وجمهرة عسكرك لينقلوا صورة معبرة إلى قوادهم الذين يتأثرون إعلامياً بما سمعوا . فلا يبدأون بالعدوان إلا بعد تفكير وروية وحساب . . . على أن تكون محادثة رسل عدوك لك أنت . . توحيداً للكلمة وفراراً من التورط فيما لا تحمد عقباه . .

ولا تحاول أن تستقى الأخبار مباشرة أو مواجهة لأنك بهذه الطريقة لا تحصل على الحقيقة!

وإنما . . فى جلسة سمر عادية . . تستطيع أن تسمع كلمة عابر من هنا وهناك تفهم منها مجريات الأمور . . دون أن يعلم الجند أنك تتجسس عليهم . وتتبع عوراتهم . حتى تبقى الصلة وثقى بين القيادة والجند . . ولابد من حرس يراقب . . شريطة أن يوزعوا على كل جوانب المعسكر حذر المفاجأة . . . ومتابعتهم أمر تفرضه اليقظة الدائمة . . ومخافة الغارة من قبل العدو . . فإذا غفل جندى فلابد من العقاب : بشرط ألا تسرع إليه . . وألا تبالغ فيه . . وإنما هى الحكمة القاضية

بالتوسط حفاظاً على ولاء الجندى المخطئ.. الذى يحتفظ للقائد بالاحترام إن لم يساعده قلبه على حبه!

وليظل قائداً مهيب الجانب لابد أن يختار مجلسه من العقلاء الجادين.. وحين يحتدم القتال لابد أن يكون أمامهم.. ورائدهم الذى لا يكذب أهله.

ويثبت الخليفة عملياً أن الإسلام دين سلام.. غير متعطش إلى الدماء.. بل إنه ليحافظ عليها حتى ولو كانت دماء أعدائه.. وكما حذره من الكبرياء أولا.. يحذره من الخيانة - الغلول - أخيرا.. سدا لمنافذ الهزيمة.. وتطهيرا للجيش من جراثيم الفتنة.

وإذا كان قد أوصى من قبل أن يكرم رسل الأعداء حين يصلون إليه.. فإنه يستثنى من المقاتلة العباد فى الصوامع..

إن هؤلاء لم يحملوا سلاحاً.. فلا داعى لمواجهتهم بالسلاح.. ومعركتنا معهم فكرية عقلية.. وتلك هى مهمة الدعاة الذين يجلون حقائق الإسلام.. ويواجهون الفكرة بالفكرة والرأى بالرأى.

*****

من خطب عمر رضى الله عنه

[١]

(أيها الناس: اتقوا الله فى أنفسكم. وفيما غاب عن الناس من أمركم.. فقد ابتليت بكم. وابتليتم بى.

فلا أدرى: السُخْطة[١] علىّ دونكم.. أو عليكم دونى؟ أو قد عمَّتنى. وعمَّتكم؟

فهلموا فلندع الله يصلح قلوبنا. ويرحمنا ويرفع عنا المَحْل][٢].

يقول الراوى: رئى عمر يومئذ رافعا يديه يدعو. ودعا الناس. وبكى وبكى الناس مليا [طويلا].

تمهيد:

فى السنة الثامنة عشر للهجرة.. توقف المطر.. فيبست الأرض.. وغلت الأسعار. لندرة السلع. إلى الحد الذى رحل فيه أهل البدو.. ليقيموا فى أطراف المدن.. بحثا عن الزاد. وكان أكثر الناس هما هو: عمر رضى الله عنه.

فماذا فعل تعبيرا عن هذا الهم الأكبر؟

١ ـ لم يبحث عن أسباب القحط خارج النفوس.. وإنما هى النظرة الموضوعية الباحثة عن أسباب الشدة فى قلوب الناس.

٢ ـ فخشى رضى الله عنه أن تكون هناك معاص ارتكبت فكان الجدب نتيجة طبيعية لها..

٣ ـ ولم يشأ أن يبرئ نفسه من ارتكاب المعاصى.. وإنما بدأ بنفسه فى قوله: السخطة علىّ دونكم.

---

(١) الأصح سخَط. ويجوز سُخط.

(٢) الطبقات الكبرى جـ٣/ ٣٢٢.

[والنقول فى هذه الفقره من كتاب «خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للدكتور محمد أحمد عاشور].

(١) فى عام الرمادة أيضا.

وعندما يبدأ الخطيب بنفسه فإنه ينصف المستمعين الذين يستمعون عندئذ إلى خطيب لا يكلمهم.. من فوق.. بريئا من العيوب.. بينما هم المخطئون. لكنه يتهم نفسه أولا.. ضمانا لكسب ثقتهم.

٤ ـ ثم كان العلاج.. علاج الظاهرة على النحو التالى:

أ ـ الأمر بالتقوى.. فإنها رأس الأمر كله.. فإذا كان السلطان فى الجاهلية.. ناشئا عن الرئاسة.. ثم كان فى الإسلام بسبب الولاية. فخير من الاثنين: التقوى..

ب ـ ثم الدعوة إلى اللجوء إلى الله تعالى فى محاولة للصلح معه سبحانه.. فإن صدق الدعاء.. تنزلت رحمات الله تعالى.. وأصبحت الأرض مخضرة.

٥ ـ والخطيب هنا ليس فقط: يعرف ما ينبغى أن يقال.. ولكنه يضيف إلى ذلك: أنه يقول كما ينبغى!

فلا يتملق الجماهير بالوعود المعسولة. والمنطق الخالب.. ولكنها الواقعية التى تأخذ بنواصى الأمة إلى موطن الداء.. ليكون الشفاء.

٦ ـ ولا يتم الشفاء إلا بأن يبحث كل فرد.. داخل نفسه عن معاصيه التى غابت عن الناس. ليتخلص منها أولا..

*****

[٢]

وفى موقف آخر[١] . . خطب فى الناس فقال والعباس فى يده:

[أيها الناس: استغفروا ربكم إنه كان غفارا.

اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك، ثم أخذ بيد العباس قائلا: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا محمد ﷺ. فتسقينا.

اللهم إنا نتوسل إليك بعمّ نبيك وبغية آبائه. وكبار رجاله. فإنك تقول وقولك الحق .

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكانت تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا..﴾ فحفظتهما لصلاح أبيهما. . فاحفظ اللهم نبيك فى عمه.

اللهم اغفر لنا إنك كنت غفارا.

اللهم أنت الراعى لا تهمل الضالة. ولا تترع الكسيرة. .

اللهم قد ضَرَع الصغير. ورق الكبير. وارتفعت الشكوى. وأنت تعلم السر وأخفى.

اللهم أغثهم بغياثك. قبل أن يقنطوا فيهلكوا. فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون][٢].

التحليل

١ ـ استصحاب الصالحين. . وبخاصة من أهل بيت رسول الله ﷺ. . سبب من أسباب الفرج.

٢ ـ وإنما اختار العباس رضى الله عنه:

أ ـ لتقواه.

---

(٢) العقد الفريد جـ٤/ ٦٤، ٦٥.

ب - وقرابته لرسول الله ﷺ.

٣ - لم يطلب المطر ابتداء.. وإنما كان لابد من حملة تطهير من داخل النفس.. تستنزل بها الأمة المطر.. من أجل ذلك طلب المغفرة.. وعزم على التوبة سبيلا إلى الوابل الصيب!

٤ - تذكير الناس بنعمة الرعاية الإلهية المنبثة دلائلها فى الأنفس والآفاق.

٥ - الإلحاح فى التضرع والرجاء.. من أجل الرخاء.. ثم الشفقة على الأمة ليغيثها ربها تعالى قبل أن يحل بها اليأس.. فتردى.

*****

الخطيب يخطب فى نفسه

كان عمر رضى الله عنه.. يعظ نفسه قبل أن يعظ الناس.. ويخطب فى نفسه قبل أن يخطب فيهم!.. فيما يشبه النقد الذاتى واللاذع.. المعترف بعيب نفسه.. حتى لا يبقى لأحد عذر فى محاولة التخلص من عيوبه أسوة بحاكمه..

صعد المنبر يوما.. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس إنى داع فأمّنوا اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخره.

وارزقنى الشدة والغلظة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم. ولا اعتداء عليهم.

اللهم ارزقنى خفض الجناح. ولين الجانب للمؤمنين.

اللهم إنى شحيح فسخّنى فى نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير.. ولا رياء ولا سمعه واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخره.

*****

وحين يغمض الإنسان عينيه فى محاولة لتصور بعض خصائص الخطيب المؤثر.. من خلال هذه النقول.. فإنه يخرج بمجموعة من الخصائص تبصرة وذكرى لكل راغب فى تحمل أعباء مواجهة الناس:

ومن هذه الخصائص:

١ - الإخلاص.. فما خرج من القلب استقر فى القلب.. أى أن حصاد الخطبة لم يذهب سدى.. وإنما صار فى القلب مشاعر.. وفى العروق دما.

٢ - الصدق.. ضمانا لثقة المستمعين الذين لا يتابعون.. بل لا يتبعون إلا من وثقوا به.

٣ - تجنب التكلف.. والتزام البساطة.. لأن التكلف دليل النفاق.

٤ - التواضع.. ضمانا للإقبال على المتحدث أولا ثم قبول أفكاره ثانيا.

٥ - عدم تملق الجماهير.. والفرار من أن نجعل لهم النهر عسلا.. وإنما مواجتهم بالحق وإن كان مرا.

٦ - الزهد فى الدنيا.. فالناس لا يغريهم الكلام ما لم يكن صادرا من قلب زاهد عابد.. يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.. جاعلا الدنيا فى يده.. لا فى قلبه.

٧ - لابد من ربط المستمع بالله تعالى.. ليظل هذا الارتباط مدده.. كلما وهن وكلما نزغه من الشيطان نزغ.. ثم إثارة ملكة التفكير لديه.. لتتحرك.. حركة مباركة.. باحثة عن الخلاص.. فرارا من الشيطان الرجيم.. ثم ليزودها التفكير بقيم الخير والكمال.

إن التفكر فى مظاهر القدرة.. يزود المسلم بالخشية.. والتفكر فى النعم.. يمنحك الحب..والتفكر فى الطاعة.. يعين على مزيد منها..والتفكر فى العقاب.. يحملك على الفرار من أسبابه... والتفكر فى الإحسان.. يمدك

بالحياء من استمرار إحسانه تعالى إليك.. ثم استمرار عصيانك.

وعلى تعدد مواطن الأسوة فى شخصية عمر رضى الله عنه.. إلا أن موطن الأسوة فيه للخطباء ظاهر للعيان.. لا من حيث بلاغة أسلوبه.. وإيجازه.. ووضوحه.. ولكن من حيث كان دليلا على طريق الخطيب يؤكد له إلى أى حد كان مُهمّا أن يكون الخطيب عميق التجربة.. واسع الثقافة.. له «حضور» دائم فى البيئة التى يعيش فيها: يختلط بالناس.. ويتسمع أنينهم.. ويرتاد لهم.. وهو فرطهم على طريق الخير دائما.. ولقد كان لعمر رضى الله عنه قصب السبق فى هذا المضمار:

من حيث ثقافته الواسعة

فى جوانب الحياة الاجتماعية. والاقتصادية فضلا عن ثقافته الدينية.

ثقافته الاجتماعية:

من وصاياه رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه:

«مر ذوى القرابات أن يتزاوروا. ولا يتجاوروا».

إن التحاسد بين الأقارب وارد.. والتنافس بينهم شديد.. ومضاعفات ذلك.. أشد.. وفرارا من الصدام المتوقع.. يوصى بالتباعد بين دورهم.. ليظل الود قائما[1].

ثقافتة الاقتصادية:

خطب رضى الله عنه يوما فقال:

يا أيها الناس: لا تأكلوا البيض.. فإن أحدكم يأكل البيضة أكلةً واحدة.. فإن حَضَنَها خرجت منها دجاجة.. فباعها بدرهم[2].

إنها الروح الاستثمارية التى تتنامى بها الثروة حين يوازن رب الأسرة بين الاستثمار.. والاستهلاك.. فلا يسرف فى استهلاك ما يمكن أن يكون عطاؤه وافرا.. من أجل شهوة عارضة.. ولا يقصد أمير المؤمنين هنا تحريم ما أحل الله:

(١) العقد الفريد جـ٢/ ٣٢٦.

(٢) نثر الدر جـ٢/ ٦١.

وإنما هو درس فى الاقتصاد الإسلامى يصلح به الخلل الذى تصنعه الأمة بيدها.. ثم تذرف من بعد الدموع أسفا .

وفى موقف آخر يقول: اجعلوا من الرأس رأسين أى ليكن لكم مكان الرأس من الحيوان رأسين؟!!

وهذه الروح نفسها هى التى تشنّ الغارة على البذخ.. والبطنة.. من حيث إنها مدخل إلى الفساد.. حين يؤثر المرء شهوته على دينه..

وذلك قوله رضى الله عنه

[إياكم والبطنه.. فإنها مكْسَلة عن الصلاة. مَفْسدة للجسم... مؤدية إلى السَّقَم.

وعليكم بالقصد فى قُوتكم.. فهو أبعد من السرف. وأصح للبدن. وأقوى على العبادة... وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه][1].

وقد كان صلاح المال فى تقديره راجعا إلى ثلاث: أن يؤخذ من حق. ويعطَى فى حق. ويمنع من باطل...[2].

ثم يوضح كيف كان موقفه هو من المال.. بما ينسجم مع هذه الروح الزاهدة.. وذلك قوله بعدما سبق... ألا وإنما أنا فى مالكم كوالى اليتيم:

إن استغنيت.. استعففت وإن افتقرت.. أكلت بالمعروف: تَقَرُّم[3] البَهْمَة[4]. الأعرابية:

القَضْم.. لا الخَضْم[5]][6].

وهكذا كانت وصاته لعماله: أن يكون الزهد رائدهم.. وأن تظل الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم:

كتب إلى سعد بن أبى وقاص لما استأذنه سعد ـ رضى الله عنه فى بناء بيت له: قال «ابن ما يُكنُّك عن الهواجر وأذى المطر.

(١) نثر الدر جـ٢/ ٣٠. (٢) نثر الدر ٢/ ٣٠. (٣) التقرم الأكل القليل.

(٤) البهمة: ولد الضأن. (٥) القضم: تناول الطعام بطرف الأسنان والخضم: تناوله بالأضراس.

(٦) نثر الدر ٢/ ٣١.

ثقافته الزراعية:

قال رضى الله عنه: لا تُنهكوا وجه الأرض. فإن شَحمتها فى وجهها.

والفلاحون فى القرية يدركون من حكمة عمر رضى الله عنه أن المبالغة فى كشط الأرض.. تؤثر على الزراعة سلبا!!

وقد كان القانون الزراعى مدركا خطر هذا عندما وقف إلى جانب مالك الأرض.. إذا اشتكى من المستأجر الذى أجحف فى كشط الأرض.. وكان الجزاء رادعا.. راجعا بالأرض إلى صاحبها.. فهو أرأف بها!!؟

وكان يوصى الفلاح قائلا: بع حيوانك أحسن ما يكون فى عينك[1].

فإذا تصورنا أن الأمر متجه إلى كل من يمتلك حيوانا.. بان لنا كيف كانت نظرته العميقة. التى لو أخذت حظها من الالتزام لتوفرت لنا ثروة حيوانية تفيض عن حاجتنا!

أما بعد.. فهذا هو عمر رضى الله عنه أسوة الحكام.. وأسوة المحكومين..

والذى شهد له الأعداء بالفضل «والفضل - ما شهدت به الأعداء - ومنهم ثابت ابن قرة الصابئى.. والذى قال:

ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس:

أولهم[2]: عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته. وحذره. وتحفظه ودينه. وصرامته. وشهامته. وقيامته فى صغير أمره وكبيره بنفسه.. مع قريحة صافيه. وعقل وافر. ولسان عَضْب - قاطع كالسيف - وقلب شديد. وطوية مأمونة. وعزيمة مأمومة. وصدر منشرح. وسر طاهر. وتوفيق حاجز. ورأى مصُيب. وأمر عجيب. وشأن غريب. دَعَم الدين وشيّد بنيانه. وأحكم أساسه.. ورفع أركانه. وأوضح حجته. وأنار برهانه. ملك فى زى مسكين. ما غض طرفه على خنا.

ظهارته كالبطانة.. وبطانته كالظهارة.. جرح وأسَا.. ولان وقَسى.. ومنع وأعطى.. كل ذلك فى الله ولله. لقد كان من نوادر الرجال [3].

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٨.

(٢) والثانى والثالث: الحسن البصرى والجاحظ.

(٣) معجم الأدباء جـ ١٦/ ٩٥، ٩٦.

فى صحبة الإمام على

العوامل التى جعلت منه خطيبا مؤثرا:

١ ـ أسلم صبياً. . فلم تدنسه عقائد باطلة مثل أترابه.

٢ ـ تربى فى منزل الوحى. . واستقبل الغيث الطهور ـ فى صحبة مباركة. .

٣ ـ رباه النبى ﷺ بما أوتيه من جوامع الكلم. . وكريم الخصال.

٤ ـ عاش كل أحداث الدعوة. . وخاض غمراتها إلى حد وضع روحه على كفه ليلة الهجرة عندما نام مكان النبى ﷺ.

٥ ـ وإذن فتمرسه بالحوادث أضفى على حديثه صبغة من الجدية والصدق. فإذا تكلم. . لم يكن كلامه عادياً. . وإنما كان له من تجربته وتطبيقه لما يقول مزيد تأثير فى السامعين. . الذين لا يتلقون عنه فقط كلاما. . وإنما تجربة نابضة بالحركة. .

٦ ـ بالإضافة إلى ما زوده الإيمان من معرفة دقيقة بدوافع النفس الإنسانية ورغائبها. . مما ساعده على الضرب فوق وترها الحساس. . فحقق التأثير المطلوب.

يقول الكاتب «إيليا حاوى» فى كتابه «فن الخطابة».

(إن الباعث الأهم لخطب ـ الإمام على رضى الله عنه ـ والمعين الأعمق الذى يغترف منه. . كانت ثقافته الإنسانية العميقة الجذور. التى أوغل فيها. بتقصى أحوال البشر. وواقع النفس. يغذى ذلك ويرفده بما اطلع عليه من أمر الدين وتعاليمه.

وإذا كانت الحلة البلاغية التى تكسو خطبه تحدث الانفعال فى نفس السامع. . فإن ثقافة الإمام. وخبرته العميقة بطبائع النفس البشرية. كانت تعمق هذا الانفعال. وتجعله يقيم فى نفوس الناس متفاعلا فيها.

فخطبة الإمام. . ليست الخطبة الحماسية الفاقدة المضمون. بل إنها الخطبة

الإنسانية التى توضح معاناة الناس لمصائرهم. وترجحهم بين الحق والباطل.. والنصر والهزيمة.. والميل والعقل.. والدين والدنيا.. وما إلى ذلك من ثنائيات نفسية شديدة التوتر.

وقد كان الإمام على بذلك شاهد عصره: تنعكس أزماته وأحداثه فى خطبه. من خلال انعكاسها فى ضمير الخطيب ووقوفه فيها موقف المصارع الشهيد.. الذى تنزف جراح الحق من جبينه. ومن أحشائه الطعينة[1].

ومن هنا تظهر لنا بعض خصائص الإمام على فى فن الخطابة:

١ - يمتاز بحدة الانفعال الذى يندمج فيه موضوع خطبته بذاته.. لأنه جزء من تجربته الشخصية.. أى جزء من حياته.

٢ - وحتى خطبه السياسية فإن من ورائها ذلك الانفعال الصادق الذى يخرج بها عن الأداء الرتيب لتعمل عملها فى تغيير مواقف الناس..

٣ - كان يصدر فى خطبه عن نزعة دينية عميقة الجذور فى نفسه:

وهو بذلك منطقى مع نفسه، وظروفه التى نشأ فيها مع رسول الله ﷺ.. فى مساقط الغيث المبارك الطهور.. فكان ذلك كله زادا من المعانى الحية القدسية.. إلى جانب طبيعته التى تميزت بشدة الإحساس.. والشعور المرهف النافذ إلى دقائق النفس الإنسانية.. وقد نفخ ذلك فى كلماته روح الحياة..

فلم تكن خطبه مجرد كلمات تقف عند حدود المعانى اللغوية الاصطلاحية. بل كانت تستمد من روحه أبعادا أخرى.. فتأخذ طريقها إلى قلوب تتلقى عنه بالإعجاب والتقدير.. على قدر ما أحدث فيها من تأثير.

٤ - وقد تلاحظ فى أسلوبه تكرارا.. ولكنه التكرار المقبول.. وليس هو بالمعنى التقليدى المعروف..إنه يتناول المعنى بألفاظ مختلفة.. يتحقق بها تشريق السامع وإثارته ليستوعب ما يقال..

وأكبر من ذلك: فإنها ألوان من التعبير يحس قائلها أنه ممتلئ الوجدان بعظمة الخالق سبحانه.. فيحاول التعبير عن هذه العظمة.. فينتقل من

(١) فن الخطابة: ١٥٨.

أسلوب إلى أسلوب.. ومن جملة إلى جملة.. لعله يستطيع أن ينقل إحساسه إلى القارئ.. فلا يستطيع هو.. ولا يستطيع اللفظ نقل إحساسه.. كما هو.. ونقول نحن حينئذ: تكر

بيد أنها العظمة تأخذ على النفس أقطارها..

من أجل ذلك يجتهد الخطيب ويتابع المسير.. فيختار من الألفاظ والتراكيب ما يعينه على نقل دلائل هذه العظمة الشاعر بها.

ويظل يجاهد.. وينتقى الجمل.. ويتخير الألفاظ ومع ذلك فلا تستطيع أن تحمل معنى العظمة التى هو ربان بها.

وتعجز الألفاظ عن حمل المعانى..

٥ - المعانى لا تتراكب.. وإنما تتواكب.. فى تسلسل يؤسس السابق فيه للاحق.. وتهيئ الفرصة أمام السامع ليتذوق التعبير.. ويتمثل المعنى.. ويستجيب للنداء.

٦ - لا يصف مجالى الطبيعة حين يصفها كشاعر هائم حالم.. يدغدغ العواطف ويتلاعب بالألفاظ.. ولكن ليصل إلى تأكيد الحقيقة التى يستهدفها من خطبته كلها وهى إفراده الحق سبحانه بالألوهية واختصاصه تعالى بالعبادة.

*****

نموذج من خطبه
رضى الله عنه

الجـهاد!:

مناسبتها:

خذل أهل أهل العراق عليا رضى الله عنه. حين صاروا هدفا يرمى من قبل جنود معاوية إلى درجة أن خيلا لمعاوية أغارت على الأنبار ثم غنمت ورجعت.. بلا مقاومة.. فخطب يقول:

أما بعد: فان الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه... وهو لباس التقوى. ودرع الله الحصينة. وجنته الوثيقة[١] فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل. وشمله البلاء[٢]..ود بالصغار والقماءة[٣] وضرب على قلبه بالأسداد[٤] وأديل[٥] الحق منه بتضييع الجهاد وسيم الخسف ومنع النصف[٦].

ألا وأنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً. وسراً وإعلانا. وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا. فتواكلتم وتخاذلتم. حتى شنت الغارات عليكم. وملكت عليكم الأوطان.

فيا عجبا والله: يميت القلب ويجلب الهم: اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم...فقبحا لكم وترحا[٧] حين صرتم غرضا يرمى: يغار عليكم ولا تغيرون. وتغزون ولا تغزون. ويعصى الله وترضون.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الصيف قلتم: هذه حمارة القيظ. أمهلنا

---

(١) الجنة: الوقاية.
(٢) الشملة: كساء واسع.
(٣) ديث: ذلل. والقماءة الذل.
(٤) الأسداد: الحجب.
(٥) جاوز الحق إلى غيره.
(٦) وحرم من العدل.
(٧) الترح: الحزن.

يذهب عنا الحر.

وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء قلتم هذه صبارة القر[1] أمهلنا ينسلخ عنا البرد.

كل هذا فرارا من الحر والقر. وأنتم والله من السيف أفر... يا أشباه الرجال. ولا رجال. حلوم[2] أطفال. وعقول ربات الحجال[3]. لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم. معرفة والله جرت ندما. وأعقبت شذما!!

قاتلكم الله!...لقد ملأتم قلبى قيحا. وشحنتم صدرى ندما. وجرّعتمونى نغب[4] التهام أنفاسا وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان. حتى قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم!

وهل أحد منهم أشد لها مراسا[5] وأقدم فيها مقاما منى؟

لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين.. وهأنا قد ذرفت[6] على الستين. ولكن لا رأى لمن لا يطاع.

أفكار الخطبة:

١ ـ وصف الجهاد بأنه باب إلى الجنة.. ثم إنه مفتوح للخواص. الذين تحملهم التقوى على خوض غمراته. حماية لبيضة الإسلام.

٢ ـ ولأنه كذلك تشتد حملته على الذين تركوه وراءهم ظهرياً وآثروا الذلة على العزة.

٣ ـ ثم يشد للنكير على قومه الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف إيثاراً للراحة ورضا بالتبعية.

٤ ـ وتعلو نبرة العتاب... فتتحول إلى غضب عليهم حين تقاعسوا فعرضوه معهم للقيل والقال.

---

(١) البرد. (٢) عقول. (٣) المراد النساء.

(٤) الهم والأسف. النغب جمع نغبة وهى الجرعة. والتهام الهم الكثير.

(٥) مراسا: مزاولة.

(٦) ذرفت: جاوزت وتخطيت.

العرض:

١ - بدأ بالترغيب فى الجهاد بجعله بابا إلى جنة يرغب فيها المؤمنون.

٢ - ثم انتقل إلى الترهيب فى قوله: فمن تركه.....

٣ - وحان الوقت ليعرض قضيته معهم إذ خذلوه ساعة دعاهم إلى امتلاك زمام المبادرة حيال عدوهم.. ولكن هيهات..

٤ - ثم تحمى باشتعال الموقف عندما أعلنها عليهم ثورة جامحة تبدأ بإعلان استيائه.. ثم بإظهار عجبه من تخاذلهم وتبلغ الثورة ذروتها بهذه المفارقات حيث تفرقوا عن حقهم.. فى الوقت الذى اجتمع فيه المبطلون على.. باطلهم!

وأنهم لم يكتفوا بتقاعسهم عن الغزو.. بل إنهم يستهدفون بالعدوان ولا يفكرون فى رده!.. لا سيما وهم عرب ترفض نخوة العروبة عليهم ذلك المسلك المعيب..

٥ - أى أنه بذلك العرض الدقيق يستثير فيهم غريزة المقاتلة ليصحوا بعد رقاد.. وينشطوا بعد خمول.. ولم يكن غضبه جامحاً يريد به قتل نفوسهم.. بل إنه بما بسط من قول.. وما كشف من خفايا النفوس يريد لهم أن يجددوا حياتهم..ليأخذوا لهم مكانا تحت الشمس.. ولا يصبحون هكذا.. هدفا لكل رام.. وحظيرة من غير باب..

[من سنن الله تعالى فى الاجتماع]

[من نظر فى عيب نفسه. اشتغل عن عيب غيره... ومن رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته.

ومن سل سيف البغى قتل به...ومن كابد الأمور عطب... ومن اقتحم اللجج غرق.

ومن دخل مداخل السوء اتهم...ومن كثر كلامه كثر خطؤه... ومن كثر خطؤه قل حياؤه.. ومن قل حياؤه قل ورعه..ومن قل ورعه مات قلبه..ومن

مات قلبه دخل النار.

ومن نظر فى عيوب الناس فأنكرها. ثم رضيها لنفسه.. فذاك الأحمق بعينه.. ومن أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير.. ومن علم أن كلامه من عمله. قل كلامه فيما لا يعنيه][1].

التحليل:

تمثل هذه النصائح علامات تضىء الطريق أمام السالكين.. ينظمها رضى الله عنه فى سلك واحد.. وكأنما هو طبيب خبير بخفايا النفوس.. وأمراضها. ومن ثم فهو يطب لها.. بهذه الحكم البالغة.. لمن شاء أن يتخذ إلى الفلاح سبيلا.

إنه يلفت نظر المشغول بعيوب غيره.. إلى أن ذلك مفض به إلى الغفلة عن عيوبه هو.. فسوف تتراكم بل وتتضخم.. دون أن يحاول إصلاحها. لأنه لا يذكرها.. ولو كان يحب نفسه فعلا.. لا ينفق هذا الوقت المبذول فى متابعة الآخرين.. بل ليصلح فيه عيوبه.. فنفسه أولى بالإصلاح..

ولا يخفى أن تسقط عيوب الآخرين علامة ـ مع ما سبق ـ على شهوة نفسية فى تحطيم الآخرين يفرض عليه إيمانه أن يبرأ منها.. ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه.

ثم يمضى الإمام بالمسلم خطوة أخرى على طريق الكمال.. ليساعده على التخفف من أحماله الثقال.. والمنبعثة من نفسه الأمارة بالسوء: إنه يقول له: «من رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته» وكيف يتم ذلك؟

إن ما فاتك مما تحسبه رزقاً لك.. قد حبسه الله تعالى عنك.. لواحد من سببين:

١ ـ إما لأنه سبحانه وتعالى صرفه عنك وقاية لنفسك من فساد قد يأتيك من قبله كالغرور أو التسلط مثلا..

٢ ـ أو لأن مواهبك وقدراتك غير مرشحة لتحمل أعباء هذا الرزق الذى ستحاول تحصيله فلا تستطيع.. ومن ثم تأسف عليه.

(١) وجدت هذه الحكم منسوبة للإمام على رضى الله عنه. فى مجلة الأزهر مع تعليق بسطناه وأضفنا إليه.

فالإمام يدلك على طريق يفرُّ بك من الحزن القاتل على شيء ليس من رزقك ابتداء.. وكيف تحزن على شيء لم يقدره ربك لك؟!

ثم يخاطب الإنسان الباغي بما يردعه عن عدوانه. في محاولة لإلزام كلمة الحق.. فالباغي من الذين يحادون الله.. ويحاربونه تعالى عن ذلك.. وإذن.. فلن ينجو من الدمار ذلك الذى تسول له نفسه أن يحارب الخالق القاهر سبحانه: ﴿والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾

وإنه ليكشف النقاب عن سنة من سننه تعالى في الاجتماع البشرى: (من كابد الأمور عطب).

إن الذين يرخون لآمالهم الخيال.. ويتعرضون لأمور فوق طاقتهم سوف يكون الفشل نصيبهم.. فالمفروض على المرء إذا أراد أمرا أن يتذرع بما يلى:

١ ـ أن تكون لديه الطاقة اللازمة لإنجاز أمله.

٢ ـ أن يتخذ الوسائل الكفيلة بالوصول إليه.

وكل من يهمل الأمرين كليهما أو أحدهما فلن يصيبه إلا العطب لأنه لم يمض في اتجاه سنة الله تعالى في الاجتماع.. فسقط قبل أن يصل. ثم يضرب على ذلك مثلا:

فمن اقتحم اللجج غرق...لماذا؟

إنه كيان ضئيل هزيل.. يرمى بنفسه بلا تفكير في العواقب وسط أمواج كالجبال.. وحينئذ سيحدث ما يلى:

١ ـ لن يجد إنسانا ينقذه.

٢ ـ ولا شاطئا يستقر عليه.

٣ ـ وسوف تنهار في النهاية قواه.

ثم يقدم للمسلم من تجربته ما ينجو به من مواطن السوء.. فقد يكون المسلم طاهر الذيل عفيف النفس.. لكن ذلك لا يكفى وحده لكسب حب الناس واحترامهم..

ولابد أن يضيف إلى ذلك إعلان براءته من الأشرار.. قرناء السوء..

أما أن يكون طاهرا.. ثم يتعرض لهذه المواطن.. فلا يلومن إلا نفسه لو أصابه من رذاذها..

وتلاحظ أن الإمام. وهو سائر بنا على طريق الإصلاح يدلنا فيما يدل على المنعطفات الخطرة فى رحلة حياتنا. مركزا على المزالق التى قد تهوى به فى مدارك الرذيلة.

ومن بين هذه المزالق: كثرة الكلام: فالثرثار مدفوع بغريزة حب الاستطلاع ليكون كحاطب ليل.. يجمع الأخبار من المصادر الموثوق بها والمشكوك فيها..

ثم لا يكلف نفسه مؤونة غربلتها.. ليميز خبيثها من طيبها.. ثم يعلن ذلك كله بلا تحفظ. وإنه ليعرف بذلك فى بيئته التى يعيش فيها.. وربما يكذب.. فيقال: لا غرابة فى ذلك فالكذب من معدنه لا يستغرب!

وهكذا يقل حياؤه.. وبالتالى ينضب معين الورع فى قلبه.. لأن الورع فضيلة مانعة من الخبط والسير فى الأرض على غير هدى.. وهذا - بمرور الأيام - سائر بقلبه إلى الموت. لأن القلب الذى تعود الكذب.. بل واستمرأه ستغيض طاقة الحيوية فيه.. وتنطمس طاقة النور فيه فلا يرى صاحبه الحق حقاً ولا الباطل باطلا.. **﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾**.

وقل لى بربك. ماذا يبقى للإنسان إذا مات قلبه.. إنه شقى فى الدنيا بفقدانه عينه الباصرة المميزة.. وإنه لخاسر فى الآخرة.. لأنه يذهب إلى ربه بلا رصيد يثاب عليه. **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**.

ثم يهدى إلينا الإمام عيبا من عيوبنا بغية التخلص منه.. إنه ليركز أبصارنا على نقاط من الضعف فينا لنبدأ التخلى عنها.. وعلى رأس هذه العيوب:

أن بعض الناس يوهمون غيرهم بأنهم براء من تهم الآخرين.. ولذلك تراهم يكثرون الحديث عنها.. سترا لأخطائهم من نفس النوع.. فكانوا مثل الذى يترك داره تحترق.. بينما يشغل نفسه بالحريق يلتهم دار جاره!

فلِمَ يحرم على الآخرين شيئاً ويحله لنفسه؟

وإذا كان جاداً فى نقد الآخرين.. لبدأ بنفسه.. ومنها يبد العلاج! ويختم نصائحه بلفت الأنظار إلى علاج أدوائنا فى حياتنا:

إنه الإكثار من ذكر الموت. وليس المراد الفرار من الحياة والزهد فيما أفاءه الله علينا من رزق حلال.. ولكن المراد أن يظل الموت ضابطاً يقيد خطانا حتى لا نسرف. ولا نظلم.. ولا نتصارع.. انتظاراً ليوم الوداع.. ثم الحساب.

وفى النهاية يقدم لنا علاج الثرثرة لنبرأ من كل مضاعفاتها السابقة.. (من علم أن كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه). ذلك بأن الإنسان حريص على مصلحته.. ولو علم أن كلامه محسوب عليه.. وموزون فى ميزانه يوم الحساب.. لحمله ذلك على الاقتصاد فيه.

خطبة الأحنف بن قيس بين يدى عمر:

وفد أهل البصرة على عمر رضى الله عنه. وفيهم الأحنف بن قيس. فقال: [يا أمير المؤمنين: إن مفاتيح الخير بيد الله. وقد أتت وفود أهل العراق. وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر، نزلوا منازل الأمم الخالية. والملوك الجبابرة. ومنازل كسرى وقيصر وبنى الأصفر... فهم من المياة العذبة، والجنان المخصبة فى مثل حوَلاء السَّلى[1]. وحدقة البعير... تأتيهم ثمارهم غضة قبل أن تتغير. وإنا نزلنا بأرض نشاشة[2] طرف فى فلاة. وطرف فى ملح أجاج[3].

جانب منها منابت للقصب. وجانب سبخه[4] نشاشة. لا يجف ترابها. ولا ينبت مرعاها. تأتينا منافعها فى مثل مرىء النعامة.

يخرج الرجل الضعيف منا. يستعذب[5] الماء من فرسخين. وتخرج المرأة بمثل ذلك. ترنق[6] ولدها ترنيق العنز، تخاف عليه العدو والسبع. فإن لا ترفع خسيستنا[7]. وتنعش ركيستنا[8] وتجبر فاقتنا. وتزد فى عيالنا عيالا.. وفى رجالنا

(١) الحولاء: جلدة خضراء فيها ماء تخرج مع الولد عند ولادته. والسلى: الجلدة فيها الولد والمراد: الخصب والخضرة وكثرة الماء.

(٢) نشاشة: ترشح الماء. (يقال نش الغدير ينشى نشيشاً أخذ ماؤه فى (النضوب).   (٣) أجاج: مر.

(٤) سبخة: ملحة (والسبخة النشاشة: هو ما يظهر من ماء السباخ فينش فيها حتى يعود ملحا).

(٥) يطلب الماء العذب.   (٦) ترنق: تديم النظر.

(٧) الخسيسة: الحال السيئة.   (٨) الركيسة: الحال المقلوبة.

رجالا. وتصفر درهمنا[1]. وتكبر قفيزنا[2] وتأمر لنا بحفز نهر نستعذب به الماء. هلكنا][3].

التحليل:

لا يتحدث الخطيب إلى عقول الناس فحسب. بل إنه يحاول أن ينفذ كذلك إلى عواطفهم فيهزها. ثم إلى إراداتهم لتنهض وتنفذ ما استجابت له العاطفة.

وكذلك فعل الأحنف بن قيس فى خطبته هذه فنجح فى إقناع عمر رضى الله عنه بعدالة قضيته وبالتالى استماله فحقق له أمله:

(وما الإقناع إلا صرف ذهن الجمهور إلى تقبل ما يقال. والسكون إليه. وإشباع عواطفه. وإرضاء عقله بالحجة والبرهان.

وما الاستمالة إلا كسب تأييد هذا الجمهور للقضية المعروضة. واستجابته لما يراد منه)[4].

خاطب الأحنف الخليفة قائلا: يا أمير المؤمنين.. ولم يقل: يا عمر.. تقديراً له.. ثم تذكيراً بمسؤولية الإمارة وما تفرضه على صاحبها من تحقيق آمال الأمة.

ثم استهل الخطبة برجع كل خير إلى الله وحده: إن مفاتيح الخير بيد الله..

وبذلك تجنب النفاق والتزلف مع حاجته الملحة إلى تحقيق رغبته. وأين هذا من شعراء بالغوا فى تقدير الممدوح إلى حد خرجوا به عن الدين في مثل قول بعضهم:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

ثم..

وأخفت أهل الشرك حتى أنه   لتخافك النطف التى لم تخلق

وإذا كان العدل مفتاح شخصية الخليفة. فقد أداره الخطيب بحكمة ليحرك

---

(١) أى تقلبه إلى دينار أصفر. والمراد زيادة المعونة.
(٢) القفيز: المكيال. والمراد تحسين الحال.
(٣) العقد الفريد: ١ ـ ١١٦.
(٤) علم الأدب: ٢ ـ ٦.

عمر إلى ما يريد حين قارن بين حظه وحظ زملائه سكان الأمصار الأخرى. مما يتقاضى الخليفة حفظ التوازن ليكون مع زملائه سواء.

وتمكينا لهذا المعنى فى عقله يصوغه فى أسلوب جميل أخاذ.. يشتمل على صور من البيان. من شأنها كسب عقل المستمع ليتخذ قراره بعد ذلك.

وتسعف الأحنف لباقته حين يتجه إلى قلب عمر ـ بعد عقله ـ فيهزه بقوة.. وذلك حين يعرض صورة الرجل الضعيف يبحث عن الماء.

وليس هذا فحسب. بل تخرج المرأة كذلك فى حالة من التمزق بين وليدها التى تخاف عليه.. وحاجتها إلى الماء حفاظاً على حياته وحياتها.

ويبلغ الحديث مداه فتعلو النبرة. وتظهر الحاجة إلى تحسين الأوضاع فرارا من العواقب الوخيمة التى قد تكون ضياع الناس جميعاً..

وهنا تبلغ الخطبة أجلها.. وتحقق غرضها باستجابة عمر الله عنه وإعجابه بالأحنف بن قيس واصفاً إياه بالسيد.. شهادة يعتز بها. ويعتز كل خطيب ملك ناصية القول.. فخاطب فى الناس عقولهم وقلوبهم.. فى وعاء من البيان يصل بالقائل إلى ما يريد.

خطبة درواس بن حبيب:

قحطت البادية أيام هشام بن عبد الملك، فقدمت القبائل إلى هشام، ودخلوا عليه، وفيهم «درواس بن حبيب» وعمره أربع عشرة سنة..فأحجم القوم، وهابوا هشاما.

ووقعت عين هشام على «درواس» فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاء أحد أن يصل إلى ... إلا وصل؟! حتى الصبيان؟!

فعلم درواس أنه يريده، فقال: يا أمير المؤمنين: إن دخولى لم يخل بك شيئاً، ولقد شرفنى... وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه، وأن الكلام نشر. والسكوت طى، ولا يعرف الكلام إلا بنشره.

فقال هشام: فانشر لا أبالك!! وأعجبه كلامه، (وشجاعته أيضاً).

فقال: يا أمير المؤمنين: أصابتنا ثلاث سنين: فسنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة نقت العظم.

وفى أيديكم فضول أموال... إن كانت لله ففرقوها على عباد الله المستحقين لها.. وإن كانت لعباد الله.. فلم تحبسونها عنهم؟.. وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزى المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين.

واعلم يا أمير المؤمنين: إن الوالى من الرعية كالروح من الجسد. لا حياة للجسد إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذرا.

وأمر أن يقسم فى باديته مائة ألف درهم، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم.

فقال: يا أمير المؤمنين: أرددها إلى عطية أهل باديتى، فإنه أكره أن يعجز ما أمر لهم به يا أمير المؤمنين عن كفايتهم.

فقال: فمالك من حاجة تذكرها لنفسك؟

قال: مالى من حاجة دون عامة المسلمين].

التحليل:

أن تتعرض أمة لأزمة اقتصادية.. فهذا أمر طبيعى.. ولكن.. كيف نواجهها؟ كيف نعين الحاكم على حلها؟

تلك هى القضية... وهل يكون دورنا صراخاً فى وجهه؟

أو انضماماً إلى شلة المتباكين فى مظاهرات تجرح.. لا تقترح.. أو ننسحب من الساحة فى عزلة تترك الملك للمالك؟

أم إن دورنا الإيجابى يفرض علينا حكمة تضىء للحاكم طريقه الواصل بنا وبه إلى قرار؟

ذلك ما اختاره الفتى «درواس بن حبيب» صاحب الأربعة عشر ربيعاً عندما أخذت الأزمة الاقتصادية بخناق البادية فى عهد هشام بن عبد الملك...

لقد استبعد كل الاحتمالات الثلاثة.. وقرر أن ينضم إلى وفد الرجال الذاهب إلى الخليفة فى محاولة للخروج من عنق الزجاجة!

[الامتحان الصعب]

وقعت عين الخليفة على «درواس» فاستصغره، وقال لحاجبه:

ما يشاء أحد أن يصل إلى.. إلا وصل.. حتى الصبيان؟

وشحذ الفتى أسلحته فى معركة حياة أو موت:

أسلحة: من ذكاء: اكتشف به أن الخليفة يعنيه..

ومن شجاعة أدبية: ربطت على قلبه الغض.. فتكلم هو بينما الكبار صامتون.. وحين حاور الخليفة ثابت الجنان فى موقف تزل فيه الأقدام..

ثم.. حكمة بالغة.. بلغ بها مكان الإقناع فى قلب الخليفة:

قرر أولا أن يستأذن الخليفة حتى يسمح له بالدخول فى دائرة اهتمامه، ويأذن له بالكلام، وذلك قوله: [يا أمير المؤمنين: إن دخولى لم يخل بك شيئاً.. ولقد شرفتى.

وأن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه، وأن الكلام نشر والسكوت طى، ولا يعرف الكلام إلا بنشره].

ولما سمح له الخليفة بالكلام، إعجاباً به.. تقدم الفتى الصغير خطوة تالية.. ليلتقى مع الخليفة ـ وبمشهد الكبار ـ على محورين:

محور القلب: والذى استعطفه بما يثير حماسه:

أصابنا ثلاث سنين: فسنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة نقت العظم..].

وكانت الحركة الأخيرة محاولة تطويق العقل بأسئلة ثلاث حاصر بها الخليفة من كل الجهات فلم يفلت منها معترفاً بذلك!!

قال الفتى: [وفى أيديكم فضول أموال:

إن كانت لله.. ففرقوها على عباد الله...وإن كانت لعباد الله فلم تحبسونها عنهم؟..وإن كانت لكم.. فتصدقوا بها عليهم!

ثم توج كله بمنطقه القرآنى الآخذ فى قوله: (إن الله يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين).

الكلمة الطيبة تحقق أغراضها:

إنها خطبة موجزة. ـ فلم يكن الموقف ليتحمل الإسهاب.. لا سيما والفتى الصغير حديث عهده بالخليفة.. ثم إنها أبقى وأعمق أثرا.. وقد استجاب الخليفة.. وأمر بصرف إعانة عاجلة: مائة ألف درهم.. وأمر للفتى «درواس» بمائة ألف.. تقديراً له.

الانتماء فى قمته:

ويتوج الفتى سجاياه برأس الفضائل كلها: الإيثار. فى قوله رافضاً الاستئثار بشىء دون قومه.

[ارددها إلى عطية أهل باديتى، فإنى أكره أن يعجز ما أمرت به عن كفايتهم].

وحقق بذلك أعلى مستويات الانتماء لأمته بالإيثار الذى حقق به المجتمع الأول أعظم انتصاراته.

وعندما تساءل الخليفة متعجباً من أمر صغير لا يرغب فى شىء بخصه وقال:

(أما لك من حاجة تطلبها لنفسك؟..قال: مالى من حاجة دون عامة المسلمين).

[الحاكم.. والمحكوم..]

وتبدو صورة الحاكم والمحكوم فى أعلى مستوى:

حاكم: يستجيب لآمال أمته.. ويفتح لها قلبه وعقله.. ويشجع النابهين فيها ليأخذوا سمتهم إلى قمة المسؤولية.

ومحكوم: يمارس أعلى أنماط الديمقراطية.. وفى مواجهة الحاكم.

إنه يحس بآلام أمته.. ثم يعبر عنها بلا خوف.. وبلا تجريح كذلك!.. وبلا عنف ولا دماء!.

وما أسعد الأمة بشباب يعكسون آمال أمتهم.. فى هدوء.. وتحت الشمس، وإن لهم فى درواس أسوة:

لقد قال كلمته.. ورفض جائزته.. وكان يشرفه أن يعود بها مزهوا على رفاقه الصغار!

والذى يرفض الهبة الشرعية أشد رفضاً للاختلاس وإيذاء الناس..

وإذا كنا سعداء بدرواس ومن سار على دربه.. فنحن أسعد بحاكم يصوغ بحكمته.. وحنكته أمثاله وأمثاله..

ولن يكون ذلك إلا باستشعار هذا الماضى التليد.. ثم تمثله من جديد..

ولن يتم إلا بالعودة إلى النقطة التى يبدأ منها الإصلاح: (كتاب الله.. وسنة رسوله ﷺ).

من الخطب القضائية:

اختصم أبو الأسود الدؤلى وزوجته أمام زياد بن أبيه فى ابن كان لهما. وأراد أبو الأسود أن يضمه إليه.

فقالت الزوجة: أصلح الله الأمير...هذا ابنى: كان بطنى وعاءه. وحجرى فناءه. وثديى سقاءه. أكلؤه - أحفظه وأرعاه - إذا نام. وأحفظه إذا قام...فلم أزل بذلك سبعة أعوام. حتى إذا استوفى فصاله - فطامه - وكملت خصاله. واستوعكت - اشتدت وصلبت - أوصاله. وأملت نفعه. ورجوت دُفعه - دفاعه عنى - أراد أن يأخذه منى كرها.. فآدنى - أعنِّى والآد القوة - أيها الأمير. فقد رام قهرى. وأراد قسرى - إجبارى -.

فقال أبو الأسود: أصلحك الله: هذا ابنى حملته قبل أن تحمله...ووضعته قبل أن تضعه...وأنا أقوم عليه فى أدبه. وأنظر فى أوده - إعوجاجه - وأمنحه وألهمه حلمى حتى يكمل عقله. ويستحكم فتله «تبلغ القوة الجسدية تمامها. والفتل الأحكام».

فقالت الزوجة: صدق ـ أصلحك الله: حمله خفا. وحملته ثقلا... ووضعه شهوة. ووضعته كرها.

فقال له زياد: اردد على المرأة ولدها. فهى أحق به منك ودعنى من سجعك[1].

تعليق:

استخدم الزوج والزوجة هنا سلاح البيان وصولا إلى الحق المأمول.. وللبيان سحره وجاذبيته التى قد تطمس أحياناً معالم الحق. ويحصل المبطل ببهرجة حديثه على ما ليس له.

وقد حذر الرسول ﷺ من خداع القول ومن خطباء الفتنة الذين يسخرون ملكة البيان لديهم لإبطال الحق..

وقد حاول كل من الطرفين هنا عرض حجته بلباقة وذكاء وقوة أسلوب.. وإلى جانب الحجج المتقارعة يلعب الاستعفاف دوره فى مثل هذا القول:

(أ) أصلح الله الأمير.

(ب) أصلحك الله.

(جـ) وحين تشير الزوجة إلى أنوثتها وضعفها. ومن ثم حاجتها الملحة إلى عون والدها.. ثم ما كان من لجوئها إلى القاضى ليقف إلى جانبها فى محنتها.. إزاء زوج يلوح بقوته وحيلته.

وقد حاول الزوج أن يوشى حديثه بطلاء من السجع يفتح به الطريق إلى قلب القاضى.. مركزاً بذلك على الجانب العاطفى... لكن القاضى كان أكثر وعياً وانصافاً حين استجاب للمرأة مقتنعاً بوجهة نظرها.. ضارباً صفحا عن هذا الطلاء البيانى من قبل الزوج.. وذلك قوله: (اردد على المرأة ولدها. فهى أحق به. ودعنى من سجعك)!

ويلفت النظر هنا أن كلا الطرفين تجنب الكلم الجارح.. واللفظة النابية لتكون الحجة وحدها فصل الخطاب فى القضية.

---

(١) أمالى القالى جـ: ٢/ ١٥.

من كلمات الشيخ

محمد عبده

تأمل الامام محمد عبده واقع الأمة الإسلامية. وواقع الأمم الأخرى فوجد التناقض العجيب. والذى عبر عنه فى بقوله:

(إن المسيحية قد بنيت على المسالمة والمياسرة وجاءت برفع القصاص. ومع ذلك نرى الأمم المسيحية تتسابق إلى الفتح والغلب والقتال.

والإسلام قد بنى على طلب الغلبة والشوكة والعزة. ومع ذلك نرى الأمم التى تدين به متهاونة بالقوة متساهلة فى طلب لوازمها)[1].

وقد شدد النكير لرفع هذا التناقض عن طريق بث الأمل فى قلوب المسلمين بهذه الكلمة بعنوان: (الأمل وطلب المجد)[2].

ليس الأمل هو الأمنية والتشهى اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ويعبر عنها: بليت لى كذا من الفضل. مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش واللهو بما يبعد عن المرغوب.

كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته فى سير الإنسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة فيسوق إليه ما يهجس بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاقى مشقة.

إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ويصحبه حمل للنفس على المكاره وعرك لها فى المشاق والمتاعب وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر والشدائد بالجلد وتهوين كل ملم يعرض لها فى سبيل الغرض من الحياة.

حتى يرسخ فى مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغذ بنيل الأرب فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد.

فضلا عن المال الذى لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث

---

(١) من مقال بمجلة العروة الوثقى.

(٢) العروة الوثقى العدد ١١ ـ يونية ١٨٨٤.

الكون عجبًا:

كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة؟.

وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل والأمل وحب الكرامة طبعيان فى الإنسان؟

بعد إمعان النظر تجد السبب فى ذلك ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هى سلطان أعماله.

وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع إلى قوته فرآها واهنة فيعترف بوهنه ويسكن إلى عجزه فييأس ويقنط ويذل ويسفل اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته متى كانت قدرة المانع أعظم من قوته. فلا سبيل إلى العمل لاستحالة قهر المانع فينقطع الأمل فيقع فى الشقاء الأبدى.

أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء. لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس وتغتال آماله غائلة القنوط.

فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوته النظر إلى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة... فيركن إليها فى أعماله ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقاً - فكلما تعاظمت عليه الشدائد.. زادت همته انبعاثاً فى مدافعتها معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب فلا يمل ولا يكل ولا تدركه لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلقى قيادهم إلى الأذلاء وأن يدك الجبال ويشق البحار ويمكن الضعفاء من نواصى الأقوياء.

ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا ريب فيها بما قال وهو أصدق القائلين: ﴿يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيئسوا من روح

الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾.

وبما حكى من قول نبيه إبراهيم: ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾.

فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ومن أين يطرق اليأس قلباً عقد على الإيمان بالله وبقدرته الكاملة.

التحليل:

رأى الإمام محمد عبده ما عليه المسلمون من فتور العزائم وضعف الهمم وكيف نجح أعداء الإسلام فى التشويش على الأمة وخاصة فى التهوين من عقيدة القضاء والقدر حتى التبست عليهم المسالك وغامت المبادئ الحقيقية فأطلق هذه الصيحة من نذير عريان يعز عليه ما يرى وما يسمع: إنه يسخر أولا من أمة الإسلام كيف لم تنهض إلى المجد وتتحمل تبعات الكفاح ودينها دين القوة والطموح بينما المسيحية - وروحها المسالمة - تدفع بنيها إلى أن يأخذوا الدنيا غلابا؟.

ثم يفرق بين الأمانى الكذاب.. والأمل الحقيقى.

فالتمنى أن تقعد عن السعى انتظاراً للذهب أو الفضة تهبط عليك من السماء.. دون أن تدفع ثمن ذلك عرقاً ودماً.

إن هذا المسلك الهابط فضلا عن مجافاته لطبائع الأمور فإنه من ناحية أخرى جهل بسنن الله تعالى فى الاجتماع القاضية بأن من جد وجد. وأن الأمل الجاد هو الذى يرجو لقاء مقصده.. وفى نفس الوقت يسعى له سعيه وإن كلفه السعى حياته.

(إن الميل للرفعة أمر فطرى فكل واحد يطلب الكرامة والتمكن فى قلب الآخر. لذلك يتزاحم الناس فى الآمال والأعمال حتى يكونوا جميعاً شرفاء بما يأتون من أعمالهم حكمة من الله تعالى. ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين).

ويمضى الإمام فى بيان الطريق إلى اليأس تحذيراً منه:

فحين يعتمد الإنسان على قوته وقدرته وحدها.. فإنه سيصادف صعاباً

وعثرات على الطريق. . ومن هذه الصعاب ما يكون فوق قدرته وقوته. . عندئذ يستسلم فى محاولة للفرار من الحياة مهزوما. .ذلك بأنه لم يتصور أن هناك قوة أعلى من قوته وقدرته معاً ولو أنه تصور ذلك ما وجد اليأس إلى قلبه سبيلا. . وكيف ييأس وقدرة الله تعالى لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء. .

ثم يخلص إلى نتيجة هى: ـ

إن الإيمان بالله تعالى وبالقدر خيره وشره حلوه ومره عقيدة من شأنها دفع الإنسان إلى الأمام. ويبلغ التحذير مداه حين جعل اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال كما نبه إلى ذلك ربنا فى كتابه العزيز.

وأنت ترى الكاتب هنا لا يكتفى بالنصوص يواجه بها قومه. . فإن هذه النصوص على أهميتها تظل تتقاضى الكاتب أو الخطيب أن يجلى مقاصدها للناس. وهو ما فعله الكاتب هنا حين وصل إلى أعماق الإنسان ليوقظها بهذا الأسلوب المنطقى الواقعى. وعندما يجىء النص القرآنى بعد ذلك. . تكون النفس قد استعدت لتحوله إلى عقيدة تقاتل دونها. بدل أن تكتفى باختزانه كمعرفة مجردة لاتقيمه ولا تقعده.

*****

كيف حرر الإسلام الخطابة من حمية الجاهلية

تعبير الإنسان خط بارز من خطوط شخصيته.. والعالمون بطبيعة الإنسان يقررون:

أن العقل المنضبط فى تصوراته.. يستتبع بالضرورة انضباط اللسان فى أدائه.

ولكى يصل المتكلم إلى ما يريد لابد من الأمرين معاً:

عقل سليم... وتعبير سليم..

ولابد من الوعى بهذه الحقيقة.. هذا الوعى الذى يفرض علينا وزن الكلمة قبل استعمالها. من حيث كانت دليلا علينا.

والأديب والخطيب أحد صناع الكلمة والمعبرون عن آمالها وآلامها. وإذ تمضى الأحداث. وتنصرم الأيام.. فإن قلم الأديب ولسان الخطيب يستبقيها.. ويجليها.. وكلاهما مرآة تنعكس عليها أحداث الحياة.. وتبقى ماثلة فى ضمير الأمة ما دام فيها خطيب وأديب..

ولكن.. لن تكون للكلمة وصناعتها تلك القيمة إلا إذا ارتبطت بهدف سام وخلق نبيل.. وعبرت عن الفضائل بل وحشدت ملكات النفوس للتعلق بها. والاستشهاد فى سبيلها.

وكذلك كان الإسلام.. فى مجال الخطابة التى حررها من حمية الجاهلية. لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وتسير بالحياة والأحياء فى الاتجاه الصحيح. وتلك هى نقطة الخلاف بين الإسلام والاتجاهات الملحدة قديماً وحديثاً:

وقد عقد «جولد زيهر» فصلا بعنوان: الدين المرؤة وهو يتلخص فى:

(أن الإسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية.. وهذان المثلان لا يتشابهان.. وكثيراً ما يتناقضان..

فالشجاعة الشخصية. والشهامة التى لا حد لها. والكرم إلى حد الإسراف. والإخلاص التام للقبيلة.. والقسوة فى الانتقام.. والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب.. أو على قبيلة بقول أو فعل..

هذه هى أصول الفضائل عند العرب الوثنيين فى الجاهلية.

أما فى الإسلام: فالخضوع لله. والانقياد لأمره.. والصبر.. وإخضاع منافع الشخص. ومنافع قبيلته لأوامر الدين.. والقناعة.. وعدم التفاخر والتكاثر.. وتجنب الكبر والعظمة.. هى المثل الأعلى للإنسان فى الحياة)[1].

وقد كانت الخطابة أصدق معبر عن هذا المثل الأعلى. وكان لها دورها البارز فى تعميق هذه المفاهيم فى ضمائر المؤمنين.

أمثلة من السيرة:

(قدم وفد تميم على الرسول. فنادوه من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد. فلما خرج قالوا: يا محمد.. قد جئنا نفاخرك. فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «**قد أذنت لخطيبكم. فليقل**». فقام عطارد بن حاجب. فقال: «الحمد لله الذى له علينا الفضل. وهو أهله... الذى جعلنا ملوكا. ووهب لنا أموالا عظاما. نفعل فيها المعروف...وجعلنا أعز أهل المشرق. وأكثره عددا. وأيسره عدة.

فمن مثلنا فى الناس؟! ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم؟! فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا. وإنا لو نشاء لأكثرنا من الكلام. ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا. وأنا نعرف بذلك.

أقول هذا الآن. لتأتونا بمثل قولنا. وأمر أفضل من أمرنا)[1].

إن «عطارد بن حاجب» يمثل وجهة نظر الجاهلية المدفوعة بعامل «التفاخر» والمكاثرة بالمال...هذا التفاخر الذى وصل به إلى مرتبة تحدى الناس جميعاً أن يكونوا مثلهم فى قوله منكرا. (فمن مثلنا فى الناس)؟

وإذا كان الخطيب قد بدأ خطبته بحمد الله تعالى. فهو الحمد الراجع إلى

---

(١) احمد أمين فجر الإسلام: ٧٦، ٧٧.

(١) ابن هشام: ٣٠٦/٤.

خصوصيتهم وتميزهم وتفردهم بكل الفضائل دون الناس الذين يشكلون الذنب. بينما قبيلة عطارد تمثل الرأس المرفوع!

وأنت خبير بأن خطبة من هذا النوع من شأنها أن تثير الحمية فى قلوب الطرف الآخر ـ من نفس النوع ـ. ليهب مدافعاً عن نفسه فى معركة تنتهى طبعاً بهزيمة الفريقين!.. تماماً كما تنتهى كل معارك المفاخرة والمكاثرة البعيدة عن منهج الله تعالى.

ويصور الأستاذ سيد قطب هذا الاتجاه الرجعى فى قوله:

(إن هؤلاء الكتاب والشعراء والفنانين ليقومون بمهمة تخدير الشعوب وتنويمها.. سواء سبحوا بحمد الطغاة... أو سبحوا بحمد الشهوات.

فأما حين يسبحون بحمد الطغاة فهم يزيفون الواقع على الشعوب. ويخفون عنها شناعة الطغيان وقبحه..

ويصدونها عن الثورة عليه. أو الوقوف فى وجهه.

وأما حين يسبحون بحمد الشهوات: فهم يخدرون مشاعر الشعوب. ويستنفدون طاقاتها فى الرجس والدنس.. ويدغدغون غرائزها.. فتظل مشغولة بهذه الدغدغة. لا تفكر فى شأن عام. ولا تحس بظلم واقع).

هؤلاء الناس يضاعفون مشكلات الإنسان.. ويزيدونه أحمالا فوق أحماله.. ويقفون مع نفسه الأمارة. ضده!!.. وصحيح أنهم يحققون ربحا ـ لكنه ربح عن طريق الكذب والتدليس.

وقصة هؤلاء مع الإنسان.. هى قصة ذلك الرجل الذى نصحه الطبيب النفسى أن يدفن همومه.. ويسيح فى الأرض حتى ينسى بالتجوال فى الأرض همومه.. ورحل الرجل فعلا.. وزار كثيراً من المدن.. وملأ ناظريه بألوان من المواقف والمشاهد.. بيد أنه عاد بهمومه إلى حيث بدأ!!!:

لقد اكتشف أن المشكلة فى داخله.. فى أعماقه.. ولأنها فى أعماقه.. فقد تجولت معه.. ولم تفارقه!

وإذن. فالعلاج ليس هناك في أى مكان في الدنيا. وإنما يبدأ العلاج من داخله.. من ضميره!

وتلك هي مهمة الواعظ الذى يعمل فى أكثر من ميدان. إنه يوجه المريض.. ويرشده إلى الطريق القويم.. حتى يبدأ.. ثم يدير معركة أخرى مع هؤلاء الذين يعاكسون عمله فيضيعون على الإنسان فرصة الشفاء.. والمرضى يجهلون.. أو يتجاهلون!!

وعندما انتهى خطيب الجاهلية من خطبته.. قال ﷺ لثابت بن قيس: **«قم فأجب الرجل فى خطبته»**.

فقام ثابت فقال: «الحمدلله الذى السموات والأرض خلقه. قضى فيها أمره. ووسع كرسيه علمه. ولم يك شىء قط إلا من فضله.

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا. واصطفى من خير خلقه رسولا: أكرمهم نسبا. وأصدقهم حديثاً. وأفضلهم حسبا. فأنزل عليه كتابه. وائتمنه على خلقه. فكان خيرة الله من العاملين.

ثم دعا الناس إلى الإيمان. فآمن برسول الله المهاجرون من قومه..وذوى رحمه. أكرم الناس أنسابا. وأحسن الناس وجوها..وخير الناس فعالا.

ثم كان أول الخلق استجابة لله. حين دعاه رسول الله ﷺ نحن..فنحن أنصار الله. وزراء رسوله، فقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله..فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه..ومن كفر جاهرناه فى الله أبدا. وكان قتله علينا يسيرا.

أقول قولى هذا. وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات..والسلام عليكم»[1].

ويظهر الفرق واضحاً بين المنهجين:

فالخطيب هنا يحمد الله تعالى. الذى لا حول إلا حوله. مالك الملك. والذى أحاط بكل شىء علما.

وهو معنى يشجب ما يزعمه الجاهليون من قوة وحول لا وزن لهما.. وأين قدرة المخلوق من قدرة الخالق؟!

---

(١) المرجع والموضع السابق.

ثم يزهو الخطيب بشرف الرسالة التى اصطفى لها محمداً ﷺ. . .ثم شرفهم بأن يكونوا جنده ووزراءه.

وإذا عاد الجاهليون بالمال والرجال. . فإنهم يعودون برسول الله ﷺ. . ثم بالهداية التى أكرمهم الله بها. . وهى أثقل فى الميزان من كل نعرة جاهلية!

ويعلن الخطيب مسؤولية الجماعة المسلمة عن تغيير هذه المفاهيم الخاطئة لتكون الكلمة العليا للاسلام: (نقاتل الناس حتى يؤمنوا. .).

وكما افتتح الخطبة بحمد الخالق المالك العليم القدير. . يختمها بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات. . اتهاما للنفس. . وإعلاناً لحاجتها المستمرة إلى مغفرته وتأييده. . وأن النفوس مهما بلغت من السمو فإن حاجتها إلى الله ومغفرته وعونه لا تنقطع أبدا.

وقد بقى ﷺ وفيا لهذا المنهج يرعاه. . وينميه. فى الوقت الذى يميت فى صدور أصحابه حمية الجاهلية:

عن أنس رضى الله عنه قال قال ﷺ: **«انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قيل: كيف أنصره ظالما؟ قال تحجزه عن الظلم: فإن ذلك نصره.»** [1]حديث صحيح.

لقد كانت النصرة فى الجاهلية على أساس الدم والقبيلة بغض النظر عن صواب المنصور أو خطئه.

وأراد ﷺ أن يغير هذا المفهوم الفاسد لتكون النصرة على أساس الحق. . مهما كانت درجة القرابة. . . كانت هذه الجملة سائرة فى الجاهلية. . .ونقلها ﷺ كما هى.

ولما تعجب صحابته متسائلين: ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ فقال: أن تأخذ على يده فتمنعه من ظلمه.

وانتصر المفهوم الإسلامى على المفهوم الجاهلى. ولكن كيف تحقق هذا الانتصار؟

إنه البيان النبوى الرائع الذى احتفظ بنفس الجملة واستعملها بشكلها.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى، جـ٣ صـ٥٨. ط. الأولى: سنة ١٣٥٦هـ. ١٩٣٨م.

وذلك لأسباب تجعل منها درساً عملياً مفيدا:

أولا: تنبيه للمستمعين. إذ يستعمل جملة ممنوعة فى ظاهرها. لا تحمل معنى مقبولا. وذلك مما يسترعى الانتباه.

ثانياً: التأثير. لأنه يربطه بمعنى عاطفى متصل بالولاء للقبيلة يجعل له تأثيراً قويا.

ثالثاً: تعميق معنى الأخوة. ليحل محل المفهوم الجاهلى القبلى[1]؟

أنشد لبيد بن ربيعة:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ تغير وجهه الكريم وسأل:

«إلى أين يا أبا ليلى؟!»(تلطف!)

فقال الشاعر: إلى الجنة يا رسول الله.

وطابت نفسه ﷺ... لأن المفهوم ليس غطرسة وتألها. وإنما هو تقرب إلى الله.

٢ ـ وعلى دربه ﷺ سار الصحابة:

فعندما هجا «الحطيئة» الصحابى الجليل «الزبرقان بن بدر» وخرج بالهجاء عن المألوف الإسلامى.. أقام عمر الدنيا وأقعدها.. ثم حاكمه.. وحكم عليه بما جعله نكالا.

وقد يظن ظان أن التزام الخطابة أو الأدب بالفضيلة يشكل قيدا على حريته وسدا أمام ملكته.. وهذا وهم لا يصبر على النقد الصحيح:

فعندما تلتزم الخطابة بمبادئ الإسلام لا تضيق دائرتها.. بل تبقى ترجمانا لمشاعر الإنسان. وتطلعاته فى مختلف مواقفه.

وقد واكبت الإسلام فعبرت عنه. وقدمت مبادئه للناس فى ثوب أخاذ مؤثر.

*****

(١) عن مجلة البعث الإسلامى يناير ١٩٨٣ بتصرف.

الحسن البصرى

واعظ.. فى الخالدين[1]

إذا ملك الحكام الجسوم. وسيطروا على مرافق الحياة. . فإن الدعاة إلى الله يملكون القلوب. ويسيطرون على المشاعر. .

وإذا قوى مركز الأمة السياسى بفضل قوادها. . فقد بقيت بفضل العلماء عقيدتها وأخلاقها. . وهما سر حياتها.

ولقد شغل رواة الأدب أنفسهم بالتاريخ لأدباء وعلماء ممن برعوا فى المديح أو الهجاء. . والتفنن فى عرض مباهج الحياة. . ولكن ذاكرة الدنيا ما زالت تحتفظ بخطباء وعلماء. . خطبوا وأرشدوا لله. . لا للدنيا. . وتركوا بصمات أصابعهم على مسار الحياة. . بل وفرضوا إرادتهم عليها. . وإذا لم يستطيعوا يوما أن يوقفوا تيار الإلحاد أو يحولوا مجراه. . فقد عطلوا سيره زمنا. . وانتشلوا من لجته الفائرة أفرادا وأمما. . وبقيت كلمة التوحيد بفضل مجهوداتهم باقية. .

وعلى رأس هؤلاء الدعاة سيد التابعين: **الحسن البصرى:**

وبهذه السطور التى نجلى بها بعض جوانب حياته المباركة. . نعود به مرة أخرى إلى ساحة الدعوة مثلا أعلى ونموذجاً يحتذى. . وقدوة حسنة تملأ أنظار طلاب الدعوة. . لينسجوا على منواله. ويسيروا على دربه.

نشأته:

لما فتح المغيرة بن شعبة «ميسان» بالعراق ـ فى عهد عمر رضى الله عنه ـ سبى «يسار» وسيق إلى المدينة المنورة.

وكان «يسار» هذا من نصيب الصحابى الجليل «زيد بن ثابت الأنصارى» صاحب رسول الله ﷺ. وكاتب الوحى.

وقد رأى «زيد» فى «يسار» نموذج الرجل الطيب المبارك. فأعتقه تقديرا لخلقه

(أ) رجعنا فى هذا البحث إلى. هداية المرشدين للشيخ على محفوظ.

(ب) رجال الفكر والدعوة. للندوى.

(جـ) بعض المجلات الإسلامية.

الكريم. وليتيح لملكاته أن تنطلق فى ظل من الحرية على سجيتها. فيسعد بها مجتمعاً أحوج ما يكون إلى أمثاله.

ثم توج هذا العتق فزوجه امرأة تساوقه فى فضله. هى «خيرة» مولاة أم سلمة زوج النبى ﷺ. وأم المؤمنين. والتى أعتقها أيضاً كما فعل «زيد» بزوجها يسار.

واستقبل المجتمع الإسلامى حينئذ أسرة طيبة بدأت تتفتح براعمها لتنشر فى الأجواء عطرها وثمرها.

وكانت أولى هذه الثمار «الحسن البصرى» الذى ولد لهذين الأبوين.. وقد أسعده الحظ أن يكون الميلاد فى بيت أم سلمة رضى الله عنها.

وعادت الأسرة الناشئة إلى «وادى القرى» قريباً من المدينة المنورة. ثم بقيت هناك.

لكن ذلك لم يمنع «خيرة» من التردد على المدينة مدفوعة بحنين قوى ـ ومعها وليدها الحسن ـ لتسعد بلقاء أم المؤمنين.. أم سلمة رضى الله عنها. وغيرها من أمهات المؤمنين.. فأكسبها ذلك خيرا وعلما وبركة فى الدين والدنيا..

وربما كانت «خيرة» تذهب فى حاجة لأم سلمة رضى الله عنها فيبكى «الحسن» فتعطيه أم سلمة ثديها.

وإذن فقد ناله من هذه الصحبة بركة ظهرت آثارها من بعد.

عناصر القوة فى شخصية الحسن:

من هذه اللمحات التاريخية نرى عناصر التأثير فى شخصية الرجل. والتى تتلخص فى:

١ ـ والدين كريمين ورث عنهما فطرة صافية.

٢ ـ بيئة عربية خالصة. أخذته بالعربية الفصحى فكان أحد فرسانها.

٣ ـ مصاحبته لكثير من الصحابة. وكان ذلك كله بيئة روحية. غذته بعناصر التفوق فكان العالم المدقق. والخطيب المؤثر. والزاهد المتجرد لرسالته.

وقد عاش حياته قوى الشخصية. ساحر الأسلوب. نافذ التأثير. وأحبته الأمة. وأعطاه الشباب ولاءهم وتقديرهم. هذا التقدير الذى كان موته شاهدا عليه:

(قال بعضهم ممن شهد جنازته: لا أعلم أن صلاة العصر تركت فى الإسلام - يعنى فى جامع البصرة - إلا يومئذ - أى يوم وفاة الحسن رضى الله عنه - [1].

فصاحته وبيانه:

امتلك الحسن رضى الله عنه ناصية البيان. مع أنه من أصل أعجمى!

قال الإمام الغزالى: (لقد كان الحسن البصرى - رحمه الله - أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم. اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك)[2].

وشهدت بذلك السيدة عائشة رضى الله عنها حين سمعته يتكلم فقالت: من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين؟

قال يونس بن عبيد. وقد سئل: هل تعرف رجلا يعمل بعمل الحسن البصرى؟

فقال: رحم الله الحسن.. والله ما أعلم أحدا يقول بقوله.. فكيف يعمل بعمله؟!

كان والله إذا ذكرت عنده النار. كأنه لم يخلق إلا لها. وما رؤى قط إلا وكأن النار والجنة بين عينيه: خشية ورجاء لا يغلب أحدهما صاحبه.

وإذن فالحسن رضى الله عنه لم يكن ينقل مواعظه من بطون الكتب.. ولا يستمدها من أخبار الرواة.. وإنما كانت مواعظه من ذوب قلبه.. الذى يرى بعينه الجنة والنار.. فيصف عن مشاهده. ويحكى عن يقين.

ومن هنا قيل: لولا الحسن.. وسيف الحجاج. لضاعت الدولة المروانية. لقد

---

(١) ابن خلكان: ترجمة الحسن البصرى.

(٢) إحياء علوم الدين: جـ١/٦٨.

كان عصر الحجاج طافحاً بالفتن. والفرق المتعددة. فكانت كل طائفة تتمسح به. وتتقرب إليه. وتتمحل فى حمل أقواله لتؤيد بها وجهة نظرها.

وبقى الرجل ثابتاً على المبدأ... بعيداً عن الحركات السياسية. والفتن بعد مقتل عثمان رضى الله عنه... ولم يكتف الحسن بحمل القلم دفاعاً عن الحق.. لكنه حمل السيف تمكيناً له أيضاً. وذلك بانخراطه فى الجيش المحارب فى المشرق بعد مقتل على رضى الله عنه.

وقد اختاره عمر بن عبد العزيز واليا على البصرة عام ٩٩هـ وقال: وليت قضاء البصرة سيد التابعين.

وأخيراً. عاد من رحلته تلك. ليجد الشباب فى انتظاره. فالتفوا حوله. ولزموا مجالسه. وتأثروا به تأثراً عميقاً. كفاء علمه وفضله وأدبه.

مقتطفات من بيانه وحكمه:

يقول بعض الباحثين[١]: (إن إجادة البيان تستدعى أن يغوص العقل فى كل ما تحوم حوله النفوس مما يصح الحديث عنه.

كما تستدعى أن يغوص فى نفس السامع. ويتعرف منها مواطن الضعف والقوة. ليبلغ المتكلم من نفس السامع ما أراد).

وقد كان الحسن البصرى رضى الله عنه ذلك الواعظ الذى سبر غور الحياة والأحياء من حوله.. واكتشف ببصيرته النافذة عيوب الناس وآفاتهم.

وعلى رأس هذه الآفات: داء الأمم قديماً وحديثاً وهو: الترف... ثم.. النفاق وآثاره المرة فى صفوف الأمة..

فشرع قلمه ولسانه فى معركة ضارية واجه بها تلك العلل الناشبة فى جسم الأمة. فكانت له جولات وجولات حقق فيها كثيراً من الانتصارات.

ومواعظ الحسن البصرى تجمع بين القوة والسهولة. التى عرف بها كلام عهد الصحابة.

---

(١) الندوى الشيخ علي الزنكلونى ـ الدعوة والدعاة.

وهى تدور غالباً حول قصر الحياة وغدر الدنيا. وخلود الآخرة. والحث على الإيمان والعمل الصالح.

والتقوى والخشية والتحذير من غرور النفس وطول الآمال. ولا شك أن المجتمع الذى افترسته المادية. واستحوذت عليه الشهوات وأصيب بالإغراق فى الترف. والإمعان فى الأمانى كان فى حاجة ملحة إلى مثل هذه المواعظ. التى تكشف الغطاء عن العيون. وتمس القلوب[1].

...... وأقدم هنا مثالا من هذه المواعظ.

فمنها موعظته يذكر فيها عهد الصحابة. ويصف المؤمن: هيهات هيهات!. أهلك الناس الأمانى: قول بلا عمل. ومعرفة بغير صبر. وإيمان بلا يقين... مالى أرى رجالا ولا أرى عقولا!. وأسمع حسيسا ولا أرى أنيسا!

دخل القوم والله ثم خرجوا. وعرفوا ثم أنكروا وحرموا ثم استحلوا.

إنما دين أحدكم لعقة على لسانه. إذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب؟

قال: نعم!..كذب ومالك يوم الدين!

إن من أخلاق المؤمن قوة فى دين. وإيمانا فى يقين. وعلما فى سلم. وحلما بعلم. وكيسا فى رفق. وتحملا فى فاقة. وقصدا فى غنى. وشفقة فى نفقة. ورحمة لمجهود. وعطاء فى الحقوق. وإنصافا فى الاستقامة.

لا يحيف على من يبغض. ولا يأثم فى مساعدة من يحب. ولا يهمز ولا يغمز. ولا يلمز. ولا يلغو. ولا يلهو ولا يلعب. ولا يمشى بالنميمة. ولا يتبع ما ليس له. ولا يجحد الحق الذى عليه. ولا يتجاوز فى العذر. ولا يشمت بالفجيعة إن حلت بغيره. ولا يسر بالمعصية إذا نزلت بسواه.

المؤمن فى الصلاة خاشع. وإلى الركوع مسارع. قوله شفاء. وصبره تقى. وسكوته فكرة. ونظره عبرة.

يخالط العلماء ليعلم. ويسكت بينهم ليسلم. ويتكلم ليغنم...إن أحسن

(١) الندوى ـ رجال الفكر والدعوة: ٧٢.

استبشر. وإن أساء استغفر. وإن عتب استعتب. وإن سفه عليه حلم. وإن ظلم صبر. وإن جير عليه عدل. لا يتعوذ بغير الله. ولا يستعين إلا بالله. وقور فى الملاء. شكور فى الخلاء قانع بالرزق. حامد على الرخاء. صابر على البلاء... إن جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين. وإن جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين.

هكذا كان أصحاب النبى ﷺ. الأول فالأول. حتى لحقوا بالله عز وجل... وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح.

وإنما غير بكم لما غيرتم. ثم تلا: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال**﴾.

استمع إليه وهو يعاتب الإنسان الذاهل عن مصيره.. بل عن واقعه:

(يا ابن آدم: طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فرحم الله رجلا نظر فتفكر. وتفكر فاعتبر. واعتبر فأبصر وأبصر فصبر)[1].

وها هو ذا يشن الغارة على الترف المانع من التدبر. الذاهب بصاحبه فى متاهات العيش.. والذى حمل المعدة فوق ما تطيق فأمرضها.. وحمل الجيب فوق طاقته فأفرغه!

(إن قوما غدوا فى المطارف العتاق «المطارف: أثواب من خز» والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيعون الأمانات. يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمة أهزلوا دينهم وأسمنوا براذينهم، ووسعوا دورهم وضيقوا قبورهم ألم ترهم قد جددوا الثياب وأخلقوا الدين، يتكئ أحدهم على شماله فيأكل من غير ماله........... يدعو بحلو بعد حامض وبحار بعد بارد وبرطب بعد يابس.... حتى إذا أخذته الكظة «الشبع» تجشأ من البشم «امتلأ البطن» ثم قال: يا جارية هاتى حاطوما، يهضم الطعام. يا أحيمق لا والله ما تهضم إلا دينك... أين جارك؟ أين يتيمك؟

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى: ٦٩، ٧٠.

أين مسكينك؟ أين ما أوصاك الله عز وجل به).

إنه يوقظ الضمير الغافل ويشده ليدخر من هذه الأموال ما يسعد به اليتيم والمسكين.. بدل هذا السعار الذى شغله بنفسه. ثم أذهله عن واجبه إزاء أخيه الإنسان. ليكون التنافس على الخير فى صحبة الأخيار.. بعيدا عن منهج الأشرار.. لا سيما والعمر قصير. والفرصة لا تحتمل التسويف:

(اقرأوا معى وعظه الذى رواه الجاحظ فى كتابه لتجدوه خير مثال لوتيرته هذه وخير شاهد لما رأيناه من رأى حول أسلوبه فقال:

«يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً، يا ابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغتبطهم فيه، الثواء ها هنا قليل والبقاء هناك طويل، أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبى بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم....).

وما أروع قوله الداعى إلى حفظ توازن الإنسان وضبط مشاعره حتى لا يتمزق كيانه:

من رام عيشا هنيئاً يستفيد به فى دينه ثم فى أخراه إقبالا
فلينظرن إلـى مـن فوقه أدبا ولينظرن إلى من دونه مالا

فإذا كان ولابد من تأمل أحوال الآخرين فلتكن لنا نظرتان نحقق بهما سعادتنا:

نظرة إلى من فوقنا فى الدين.. تأسيا به وارتفاعا إليه.. ونظرة إلى من هم أقل منا فى المتاع.. شكرا لله ورضا بما آتانا.

القادرون على التمام:

يقول الشاعر العربى:

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

أجل.. إن الذى يجاهد عيبا فيه بغية التخلص منه.. ثم لا تسعفه

إمكاناته.. معذور..

أما هذا الذى يحس بنقطة الضعف فى حياته.. ولو أراد لانتصر عليها.. ثم لا يفعل.. فهو ذلك الذى يعنيه الشاعر:

إنه قادر على أن يكون كاملا.. بيد أنه يفضل أن يبقى متدحرجاً فى السفح.. ثم لا يحاول التسلق عبر القمة العالية!

وإذن.. فهو على أفدح ما يكون العيب.. من حيث توفرت له ضمانات الكمال.. ثم هو لا يريد!

وبعض خطبائنا يقفون بأنفسهم ذلك الموقف الصعب:

فاستعدادهم للتوجيه قائم.. والمراجع متوفرة.. ومادة الحديث متاحة فيما تقذفهم به البيئة كل يوم من صنوف الانحراف المثيرة.. والداعية إلى مواجهتها بما يلائمها من علاج.. يجدونه مكتوباً عندهم فى القرآن والسنة.. ووقائع التاريخ.. لكنهم لا يفعلون.. وإذا فعلوا.. فليس أكثر من الاستشهاد الترتيب.. والذى لا يكلف غير النقل الحرفى من بطون الكتب وأسفار التاريخ.. دون أن يعتصروا ما فى ذلك التراث من قيم حضارية تجد فيه النفوس غذاءها وشفاءها..

ولو أنهم حملوا أنفسهم على العمل الجاد.. وقدروا جسامة المهمة الملقاة على عاتقهم.. فى مجال الهداية والإرشاد.. لأعدوا للأمر عدته.. وواجهوا المواقف بما يجب لها من استعداد يقف بهم حيث يراهم الناس أساة لجراحاتهم.. متحدثين باسمهم.. سائرين بهم نحو الكمال..

أزمة الثقة:

قد تستبد بالخطيب أزمة ثقة بربه وبنفسه.. وإذن فكيف يسكبها فى قلوب الآخرين.. وفاقد الشىء لا يعطيه؟!

وإذن.. فنقطة البداية.. أن يوثق صلته بخالقه عز وجل.. بحيث يمضى فى دعوته على ضوء إيمانه بربه سبحانه وتعالى.. وسوف تحمل كلماته سر هذا الإيمان وحيويته.. ومن ثم.. تحدث الأثر المبارك فى دنيا الناس.. وحين تتحول الخطابة إلى عمل رتيب.. وظيفة حكومية رسمية تفقد فى نفس الوقت فاعليتها وقدرتها

على تغيير الواقع إلى الأفضل. . إن بعض الخطباء يمارس وظيفته بروح اليأس من المستقبل. . ومن أهمية دوره فى الحياة. . فيمضى مع الحياة أو تمضى به الحياة بلا جديد يقدمه إلى الناس. . لأنه أساساً غير واثق بنفسه. . وبقدرة الكلمة على صنع المعجزات. . ويوم يسترد ثقته بخالقه سبحانه. . ثم بنفسه. يوم يفرض احترامه على جمهور لا يمنح ثقته إلا للذين يحبون وظيفتهم. . ثم يمنحونها كل ما فى كيانهم من جهد. . وما فى قلوبهم من أشواق.

لقد شاركت فى كثير من الأحفال: فى مصر. . وبعض الدول الإسلامية. . وبين يدى الحفل كنت أرمق الجمع الحاشد. . وأحاول أن أستكشف ما يدور بخلد بعض الحاضرين ممن يشغل منصبا خطيراً. . وكنت أحس بألوان من الاعتداد بالنفس. . أراها فى الهيئة. والنظرة وطريقة الكلام!

وما أحسست يوما أن واحدا من هؤلاء يتقدمنى لأن صنعتى الكلام. . وصناعتهم أن يرفعوا ويخفضوا؟!

وقد تكون ثيابه أغلى. . وقامته أطول. . ومن حوله يفوح العطر. . ومن أمامه يفسح الخدم الطريق!. ولكن صناعة الكلمة التى شرفنى الله تعالى بها تضعنى فى مقدمة الصفوف. . إن لم أكن أمام هذه الصفوف جميعاً. .

والدهر بالناس قلب. . يرفع أقواما. . ويخفض آخرين. . وتتغير أشخاص الرواية. . لتوزع الأدوار من جديد. . ويبقى الواعظ المعتز بنفسه. . يستمد قيمته من ذاته. . من جوهره الموصول بالحق. . يبقى ثابتاً لا يتزعزع. . متقدماً لا يتأخر. . آخذاً سمته المرموق. . دائماً. .

وعندما يعود الكبراء من الحفل فرادى. . ليستأنفوا من وراء المكاتب أعمالهم آمرين ناهين. . يعود الخطيب الناجح مع كل عائد: فكرة فى رأسه. . وعاطفة فى قلبه. .

إنه يصبح بالكلمة الأسرة المخلصة. . ممتد الوجود. . يغيب وينفض الناس. . ولكن فى خيالهم. . صورته!

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة